هايدرا

بعضٌ مِن حياة

دار خيال للنشر والترجمة ©
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوعريريج – الجزائر-
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك : 978-9931-06138-0
الإيداع القانوني : السداسي الثاني 2020.

شيماء عويسي

هايدرا

بعضٌ مِن حياة

رواية

إهداء

إلى الموءودِين بِزَيف المشاعر..
والمأسورين بين سُرَادِق كابوسٍ ما..
يَمنعهم مِن اقتحام الحياة..

"إنها شياطين خرساء تسكت عن الحق راضيةً الذُّلَّ والظلم الذي تقوقعَ عليها، لا الملائكةُ تستولي على السماء، ولا الجنُّ قد ملكوا عُمقَ الأرض، ولا البَشر يحِقُّ لهم قمع البراءة والتجبُّر فوقها، أو هدم الإنسانية كبنيانٍ متهالك، لقد وُلِدنا أحرارًا.. لنموت كذلك"

-١-

حين يَجِنُّ الليل..

قد تبكي السماء ألمًا وحزنًا على أهل الأرض حين تُغرقهم المعاصي في آبار الضياع، وربما يخترق الغمام صفحتها متجهّمًا في أشدِّ أيامها حرًّا، أين تأبى الشمس مغادرتها قبل أن تطبع عليها وصمةً حمراء تعزف بحنينٍ على الأفق القرمزي قبل الغروب؛ لِيُعَسعِس الليل بظلامه سكنًا لقلوب أضناها الألم، قد يكون الظلام ملاذًا لأرواحنا؛ تسكن بين هنيهاته نبضاتنا، وقد يكون بداية رُعبِنا حين يطاردنا السُّهاد من كل حدب وصوب، وحين تنهشنا الظنون، لكل شيء في هذا العالم أجل محتوم، حتى الشمس تأفل؛ والقمر بسلطته على النجوم لن يدوم، وزرقة السماء تتجهّم؛ وتطلُّ الغيوم باكيةً ترثي موتى تحملهم الأرض على سطحها، أولئك الذين يمتلكون حياةً تتساوى مع الموت، واهيةً لايدركون كنهها، هم أجدر بالبكاء على أطلال أرواحهم من الموتى الذين واراهم التراب، لأنهم وُلِدوا موتى، وعاشوا موتى، وماتوا موتى؛ وحين نفضت الحياة أيديها عن جثثهم، تذكّروا أنهم طوال حياتهم.. نسوا أن يعيشوا!

في ليلة من تلك الليالي، كانت السماء تَنُوحُ بنشيجٍ عذبٍ رغم الحرارة التي يتّسِمُ بها الشهر، أوراق الأشجار تصدر فحيحا مناغما لصوت المطر الذي تعاقب على مسامع الشوارع كنغمٍ منعشٍ جعل الأرض تهتزُّ بِطَرَبٍ وتربو أوراق الأشجار النَّدِيَّةُ فيزداد اخضرارها وزكاتها، وأثار ذرات التراب فامتزج الهواء برائحة عبِقَة، كانت هَوف تجلس منكسرة الخاطر مطأطئة في ذلك المنزل الواسع المُتشعِّب الذي يبدو الثراء الفاحش على أصحابه، تُغدِق على وجهها من

دموع عينيها في ذلّ تجرُّ أذياله بخيبة حتى عتبته التي وطأتها مرغمة هذا الصباح؛ رفقة وابل لامتناهٍ من الوعيد والصياح، بعد أن سَعَتْ لمغادرته إلى الأبد عقِبَ تلك الحادثة؛ شَعَرَت أنها لن تتحمّل أطنان اللوم والعتاب، وربما الكثير من الدموع والألم، وسنواتٍ من الضياع إن هي عادت إليه، لكن.. لابدّ وأن تدفع الثمن ستُعاقَب؛ وربما ستؤنّبها روحها وتستصغر نفسها، لكنها قد تعود بعدئذٍ، حين نزِلُّ في وحل الخطايا، نحتاج من يرفعنا بحنوٍّ دون أن يذكِّرنا بجميله علينا بين الحين والآخر، نحتاج شخصًا نمتنُّ لوجوده في حياتنا؛ دون أن يستمر في المنِّ علينا بفضله ليخنقنا به، نحتاج شخصا.. يكون طيّبا فقط لأجل ذلك!

ظِلال الأسى انعكسَتْ على الحائط رفقة ظِلال الأشياء المنكسرة التي تصدرها تلك الشمعة الوحيدة بالغرفة المظلمة لولا نورها النَّارنجي الممتدّ من لهيبها، استرَقَت نظرة إلى وجهها المتعب في المرآة الهائلة الحجم أمامها ومسحَت عليه بحزن، فقدَت جزءا من فتوّتِها وجمالها؛ كانت تعلم أنها ستخسر نضَارتها كلّ مرة تقوم فيها بعمل سيء، لكن نفسها وسوءها كانا أقوى من خوفها من فقدان عنفوانها وشبابها، التَفتَتْ إلى السرير الذي وضعَتْ عليه الرضيعة وأخذَتْ تعتصر دموع الندم من عينيها، اقتحَم والدُها الغرفة فجأة فهسهستْ رياحٌ رفيقةٌ أخمدت الشمعة التي تعزف فوق جرحها بِرِفق فتُسِيل دموعها كعين القِطر، عمّ ظلامٌ حالكٌ كدهاليز روحها؛ حتى إنها لم تكد تَمِيزُ جسد أبيها بين أطياف العتمة حولها، لكن عينيها ما لبثتا أن اعتادتا على الغرفة الدَّهماء قد تألف نفوسُنا الظلام وتتعايش معه، لكننا لن نَنفَكّ نبحث عن

ومضة نور حتى تنحلّ عن أرواحنا قيود الخوف، والشك، والبغض والكراهية، وربما الألم من الفراق، أو بقايا حبٍّ يترك ثقوبا في أرواحنا، حتى يبرق نور الله فينا حين ننكسر، ونتوب، ونتضرّع بين يديه بِرجاء، بعد أن خذلَنا البشر؛ وأدركنا ألا ملجأ من العباد إلا لرب العباد.

تقدّم نحوها بوجهٍ مكفهرّ يزيده الظلام رعبا، وبعينين مسودّتين شاخصتين تبدوان وكأنهما عانتا أرقا متواصلا لِلَيال طويلة، صرخ بعنف وأخذ يزوم ويزمجر كوحشٍ كاسر؛ حَدَجها بنظرة ازدراء واستصغار ثم لوّح بيديه في الهواء وصاح بعد أن وجّهَ ضربة قويةً بقبضته نحو الجدار، وبصوتٍ أجش يمزق حلقه وقد بدا في أوجِّ غضب جامح:

-فاجرة !

انتفضَت بذعرٍ تزامنا مع صياحه العالي، عصَفَت الرياح من النافذة التي فُتِحَت فجأة فلامسَت خصلات شعرها الكستنائية ووجهها الحنطيّ برفق؛ وكأنها تربّت عليها وتُعاتِبها بإحباط، رفع يديه وضرب على المكتب الذي كانت تجلس قُبالته ثم مرّر صفعة مدوّية على وجهها فارتعدَت فرائصها وسقطَت عن الكرسي وكأنها خرّت صريعة، تركَتهُ يرزح تحت موجةٍ من الحِنق والأسى مُدَمّرا كل ما يصادفه من أثاث برهةً من الزمن، بينما هي ملقاةٌ على الأرض تتمنّى لو يُمَرِّر على عنقها خنجرا يُنهي به حياتها؛ فقد سئِمت الوجود!

في جسر حياتنا الممتدِّ إلى حيوات الآخرين، نحتاج منهم من يمنحنا حبا صادقا دون مقابل يطلبه منّا، نحتاج من يتقبّلنا على طبيعتنا، بجوانب أرواحنا المضيئة، والمعتمة أيضا.. وحين ينفضُّ هؤلاء البشر من حولنا.. نزهد في الحياة؛ ونعتبرها موتا مؤقتا، هو نفق ممتدّ إلى موتة أزلية!

استَوَت جالسة فالتَفَت نحوها بعد أن حطّم كل ما بالغرفة من أثاث، تعالَت نداءاتٌ صغيرة من حنجرة الرضيعة الملقاة على السرير، لكن أحدا لم يهتمَّ لنحيبها البريء؛ رَفَع يديه وكأنه همَّ أن يضرب هَوف فأرخَت يديها وأغمضَت عينيها في تسليم، ودّت لو ابتلعتها الأرض وهَوَت بها في فجٍّ عميق، لو أنها تفقد تلك الأنفاس البائسة التي تخترق فتحات أنفها، لن يُحدِثَ ذلك فرقا، لقد دُفِنَت أحلامها من قبل تحت تربة اليأس، نفَضَت يديها عنها قبل شهور مضَت؛ لذلك.. أرادت أن تنتقم.. من نفسها، وممن حولها من أهلها.. ومن حلمها، فارتكبَت تلك الخطيئة ثأرا زائفا لتلك الكرامة المهدورة، لا تظُنُّ أنهم سيشعرون بألم طويل لفراقها هناك من يصبر ويصابر ويرابط حين يفقد الأمل في شيء تمنّاه ربما حلم.. ربما شعورٌ يريد من شخصٍ آخر أن يبادله معه؛ ربما شخصٌ عزيزٌ عليه، فيدرك يقينًا أنَّما فقده لحكمةٍ إلهية، ولطفٍ خفيّ من الله؛ ويسعى لتعويض ذاك الألم بنفحاتٍ من الأمل، يبدِّلُ الحروف؛ ليحوز على خير من ذلك، وهناك من يقنط ويصيبه اليأس، فتُظلِمُ روحه ويمضي هائِمًا لِملء ثغورها بالخطايا، لكنها لن تمتلئ أبدا؛ سيغوص حتى تموت نفسه غريقةً في العتمة؛ قد يُسَخِّر الله لها نفسا أخرى مطمئنّةً تشرق في دهمتها لتحيها

مجددا، وقد يتركها في غمرتها حتى حين؛ تتخبّط في ظُلمة سرمدية دون أن تكون قادرةً على الخروج منها إلا بإذن منه.

سقطَت يده بقوة على جسدها المُتَهَالكِ فطُرِحَت أرضا من جديد، كان يتخبّطُ بين الغضب الجامح والأسى؛ والحنق المسيطر والازدراء، واليأس القاتل والكراهية، يصرخ كمجنونٍ ذهب عقله يبكي كفتاةٍ رضيعةٍ فقدَت أهلها، يشعر بالخزي يلاحقه؛ لوهلة راودته فكرة قتلها وإنهاء حياتها، لكن ذلك لن ينفعه، لن يجعل البشر ينسَون وصمته، البشر ألسنةٌ لاذعةٌ تطالُ عيوب الآخرين باستمرار، لا الموت ولا التوبة ولا الدموع ستوقفها؛ ستظلُّ تنهش أسرار البيوت وتلوكها لتنشر ما يحدث بين جدرانها، ظنَّ أنه كان يوفّرُ لها كل ما أرادت؛ كان يعيش بذِخا مترَفا، وأغدق عليها من نِعَمه كابنةٍ له؛ عادةً ما يكون احتياجنا لشخص يثق بنا ويحنو علينا أكثر منه لشخصٍ ينفق علينا من أمواله، الأمان الذي تهَبُهُ لنا روح مطمئِنَّة تنشر بسماتها حولنا أهمُّ من المال والثراء؛ الماديات مهملةٌ أمام لغة الأرواح وصدق المشاعر؛ بِتِلك اللحظة الضئيلة من الزمن، تذكَّرَت كيف كانت تتألم وحيدةً كل ليلةٍ حين تدخل غرفتها بعد مشاحنةٍ ما بين والديها، توصد بابها؛ بعد أن يمتدَّ الظلام إلى ما خلف الأفق؛ عقِب انتشار الصراخ المتواصل داخل المنزل، خارج تلك الغرفة حدثَت الكثير من الاشتباكات بينهما، لم تكن قَطّ تشعر بالأمان، وداخلها.. سمعَت الكثير من الأصوات؛ أخبرَتهم دوما أن تلك الغرفة مسكونة، لكنّ أحدا لم يُصَدِّقها، وُصِفَت بالحمقاء والمجنونة، وكانت أختُها تهزُّ رأسها بتفهُّمٍ وتُرَبِّت على كتفها فتُقسم لها أنها تسمع تلك الأصوات كلما

اقترَبَت من الخزانة؛ بعد فترةٍ وجيزة سألَتها أختها عن صندوقٍ وجدته خلف ثيابها في خزانتها تلك، فأخبرتها أنه هدية من صديقتها، لم تَذكُر شيئا بعد ذلك غير أن الأصوات اختفَت والصندوق أيضا؛ ووجدَت نفسها ذات يوم في طريق ما.. بليلة مظلمة، تعبر المسافات نحو منزلِ مَن كانت تظنُّه يهبها حبًّا صادقا من بين هؤلاء الذين أحاطوها بأعينهم وأجسادهم؛ يتحوّل الملاك إلى شيطان مريد حين تسقط الأقنعة، كان الأوان قد فات حين أرادت التراجع؛ ظلام دامس يلفُّها، وخطيئةٌ ما.. وسمَتْ حياتها بوشمٍ قبيح، عادت تحمل بقايا روحها مع قِطع الظلام المنكسر تلك الليلة، فتحَت عينيها الدامعتين وتحاملَت على نفسها بعد أن كانت ملقاة على الأرض كجزء من بلاطها، جلَسَت بصعوبة بالغة وظلَّت ترمق والدها بذلّ أمدا طويلا؛ أرادت أن تصرخ بوجهه لتوقف زئيره، أن تحطِّمَ كل شيء حولها وتصيح بقوَّة حتى تُبعِد نظراتهم الملتفَّة حولها في ازدراء، ارتمَت والدتها على الكرسي وصدرَت عنها زفرة حارة وهي تردِّد دافنةً وجهها بين كفَّيها:

-ليتني لم أُنجِب إناثا..

اعتصرَت هوف عينيها حين سمعَت أمَّها تقول تلك الكلمات شعرَت أنها عار على تلك العائلة؛ تذكَّرَت نظرات الازدراء التي حدجتها بها، كيف كانت تخبرها أنها تمنَّت دوما ألَّا تنجِب البنات حتى لا يشمت أحد بها، كيف كانت تشكِّكُ بكل كلمة تخرج من بين شفتيها وكل عملٍ يصدر عنها؛ كيف كانت تمنحها ثقة زائفة محفوفة بالشك والترقُّب، قد نظُنُّ أننا نمنح حياة مثالية لمن نحب؛ لكننا نؤذيهم بظنوننا السيئة وحرصنا الشديد على تتبُّع كل

شاردة وواردةٍ تبدر عنهم، وقد نجعلهم يشعرون بالخزي دون أن ندرك؛ لِخطإٍ يرتكبونه، أو زلَّة ذنب؛ وربما يفقدون الأمل في أنفسهم حينها، فيغوصون في الرذيلة دفاعًا خاطئا عن حقِّهم في الحياة.

لم تكُن تريد ذلك أن يحدث، أرادت لو مُنِحَت ثقة حقيقية وفرصا حقيقية لحياةٍ حقيقية، أرادت لو سألها أحدهم عن خطبها حبّا لها وخوفا عليها لا حرصا منه على دفع العار عنه بحبس طيفها مكسورا داخل زنزانة الشك والرِّيبة المُعَنوَنَةِ بثقةٍ زائفة، حين نهَبُ الزيف للآخرين؛ لن نحصل منهم على نتيجة فعلية، وقد نكتشف متأخرين أنَّما كنا نَذْروا هشيما، لم يكن من السهل عليها أن تتقبَّل أن والدها يعاملها كوصمة عارٍ في حياته كانت تشعرُ بالوحدة في كنف تلك العائلة؛ لا يهمُّ عدد الأشخاص المحيطين بك إن كانت الوحدة شعورًا منبعثا من داخلك؛ لم تتمنَّ تلك الحياة، ولكنَّها لا تملك طريقة لتغييرها؛ التَقَط والدُها تلك المرآة الهائلة وألقاها أرضًا بغضبٍ شديد، شدَّ خصلات شعرها بعنف وقذف بها عرض الحائط ثم لَكَمَ الأرض بقبضة يده فاخترقتها شظايا الزجاج المتهشِّم، زحفَت الدماء من بين أصابعه الغليظة فمسح بكفِّه الآخر على وجهه وغادر الغرفة بعد أن صفع بابها الخشبي فكاد ينشطر نصفين؛ اهتزَّ زجاج النوافذ وتسلَّلت الرياح من بين شقوقها فلفحَت وجهها لتجفف دموعها وتواسي روحها المأسورة داخل جسدها، هي تكره نفسها بشدة الآن، تشعر بذاك الانقباض القوي الذي يجعلها تودُّ الصراخ؛ ولربما كان الأحسن لها أن تختفي عن الوجود وتكون نسيا منسيا، شعرَت

بطيف آخر يشاركها الغرفة بعد أن انشق الباب مجددا، فتحَت عينيها بوهن فلم تتمكَّن من الرؤية، لكنها سمعَت شهقة ولعٍ من أمام مكتبها؛ أُغلِقَت النوافذ وأُوصِدَ الباب، ثم اندلعَت شرارةٌ صغيرة أشعَلَت شمعة وحيدة بتلك الغرفة؛ آلم نورها عيني هوف فأغمضَتهُما؛ شعَرَت بملمس حنونٍ على وجهها فنظرَت إلى أختها التي دخلتْ لتوّها وجلسَت أمامها، وضعَت تلك الشمعة بينهما فتسلَل نورها الحميميُّ الضئيل إلى مقلتيها، تقابلتا كسحابتين تحيطان شمسا دافئة؛ شعرَت هوف بطنينٍ عنيفٍ يتردَّد برأسها فأمسكَت بخصلاتٍ من شعرها الكستنائي وزفرَت بقوة لتخرج جزءا بسيطا من الحرارة التي تنخر جسدها، مَدَّت أمان يدها ومسحَت دموع أختها ثم ابتلعَت غصَّتَها وأعادَت طمس دموعها قائلةً بعتاب يقطر من بين عينيها الزرقاوتين كالزجاج الشفاف:

-لماذا يا هوف؟

أحنَت رأسها بانكسارٍ وأرسلَت زفرة حارَّة ثم أجابت:

-إنها الحاجة يا أمان!

-لكننا ميسوروا الحال، ليست الحاجة ما دفعَتكِ للوقوع في الرذيلة..

-الحاجة ليست لمال فقط، بل لحنان يطالكِ وشعور بالاهتمام يُغدَقُ عليك، أن تُحِسّي أنك مهمة لهذا العالم.

-ليس ذلك مسوّغا لما فعلتِ أبدا، ثم.. هل شعرتِ أنك مهمةٌ حين تركتِ شهواتك تسوقكِ كالعميان؟

تنهَّدَت وطأطأت فأضافَت أمان بحزن:

-لن تكوني بذلك إلا كالأنعام أو أضلّ سبيلا، أنتِ تحتاجين إرادة حلم عظيم لتكوني مُهمّة، ويقينا قويا يدفعك بعزم نحو القمّة؛ ووشيجةً متماسكة من الله تجعلك تجدِّدين الهِمّة، لم ولن تكون الرذيلة يوما سبيلا للوصول إلى هدف نبيل!

خطِفَت هوف نظرة منكسرة إلى عينيها ثم هَمهَمَت:

-لقد سئِمت، كنتُ دوما على الهامش، مجرّدَ خُطّة بديلة؛ وفتاة شهوات!

-"ما تصدِّقه عن نفسك، يصل إلى الناس؛ ويعاملونك به"

تمتمَت بخيبة حين هدأ صراخ والدها خارج الغرفة:

-فعليًّا.. لم أعد أهتم، حاربتُ كثيرا حتى الآن، سقطتُ كثيرا وفشلتُ كثيرا، ونجحتُ في أحايين أخرى؛ لكنّي سئِمتُ المحاولة في كلّ مرَّة والبدء من الصِّفر مجددا، كل شيء بات رتيبا سيئا في نظري، حتى إنني لن أجرِّب العودة للحب مجددا؛ لقد خُذِلتُ في الشيء الذي تمنَّيتُ أن يعوِّضني عن كل ألم، حتى في الشعور الذي يفترض أن يكون الأجمل على الإطلاق.

-لا تأملي أن يعوِّضكِ شيء ما عن نقصك، إن لم تصنعي حياتك بنفسك؛ فلن يفعل أحد آخر ذلك!

صمتت أمان قليلا ثم أضافت:

-حين تشعرين بالخذلان والاختناق يا هوف؛ اِرفعي ناظرَيكِ إلى السماء، وحده الله يمكنه التَّخفيف عنكِ.

اختطفَت نظرةً إلى ملامحها المتعبة فقالت:

-أكره هذا الشعور..

هزَّت رأسها بتفهُّم وهمسَت:

-لا بأس عليكِ.

-أنا حقيرة يا أمان، لا أستحِقُّ الحياة..

ربَّتَت على كتفها وقاطعَتها مُرَدِّدة:

-"لو بلغَت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتَني؛ غفرتُ لك ولا أبالي.."

أشاحت هوف بناظريها وكأنها تحاول أن تستمدَّ بعض الطمأنينة من كلمات أختها التي أردَفَت:

-نحن لسنا ملائكة، كلنا نخطئ؛ لسنا صالحين، نحن فقط مستورون يا هوف.

-لكنَّ هؤلاء لن ينسَوا خطيئتي، لا أحد سيغفر ذنبي..

-الله سيفعل.. لن يصفَحَ البشر عنكِ، سيطاردونكِ بذنوبكِ حتى النهاية؛ لذلك لا ينبغي أن تحدِّثي أحدا عن زلَّاتكِ، اكتُمِيهَا واستغفري الله منها؛ ثم اطمِسيها بعمل صالح.. هكذا نصحِّحُ أخطائنا.

تراقص نور الشمعة القرمزيُّ الضئيل فانكسرَت الظلال على الحائط، وقفَت أمان وتوجَّهَت نحو السرير ثم حمَلَت تلك الرضيعة بين يديها فتبعَتها هوف مُطرِقة، ابتسَمَت وهي تنظر إلى وجهها البريء الساكن كالملاك وهمسَت:

-جميلة..

ألقَت نظرة إلى عيني هوف التي أقلعَت عن ذرف الدموع فور سماع حروفها وابتسمَت بانكسار قائلةً:

-لطالما أردتُ أن أُمنَح حبا حقيقيا، دون قيود أو شروط؛ ظننتُه سيعوِّضني عن كل الأشخاص القُساة الذين مرُّوا بحياتي، والذين أعيش بينهم.

-أتعتقدين أنه كان حبا يا هوف؟

أحنَت رأسها وصمَتت برهة من الزمن فأضافت أمان:

-لا أظن.. تلك شهوة، أتعلمين كيف يكون الحب؟

نظرَت إليها باستفهام فأشاحَت بوجهها ووضَعَت يدها على قلبها ثم أردَفَت:

-إنه يترك ألمًا هنا، ألمٌ خفيف محبَّب؛ يجعلك تستسهِلين كل عسرٍ تمرّين به، إنَّه أشبه بوباءٍ لا يمكِنُكِ التخلص منه؛ ولا تريدين ذلك أيضا، قد يكون ابتلاءً؛ ورزقا في ذات الحين، عندما يكون صادقا فإنَّه يقرِّبكما من الله معا؛ هو غليلٌ لا يشفى إلا بإذنٍ من الله، يجعلكِ شفافةً كمرآةٍ تعكس بصدقٍ مظاهر البشر؛ ويقُودكِ إلى استحسان الألم الذي يسبّبه لكِ، يذكِّرك بمن أحببتِ في كلِّ صلاة؛ لتذكريه عند كلِّ سجدة، قد يكون الحب أصدق شعور على الإطلاق، لأنه يجمع بين الحزن والسعادة الشديدة والخوف من البعد والفقدان؛ والتَّوجُّسِ من الوقوع في الحرام..

صمتَت قليلا وتنهَّدَت فلمعَت عيناها وهي تهمس مضيفة:

-الحبُّ عهد بين قلبين على تسلُّق درجات الحياة والمرور على صعوباتها؛ الحبُّ تقبُّل متبادَل، وقلبان ملتحمان؛ وَرُوح منفصلة بجسدين؛ تسكن كل روح إلى نصفها الآخر، وتُرَفرف نبضاتها لمجرَّد وجودهما في ذات المكان، يتنفسان نفس الهواء؛ ويشعران بنفس الحرارة التي لا يشعر بها غيرهما؛ ويجتاحهما نفس التوتر الذي

اختص بهما، يفهمان نظرات بعضهما رغم أنها لا تعني شيئا للآخرين، لكنها بالنسبة لهما.. وسم حب لقلبيهما.

همهَمَت هوف مستدركة:

-لم يكن ما شعرتُ به حبا، ربما مجرَّد شعور بالحاجة لملء فراغ الأحاسيس، حتى ولو بالقَطران!

حامت الرياح بالخارج وزفرَت، ارتطَمَت النافذة بالجدار فجأةً وفُتِحَت، انطفأت الشمعة الملقاة على الأرض فأظلمت الغرفة مجددا، برهةٌ من الزمن فقط مرَّت لتعتاد أعينهما الزرقاء الصافية على الظلام الدامس، لكنَّ نورا ومَضَ فجأة حيث صَدَرَ صوت الارتطام وأخذ يتحرَّك بحرّية في الغرفة، مكثتا قليلا حتى استطاعتا تمييز مصدر النور المتوهِّج فصاحت أمان:

-فراشةٌ لامعة!

-بيضاء اللون..

-في الليل.. والمطر.. والرياح الشديدة بالخارج!

تسلَّلَت قطرات المطر إلى الغرفة فبلَّلَت المكتب المستند إلى الحائط أسفل النافذة؛ سكنَت الفراشة على جبين الرضيعة وتحوَّل لونها من الأبيض إلى الأزرق الوهَّاج فور أن حطَّت عليها وسط دهشة الأختين، تصادمت أعينهما؛ كانتا في حيرة من أمرهما لكنهما لم تجرؤا على لمس الفراشة التي بدت وكأنها من الزجاج الهش، قطرات الندى على أجنحتها الشفافة تناثرَت على وجه الصغيرة فابتسَمَت كملاكٍ بريء تراوده أحلام وردية، عاد التيار إلى المنزل فجأة فأُشعِل مصباح الغرفة التي كانت تنعم بنورٍ ضئيل أزرقَ شاحب، تبادَلَت هوف وأمان نظرةً مع بعضهما قبل أن تعيدا

أعينهما إلى جبين الرضيعة؛ فركَت هوف عينيها بينما همسَت أمان بانبهار:

-اختفَت الفراشة!

استدارتا نحو النافذة فوجدتاها مغلقة وكأنها لم تُفتح قَط حتى المكتب لم يكن مبلَّلا؛ بَيد أن رائحة عطرٍ انتشرَت في الغرفة على حين غرَّة وأخذَت تداعب أنفيهما، بقيتا مبهوتتين قليلا من الزمن دون أن تكلِّم إحداهما الأخرى بشيء، انعقد لساناهما لبعض الوقت؛ لكن هوف صاحت أثناء الصمت المطبق بفزع:

-أمان.. لقد جُرِحَت قدمك بشظيَّة من الزجاج؛ إنها تنزف بشدَّة!

انتفضَت أمان وقالت قبل أن تنظر إلى جرحها:

-أنا لا أشعر بشيء..

كانت عينا هَوف شاخصتين وكأنها رأت مجزرةً ما؛ أبعدَت أمان ناظريها نحو قدمها فأضافت بعد أن نظرت إلى أختها مجددا:

-لا يوجد جرح.. ولا دماء!

شهقَت مشدوهة وردَّدت وكأنها قد جُنَّت:

-لقد التأَم، حتى الدماء.. لقد اختفَت؛ وكأن الأرض تَشَرَّبَتهَا..

-لقد تعبنا كثيرا يا هوف؛ يجب أن نرتاح.. أصبحنا نُهَلوِس!

تمتَمَت نافية:

-أنا أرى أشياء غريبة في هذا المنزل، أولا.. الفراشة، ثم النافذة والمكتب، وهذه الرائحة العَبِقة، وبعد ذلك.. الجرح.. وقبل شهور.. الأصوات في الخزانة، والخفَّاش الذي في غرفتي.. وانعكاس فتاةٍ

مجنَّحة زرقاءِ العينين ترتدي ثيابا زرقاء تقف خلفي على المرآة والطَّيف الأسود أمام جدتي قبل موتها..

قاطعتها أمان قائلة بذعر:

-عن أي فتاة وأي طيف تتحدَّثين؟

***

جنَّ الليل مستلقيا على السماء بسواده الذي يبدو للنَّاظرين أبديا، لم يكن ذاك الظلام غريبا على تلك الفتاة؛ طوال تسعة أشهر، ومنذ عادت إلى منزلها في جنح العتمة كما غادرته في جنح العتمة إلى البيت الذي قلب بوصلة حياتها نحو الجحيم؛ صارت الدُّجنة أمرا عاديا بالنسبة لها، لذلك.. قرَّرَت التخلص من وصمتها حين يلتفُّ السواد على كل شيء، كما حازَت عليها حين التفَّ على كلِّ شيء قبل تسعة أشهر، حين يجِنُّ الليل؛ هناك أرواح تتمزَّق في صمت وأخرى تَنُوح وتنتحب، تبكي أو تصرخ داخلها، دون أن تُشعِرَ الآخرين، هناك قلوب تدمي؛ وأخرى يُراودها الحنين، هناك أحلام وردية، وكوابيس أشدُّ ظُلمَةً من الليل البهيم؛ هناك خطايا يسترها الظلام، وأخرى تُرمَى تحت سِترِ الظلام، جاوز الوقت منتصف الليل حين تلحَّفَت باللون الأسود وحمَلَت تلك الصغيرة نظَرَت هوف يُمنَةً ويُسرَةً قبل عبور الطريق المظلم؛ انقطع التيار مجددا، كما أن النوم سيكون عسيرا على تلك العائلة التي ستقضي ساعات الليل تندُبُ حظَّها وتلعن بلاءها؛ لم تُرِد إثارة الشكوك فخرجَت دون أن تُصدِر صوتا، ودون أخذ مصدر للنور يبدِّد عتمة الدّيجور؛ مرَّت على طول طريق تحُفُّها بساتينٌ ذاتُ أشجارٍ ممتدَّةٍ في السماء كَنَاطحات السحاب على الجانبين

تُرافقها في دربها هسهسات الرياح وجلجلة مطر غزير؛ ورائحةٌ نديَّة تعبَقُ في الأثير، مرَّت دقائق طويلة وهي توازي الطريق المستقيمة الممتدَّةَ أمامها؛ لا شيء غير السَّواد يصادفها، ولا صوت غير وقع الطبيعة تؤنِسُها؛ لم يكن الخوف ينفذ إلى ثقوب روحها، اعتادت الظلام وألِفَت وجوده حولها، وصَلَت إلى مكان بعيد عن منزلها بعض الشيء، إلى شجرة فارعة الطول؛ بنفسجيَّة الأوراق، أشعَلَت قدَّاحةً تُمكِّنها من رؤية مكان مناسب تترُك به تلك الصغيرة فأضرمت النار بِيدها دون قصد، التهَبَت أصابعها ثم انطفأَت بلمح البصر، لكنَّ دخانا رماديا أخذ يتصاعد، والأغرب من ذلك أن الفتاة لم تبكِ؛ وكأنَّ شيئا لم يُصِبها، لم تفتح عينيها الصغيرتين حتى، وكأنما لم تشعر بألم النيران، بَيد أنها حظيَت بحرق سرمدي، لن تأتلف حوله الخلايا أو يعالجه ترياق؛ أرادت تركها بمكان بارز بحيث يسهل على الآخرين إيجادها، وبعيدا عن المطر حتى لا يلتهمها الموت؛ كانت تُشفِق عليها بطريقة ما، لكنَّها لم تملك إلا التخلّي عنها، حتى أقرب الناس إليك قد يخذلونك؛ عليك أن تتوقَّع ذلك دوما، فأنت مضطرٌ لتقبُّلِه حين يحدث، أخرجَت من عباءتها السوداء خنجرا ذا نصلين، كان غريب الشكل يتفرَّع عن هيكله نصلان حادّا النهاية، تردَّدَت قليلا قبل أن تبحَث عن مكان مناسب، غرزته في فرع الشجرة بقوَّة وعلَّقتها به بواسطة خيط ممتدّ من السلَّة التي حَمَلَتها فيها، مؤلمةٌ صدمات الطفولة، لأنها تستمرُّ إلى ما لا نهاية، تلك الطفلة عانت الكثير حتى قبل وجودها غادَرَت والدتها حين تركَتها معلَّقةً إلى شجرة فارعة الطول تحتمي بأوراقها من شدَّة المطر والرياح، ثم ابتعدَت عن الشجرة الوحيدة

التي كساها اللون البنفسجي بين الخُضرَةِ الملتفَّةِ حولها فسمعَت حسيسًا يتردَّد خلفها، استدارَت باضطراب دون أن تتمكَّن من تبيُّنِ مصدره؛ شعرَت بالخوف وهي ترى وميضا يبرق ويخفت بين الحين والآخر فزادَت من سرعتها لتتمكَّن من تجنُّبِ أيِّ احتكاكٍ قد يحدث مع أيِّ مخلوق.

***

ومَض نورٌ لطيف حول الشجرة البنفسجيَّةِ وأخذ يرفرف بِلونه الأبيض حول الرّضيعة، تلك الفراشات تحمل سرًّا ما، تغيَّرَ لونها إلى الأزرق فَورَ أن اجتمعَت تحت أوراق الشجرة؛ وكأنها كانت تحمي الطفلة من المطر والرياح، ازداد نورها فجأة وتعاظم، حطَّت إحداهن على جبينها مجدَّدا، ونثَرَت قطرات النَّدى العالقة بجناحيها الشفافين كالزجاج الأزرق الشَّاحب، فيما تلألأت الأخريات وانبعثت من أجنحتهنَّ حرارةٌ لطيفة مع نُورهِنَّ الأزرق، ثم غطَّينَ تلك الرضيعة وحَطَطنَ عليها من كل مكان فابتسَمَت كملاك ينعم بجنَّة الخلد.

***

تسلَّلت تلك الرائحة القوية إلى أنف أمان، شعرَت بشيء غريب يحدث؛ انتفضَت حين سمعَت صيحةً مدوِّيةً من حنجرة والدتها، ثم طقطقةً قوية يتبعها نورٌ نارنجيّ تسلَّل من الشقِّ السفلي لباب غرفتها، قفزَت من فِراشها بخفَّةٍ وفتحَته فالتَهَمَته النيران على عجل وزحفَت نحو الأثاث بِنَهَم، تراجعَت نحو زاوية الغرفة وصاحَت:

-المنزل يحترق..

صرخ والدها مستجيبا لاستغاثتها:

-لا تتحرَّكي يا أمان.. هل هَوف معكِ؟

انتفضَت ووقع في قلبها أنها خرجَت من المنزل مجددا فأجابت بصوت مرتعش:

-أليست في غرفتها؟

زمجر والدها مجيبا:

-ليست في البيت.

اقتربَت ألسنة النيران منها فتقهقَرَت نحو الخلف وقرفَصَت في زاويةٍ من الغرفة بعيدا عن الحُمرَةِ التي أخذَت تمتدُّ ملتهمةً كل ما يصادفها بشراهة، انحدَرَت الدموع من عينيها وأخذَت تصيح مناديةً على والدها لكنَّه لم يستجب لندائها، بين سكنات أرواحنا ودموع العجز التي تبلِّل وجوهنا؛ لا معنى للبشر إن لم يكن لرعاية الله دور في نجاتنا، عرَفَت ذلك حين عَنَا الجميع لضعفهم، وعجزوا عن انتشالها من بين لفحات الجحيم، كانوا ليتركوك تحترق في صمت، الله فقط سيرحم ضعفك، وينجيك من غَيابة جبٍّ ظننتَ أنك لا شكَّ هالِكٌ بين ظلماته، شعرَت بحرارة النيران تقترب منها أكثر فأكثر فرفعَت عينيها إلى السماء وهمَسَت:

-رُحماك يا من يعلم مقدار ضعفي ووهني، رحماك يا من ينجِّيني من كربي، رحماك يا من يعلم خطيئتي وسرِّي؛ رحماك يا من يلطف بي أكثر من أمي، يا قريب الوجود.. يا دائم العطاء والجود، اللهم إني مسَّني الضر وأنت أرحم الراحمين..

تقوقَعَت على نفسها وأخذَت تُتَمتِمُ بتلك الكلمات حتى شعرَت بنسيمٍ عليلٍ يلفح وجهها، تعاظَمَت النيران والتهمَت الغرفة، لم تتبيَّن شيئا من تقاسيمها المتفحِّمةِ غير حُمرَةٍ لم تنقشِع، لكنها لم تشعر بحرارتها رغم أنها تجلس داخلها، انهمرَت دموعها ووقَفَت على قدميها تتحسَّسُ الطريق بِوَجَلٍ بين الألسنة الطاغية على الجدران حولها؛ تهادى الحائط وسقَطَ أمام عينيها فكرَّرَت:

-رحماك.. يا من جعلتَ نارَكَ عَليَّ بردا وسلاما.

تقدَّمَت بضع خطواتٍ فارتطَمَت قدمها بشيء ما، لم تُلقِ له بالًا وواصلت المسير بَيد أنها شعرَت بحركة تحت ساقيها، أحنَت رأسها بفزع ثم دوَّت منها صرخة تبعتها طقطقة النيران من كل حدب وصوب..

***

(هَوف)

مزيجٌ لا مُنتَهٍ من الحسرة والندم يعتمل في صدري، الكثير من الحيرة؛ وشعور مزعج بالازدراء، والأهم من ذلك.. الخوف الذي بدأ يزحف إلى روحي.. خوفٌ طاغٍ، من أيّ شيء وكل شيء، طريق ممتدَّة تبدو للناظرين غير محدودة الأبعاد؛ وظلام دامس يلفُّني.. أشعر بالضعف، والعزلة، والوحدة.. والذنب؛ كنتُ كمن يَستَسِيغ الألم، ويستزيد العذاب؛ بطريقة ما.. علِمتُ أنني لن أحصل إلا على السراب إن اتَّبعتُ طريق الرَّذيلة، مع ذلك.. كانت بداخلي رغبةٌ جارفة للانتقام، ربما من نفسي أيضا؛ بشكل أو بآخر.. حاولتُ أن أُثبِتَ لنفسي أنني وحيدة.. شريدة، تائهةٌ في عمقٍ أدهم؛ ظننتُ أنني:

وَحِيدَةٌ فِي لَيْلٍ مُدْلَهِمّ

أُصَارِعُ أَطْنَانَ الأَلَمِ المُلِمّ

الضَّياع مؤلم بالفعل، خصوصا.. ضياع النفس بين غياهب الظلمات، لا زالت الطريق ممتدَّة؛ أُحاول الإسراع قدر الإمكان حتى أهرب بروحي من تلك العيون التي أشعر بها تخترقني، تجاهلتُ ذاك الإحساس وعدتُ إلى التفكير مجددا، إنَّه الخِزيُ؛ طوال تسعة أشهرٍ مَضَت، لم أَوَدَّ إخبار أحدٍ بما في أحشائي، عانيتُ وحدي طول الليالي دون أن يتألَّم أحد بجانبي، مرضتُ وحدي وتعافيتُ بمفردي؛ شعرتُ بِتلك الحركة تدبُّ داخلي، بكَيتُ كثيرا.. ألم الروح يغطِّي على ألم الجسد، الأجساد مجرَّدُ وسيلةٍ للحياة وعاءٌ للروح لا غير، كانت تلك الرَّغبة الغريزية في الانتحار تجرفني دوما، لكنَّني أُكابِد، إن لم أكن ابنةً جيِّدة؛ ولا أُمًّا جيِّدة، فعلى الأقل لن أكون مجرمة في حقِّ فتاةٍ لم تَرَ النور بعد، لكن.. لماذا تخلَّيتُ عنها؟

ربما هو الانتقام أيضا، بِطريقةٍ ما.. كنتُ أتحاشى إيذاء الآخرين وأنصرفُ إلى دفع ضَرَرِي عنهم بإيذاء نفسي، لطالما كنتُ ضعيفة لكنني أبدًا لم أبكِ أمامهم، عاجزة؛ بَيد أنِّي استنَدتُ إلى جدارٍ زائف من المشاعر حتى لا أُظهِرَ لهم عجزي، ضحكة زائفة، والكثير من المزاح الأرعن، غُصتُ في حُبٍّ زائفٍ أوهِمتُ به، كنتُ أشعر بالاختناق؛ لم يكن لروحي من منفذٍ توهَّمتُه إلا الخطايا، بحثتُ عن النور في بئرٍ مظلم، في لحظةٍ ما.. شعرتُ بالحاجة الشديدة للبكاء؛ حين خارَت قواي وداهمني الألم، طوال تسعة أشهر؛ كانت تلك اللحظة هي ما يشغلُ تفكيري، صِرتُ كتابا مفتوحا، لكنَّ أحدا

لم يقرأ ما بين سطوره وهوامشه أو يطلُب تفسيرا، كلٌ كان يُبَلورُ الظُّنون كما يشاء، اكتَفَوا بالعض على نواجذهم حسرةً فقط جسدٌ.. دون مشاعر، ذاك ما كُنتُهُ حينها، أعتقد أن الذنوب التي نقترفها تصدر عنَّا في لحظة ضعفٍ شديد، تبدُرُ عن الجزء المكسور من أنفسنا، والشَّطرِ المبتور من عقولنا، نحن لا نرتكب الخطايا حين نكون في كامل قوانا العقليَّة؛ لذلك.. جميعنا نكتشف مدى غبائها بعد فوات الأوان.

أيُمكِن أن تكون خطيئتي مجرَّد نتاج طغيان مراهَقةٍ عابرة؟ أو.. أكانت فتاةٌ مراهقةٌ طاغيةٌ لتفعل ذلك؟.. لا أظنُّ، هناك حدٌّ ما.. يتوقَّف عنده جميع الطُّغاة، والأهمُّ من ذلك.. أيُمكن لفتاةٍ في الثالثة والعشرين أن تعُدَّ نفسها مراهقة؟

ربما.. هو شيء أشبه بِنَزوةِ ما بعد الأربعين، تأخُّرٌ عاطفيّ في استدراك المشاعر؛ وفيضانٌ حيوانيّ لهمجيَّة الشهوات، نقصٌ ما.. وقد يكون تقهقرا عُمريًّا، ونُكُوصًا ثابتا عند فترة المراهقة بالذات. عاد التَّيار إلى الأعمدة التي تحفُّ الطريق المُمتدَّة، فراغٌ شديد صمتٌ مُطبِق؛ خَوَاءٌ عارم، لا شيء غير أشجارٍ تُناطِحُ السَّحاب ووَقع المطر حين يُلامِسُ الأرضَ مُنسَابًا مِن بين الغيوم، بالرَّغم من أنَّ الشهر الثامن من أشدِّ الأشهر حَرًّا، ها هي سماؤه تبكي بِعُذوبة وها هي رائحةُ دموعِها تُطرِبُ الأرضَ وتَهُزُّ فروع أشجارها، وتتخلَّلُ من بين شقوقها لتختبئ داخل تُربَتِها، ليتَنِي كُنتُ كالمطرِ.. غَيثٌ نافع أينما حلَّ أينعَت الأرض؛ دموعي دوما كانت عقيما ، لم تَكُن تُنبِتُ جذور التوبةِ من أرض المعاصي، ولا تُربِّي شجَرَةَ الأمل في قلبي، ليتني مِتُّ قبل هذا وكنتُ نَسيًا مَنسِيًّا.

اقتربتُ من المنزل، لا زالت الطريق فارغة؛ بينما الجميعُ نِيام ينسدِل تحت جُنحِ الظَّلامِ ذَنبٌ ما، يتوارى عن الأنظارِ بِظُلمَةِ الليل، لكنَّ الشارع الأخير لم يَكُن فارغا، قبل المُنعَطَف المؤَدّي إلى المنزل تماما، رأيتُهُما.. طَيفان أسوَدا اللون يتسلَّلان بين أعمِدَةِ النور؛ يَظهران حينًا ويختفِيان حينا، أذكُر تلك الأطيافَ جيّدًا رأيتُها في كلِّ مكان حَضَرَ فيه الموت، بِجانبِ فراش جدَّتي؛ وفي حافلةٍ قبل حادث مرور، على طريقٍ عامَّة قبل سقوط طائرة مِروَحيّةٍ على الأرض، وفي مشفى به مريض في قِسمِ الإنعاش، وها هي الآن تَتَهادَى أمام عَينيَّ كَمَن يترنَّحُ ثمِلًا، هُما اثنان من هذا الحيّ سيَصِلُ إلينا خبر وفاتهما غدا بالتَّأكيد، شعرتُ بقشعريرةٍ تسري بِجَسَدي، إنهما يسيران بمُحاذاتي؛ لا أعلم هل يمكن لِتلك الأجسادِ السوداء الحديث أم لا، لا أعرف كنهها أو ماهيتها؛ ربما تُسمَّى بأطياف الموت.. أحقًّا لا أحد يراها غيري؟

إنها لا تتنفّس، ليست لها ملامح أو وجوه، لكنّها تُشعِرُني بالخوف الشديد؛ كانت هناك دوما، رفقة موتٍ قريب، يقتنص الأرواح باستمرار؛ المُنعَطَفُ الأخير، لا زالت تسير بمحاذاتي أيُعقَلُ أنها تتَّجه نحو منزلنا؟ أيمكن أن أكون أحد الشّخصين اللذَيْن سيغادران الحياة؟

الموت حولنا.. بالقرب منَّا.. يستمرُّ في خطفِ الأرواح بينما نحن عنه في غفلة، حتى نُفاجَئ به يطرُقُ حياتَنا، ويُداهِمُنا دون استئذان، حينها نرزح تحت موجةٍ من النفور منه، ونحن الذين تمنَّيناه بالأمس القريب!

لمحتُ من بعيدٍ نورا برتقاليًّا محفوفا بحُمرةٍ قرمزيّة تتراقص وتعلو نحو السماء، طقطقةٌ تُسمَعُ من آخر الشارع الذي بدا طويلا إلى الحدِّ الذي لا ينتهي، مجموعةٌ من البشر التفُّوا حول شيء يحترق، منزل ما..

نظرتُ نحو السماء ففوجِئتُ بِهالةٍ بيضاءَ تغطي البيت من المطر؛ وكأنها تمنع النار من الانطفاء كمِظَلّةٍ تُحلِّقُ في الجوِّ، وقَع في نفسي أن المنزل المحترق هو منزلنا، وأن الأطياف السوداء تعني أن شخصين منه سَيَموتان، هرولتُ بسرعة فسايَرَني الطَّيفانِ في سرعتي؛ تحاملتُ على نفسي وأخذتُ نفَسًا طويلا ثم صعدتُ الدرج المؤدِّي إلى الحيِّ الصغير المعزول عن الحديقة السُّفليّة وما حولها توقّفتُ على بُعد خطواتٍ منه وألقيتُ نظرةً شاخصةً على النار والمُحاولات العبثيّة لإخمادها، كانت المياه ترتطم بشيء غير مرئي وتنحَدِرُ على بُعدٍ معيّن من المنزل، لم تُلامس البيت أبدا، وكأن قوةً أحاطته ومنعَت المياه من الوصول إليه، شدَدتُ على لِحَافِي القاتم وتقدَّمتُ بِذعر وتردُّد؛ لكنني لمحتُ شيئا ما.. جعَلَنِي أتقهقرُ بسرعة نحو الخلف، وكأنّي صُعِقتُ بقوّة لتوّي..

***

أحنَت أمان رأسها نحو موطِإ قدمِها فَسَرَت قشعريرةٌ بجسدها ودوَّت منها صرخة قويَّة فجَّرَت الدموع من محجريها، كان جسدُ والدتها يلتهبُ وتلتهِمُهُ النَّار، مُلقى على الأرض يُصدِرُ اضطرامُ الألسنةِ به طقطقةً قويَّةً؛ وعلى وجهها المتفجِّمِ ملامح هولٍ عظيم سقطَت على الأرض ولمسَت جسدها المُلتهب، كان باردا، لم تشعر بحرارته قَط، ارتَمَت عليها واحتضنَتها باكيةً بشدَّة، بينما يقفُ

ذاك الطَّيفُ فوق رأسها دون أن تراه، تَمتَمَت ترثي والدتها بحزن ولبثَت على ذلك حتى تذكَّرَت الرضيعة فجأة؛ وقَفَت من على الأرض نحو غرفة هَوف بِفَزَع، لطَمَت بابها واقتحمَتها بسرعةٍ متوجِّهَةً نحو السرير، سُكُونٌ مُرِيب عمَّ أجواءها، حتى النيران لم تجرؤ على الدخول؛ توقّفَت عند عتبةِ الباب دون أن أن تلتهِمَهُ كما فعلَت مع باقي المنزل، وكأن تلك الغرفة معزولة؛ لا يزال الأثاث مُلقى على الأرض، شظايا الزجاج المُتَهَشِّم مضرَّجةٌ بدماء والدها ظهَرَت تلك الفراشة اللامعة البيضاء فجأةً من العدم وحَطَّت على يدها حين كانت تجفّف دموعها بكفِّها الآخر؛ رمقَتها بدهشة منبَهِرةً بجمالها الأخَّاذ، أجنحةٌ هشَّة تبدو زجاجيَّةً بلونها الذي تحوَّل إلى الأزرق الصافي فجأةً ودون سابق إيحاء، شعرَت بألمٍ في عينيها جَرَّاءَ انبثاق نور يعمي الأعين من شظايا المرآة، حلَّقَت الفراشة بينها وبين الأجزاء المكسورة فهبَّت رياحٌ قويَّة، صاحت أمان مَشدوهة:

-رياح.. رغم أن النيران تلتهم البيت؛ والنوافذ مغلقة!

حامَت العاصفة وحملَت شظايا المرآة ثم انبجس النور الأزرق مجدّدا والتأمَت الأجزاء ثم عادَت إلى هيئتِها وكأنها لم تُكسَر من الأساس، استندَت المرآة التي اجتمعَت أقسامها المُتشظِّيَةُ إلى الحائط مرَّةً أخرى وهدأت العاصفة فاختَفَت الفراشة كما ظهرَت، تاهَت في العدم مِثلَمَا خرَجَت منه..

في الخارج.. كانت هوف تصرخ بِهَلَعٍ وتحاول الدخول إلى المنزل؛ لكنَّ أهل المدينة منَعُوها بِقوّة، كانوا يُشفِقون عليها؛ ظنُّوا أنها جُنَّت حين أخذَت تصيح:

-هناك شخص حيٌّ بالداخل.. لقد مات اثنان فقط، رأيتُهُما؛ لقد دخلا إلى المنزل.. إنَّهُما طَيفان فقط، ربما أمان على قَيدِ الحياة؛ ربما أمي أو أبي..

استدارَت نحو سيِّدَةٍ عجوز وأضافَت بِرجاءٍ وهي تمسك طَرَفَ ثوبها:

-أرجوكم.. لا تترُكُوهُم يموتون.. هناك شخصٌ ما على قيد الحياة..

أشفَق الجَمعُ عليها بِشكل ما.. كانت تبكي بِحرقة وتَتَوَسَّلُ إليهم أن يتركوها تدخل إلى المنزل، حتى إنهم خَشوا عليها من فقدان عقلها؛ إذ أنها أخذَت تتفَوَّهُ بِتُراهَاتٍ لم يسمعوا عنها قبلا..

مِن بين الحُشود.. صوتٌ لا يسمعه البَشَر، لكنه انطلَق من قلبِهِ الواهِن؛ من بين أضلعِهِ السَّاكِنة، قد لا يفقَهُ البَشَر دعاءً خافِتًا، لكن الله يسمع دبيب النملة ويراها في ليلة ظلماءَ على صخرة صمَّاء؛ تَوجَّهَ إليه بالدعاء حين وضع يده على قلبه وشعر بانقباضه القوي وهو يقول:

-رُحماك.. يا من حفظ يوسف لأبيه.. احفظها لي فأنت أعلم بما في نفسي من نفسي..

تجاوَزَ الأجسادَ التي تُراقِبُ ألسنة النيران إلى هوف؛ حاولَ تهدِئَتَها ثم قال بصوت خافت:

-اطمئني.. وليكن إيمانكِ بالله قويًّا، فالله وحده قادرٌ على انتشالها من بين الحطام؛ وحمايتها من النار، الله بِحِكمته لن يخذل عبدا توجَّه إليه بالدعاء، فالمستحيلات تتلاشى أمام قدرته.

سكَنَت وابتَلَعَت صياحها بِغُصَّةِ حلقها، مسحَت بكفِّها على وجهها ثم قالت بتسليم:

-اللهم حفظا من عندك لأهلي.. اللهم حفظا..

ابتسَمَ وتراجع حاملا قلبه بين يديه حين أمَّنَ على دعائها، شعر باطمئنان عظيم؛ تلك السكينة التي يُشعِرُنا بها الدعاء، ذاك الرَّجاءُ والأمل في الاستجابة، تلك النَّشوةُ الدائمة شفافيةٌ روحية وشعور لطيفٌ بالخَوَاءِ من المعاصي؛ رغم أن قلبه يكاد يقفز من بين أضلعه، يبقى عاجزا عن التَّقدُّم خطوةً نحو الأمام؛ لكنه مع ذلك لم يتوقّف عن الدعاء:

-اللهم مُر نارك لتكون أمانًا على أمان..

ما كاد ينهي تلك الحروف حتى صاحت عجوز من بين الجمع:

-هناك شخصٌ ما يتقدَّمُ نحونا..

هرول تجاه أمه ونظر بعينيها ليتأكَّد قبل أن ينقل طرفه نحو المنزل الملتهب:

-أمي..

بادلَته نظرةً بعينين تحملان الكثير من الكلمات؛ هزَّت رأسها وتنهَّدَت باطمئنانٍ ثم قالت:

-آبنوس[1].. إنها أمان..

اخترقَت النيرانَ نحو الخارج فارتَمَت هوف عليها وأخذَت تنوح كفتاةٍ صغيرة وتُقَبِّلها فِيمَا أمان تحتضِنُها وتُحاول رسم شبح ابتسامةٍ منكسر على شفتيها، تقدَّم السكان نحوها فرَفَعَت

---

[1] الآبنوس هو نوع من الخشب الصلب يُستَعمَل في صنع الأثاث.

ناظِرَيها فإذا بهما تصطدمان بعينيه الباكيتين؛ نعم.. الرجال يبكون حين تُعتَصَر قلوبهم.. وحين يُقارِبون على الانهيار..

التفَّت نظرات الدهشة حولهما؛ والكثير من الأسئلة كانت تُلقى في الفراغ، همسٌ ولمزٌ وآراءٌ لا أساس لها من الصحة؛ لماذا كانت هَوف خارج المنزل؟ وكيف نَجَت أمان؟ وهل مات والداهما؟ وكيف عرفَت هَوف أن أختها لازالت على قَيدِ الحياة؟ بل كيف احترق المنزل؟

كلُّ تلك أسئلةٌ كانت تتقاذفها الألسنة هناك، انسَحَبَ آبنوس نحو والدته ووقف بجانبها ثم همس في أذنها:

-أيُمكنكِ أن تفعلي ذلك يا أمي؟

هزَّت رأسها موافقة وربَّتَت على كتفه ثم قالت بحنانٍ بالغ:

-الصبرَ يا ولدي.. والخلاصَ لقلبك المُتَيَّم..

وضع يده على يدها التي لازالت على كتفه واغتصب ابتسامةً باهتةً؛ توجَّهَت والدته إلى الفتَاتَين وانحنَت نحوهما ثم همسَت:

-أرجوكما.. تعاليا معي يا ابنتَيّ.. يمكنكما العيش عندي إن أردتُما.

انقبضَ قلب أمان، خشِيَت أن تكون معاملتها اللطيفة لهما نتاج شفقةٍ عليهما، لم تكن تحبّ أن ترى نظرة شفقةٍ في عيون أحد من الناس؛ شخصَت نظراتها وانهارَت فجأةً، شعرَت باليُتمِ للمرّة الأولى في حياتها؛ احتضنَتها هوف وأم آبنوس بحنان بالغ كانت كلّ منهن تحاول مواساة الأخرى فيما هي أشدّ حاجة للمواساة من أيّ شخصٍ آخر، تلاحَمَت الدموع في لحظةِ صدقٍ ما.. خلف ستار الوجوه كثير من المشاعر.. لا أحد يعلم ما في

القلوب غير خالقها، وقف آبَنُوس يراقب تلك الدموع من بعيد؛ وَدَّ لو يُربّتُ على كتفها ليُطَمئِنَها، لو يتمكَّنُ من التّخفيف عنها مسحَت أمه على وجهيهما بحنان وقالت بِرجاء:

-ما رأيُكُما يا ابنتيّ؟

عَلَّقَت أمان نظرتها في الفراغ وهي تحاول نسيان ما رأته داخل المنزل؛ دموع السماء تشتدّ، الأحزان كذلك.. حين يَجِنُّ الليل؛ هناك أرواح تبكي، دموع تُذرَف؛ وموتٌ يخطف الأنفس على حين غَرّة، مرّت بذهنها فجأةً تلك الصورة مجددا فهمَسَت بفزع بينما شخصَت عيناها:

-احترَقَت أمي.. وأبي أيضا، لقد غادرا يا هوف، نحن يتيمتان يا أختي.. لقد كان جسد أبي يتآكل؛ تحوّل إلى رماد.. وها هو المنزل يَنهار.. ثراء الدنيا حُطام، أرأيتِ؟ ذاك هو المنزل الذي عشتُ فيه عشرين سنةً من عمري.. بين تلك الجدران وُلِدت، وها أنا أُدفَن في حطامها..

اعتصَرَت هوف عينيها وتجلَّدَت، شعرَت بالبرد الشديد والدُّوارِ الشديد؛ تقدَّم آبنوس وألقى جملةً في الهواء:

-عظَّم الله أجركما..

اختطَفَت أمان نظرةً منكسرةً إلى وجهه ثم أشاحَت عنه وتنهّدَت بعمقٍ فانطلقَت صيحةٌ من بين الحشود :

-لقد خمدت النيران!

-٢-

انفصام[2] مرآة

أوصَدَت باب غرفتها جيدا وارتمَت على السرير دافنةً وجهها بتلك الوسادة البيضاء، انحدَرَت دموعها بغزارةٍ من عينيها فوجَّهَت ناظريها نحو السماء وأطلقَت زفرةً حارَّةً من بين شفتيها، مسحَت على جانب قلبها ثم لملمَتْ خصلات شعرها الفحميّ وعقَصَتها خلف رأسها بعشوائية، كفكفَت الدموع من عينيها البنفسجيَّتين وتوجَّهَت نحو الحوض وغسلَت وجهها المُتوَرِّدَ ثم عادت لغرفتها وأحكمَت غلق الباب مرّةً أخرى، جلسَت أمام تلك المرآة وصوَّبَت مقلتيها إلى انعكاس لونهما البنفسجي في صفاءها تماما، لم تكن ذات الفتاة التي يظهر انعكاسها في المرآة؛ إنما شابةً أخرى تشبهها نفس الملامح والعيون؛ لكن الأفكار تختلف، والآراء تتناقض والأعمار تتباين؛ لم تكن ترى صورةً مطابقة لها عبر بُعدٍ غير محدَّدٍ من الأضواء والألوان، بل فتاةً مختلفة تماما تجالسها وتُحادثها تلك ميزةٌ في مرآتها، نظرَت نبرمان[3] إلى الفتاةِ التي داخل المرآة وهمسَت:

---

[2] يُعَدُّ انفصام الشخصية أكثر الاضطرابات النفسية شُيوعا، يتضمَّنُ أعراض الذِّهان والهلاوس والأوهام وعدم ترابط الكلام وفقدان الإرادة وتشويه المشاعر ويصيب المراهقين بشكل عام، يوصف بالتفكك العقلي، ويؤثر على التفكير بطريقة تجعل المصاب يواجه مشكلة في أداء العديد من المهام البشرية.

[3] اسم تركي الأصل يعني: الوردة البيضاء .

-لقد تعبتُ يا نَارنَج[4]

ماجَت الصورة المنعكسة على المرآة ثم أطلَّت ملامحها المماثلة لقسمات نبرمان، لكنها كانت ترتدي ثيابا مختلفة؛ مزيجٌ من الأصفر والبرتقالي، وأحمرٌ كلون الشفق قبيل الغروب يلُفُّ رأسها في احتشامٍ وهي جالسةٌ بِنفس هيئة نبرمان تماما، قالت في محاولةٍ للتخفيف عنها:

-أنا هنا لأجلك.. أنا أسمعك..

تنهّدت ثم نظرَت إليها بامتنان، أحيانا.. نحتاج شخصا يسمعنا فقط لنكون بخير، شخص ما يجعلنا نطمئن لأننا نبثُّ همومنا إليه، فيُروّح عنَّا بسكنةٍ لأنفسنا في خضمّ الحياة، تراجعَت نحو الخلف قليلا وتمتمَت:

- لقد تعبتُ من كلّ شيء، كلُّ ما أفعله يتحوَّل إلى سراب.. أَضنَانِي الزَّيف يا نارنج، وكأنني أكتشف كلَّ يوم شيئا جديدا في هذا الوجود.. يجعلني أفكِّرُ في التَّراجع نحو الخلف، والنكوص إلى القهقرى.

مسحَت نارنج على وجهها بتفكيرٍ فأضافَت نبرمان:

-لقد ملكتُ حلما.. لكن شيئا لم يكن مثلما توقَّعت، صُدِمتُ بالمصاعب المُتتالية..

---

[4] شجرة معمّرَة دائمة الخضرة ذات أوراق جلدية قاتمة اللون وأزهار ذات رائحة عِطرية، تختلف عن البرتقال بأن أوراقها أغمق لونا وأعناقها أطول وأن ثمارها سهلة التقشير، ولأوراقها رائحة طيبة، أصل الشجرة هو الصين، وهي تنتمي إلى جنس الحمضيات.

لاحَت على شفتيها ابتسامة منكسرةٌ وقالت:

-أنتِ أميرة.. ومصيركِ محدد، فلا ترهقي نفسك بكثرة التفكير..

شعرَت نبرمان بالاضطراب وهي تعقِّبُ على كلماتها:

-لا أريد تتبُّعَ الطريق المرسومة، الوسيلة المعروفة والسَّليمة التي تضمن لي النجاح دون خسائر.. أنتِ لا تفهمين..

صاحَت نارنج مشدوهة:

-أليس ذلك ما تتمنَّينَه؟

-لا.. أبدا.. لا أريد الطريق السليمة التي توصلني دون جهد إلى هدفٍ لستُ أرجوه، كل شيء قد يكون سهلا بالنسبة لأميرة تَطلُب فيُلَبَّى لها.. ولكن سئِمت.. ليست الحياة كما تظُنِّينها يا نارنج، أنتِ انعكاس داخل مرآة، أما أنا.. فجسد بروح يتنفس، ولديه قلب ينبض، وطموح ما.. يمنعه وجوده داخل أسوار هذا القصر من بلوغه.

هزَّت نارنج رأسها وقالت:

-للمرايا روحٌ أيضا.. حتى لو كنتُ مجرَّد انعكاس؛ فأنا أحد جوانب روحك.. أنتِ فقط لا تشعرين..

انتفضَت نبرمان فأضافت مؤكِّدة:

-أنا هنا لأُسانِدكِ، أنتِ صغيرة.. ستُصدَمين بالحياة لو لَم أحمِكِ..

-تحميني؟ مِمَّ؟

-من كل شيء.. أنتِ خائفةٌ يا نبرمان.. خائفةٌ من الخذلان؛ والعجز، واقتحامِ اللحظات؛ خائفةٌ من التَّقدُّم والإقدام.. أنتِ أسيرة.

-أسيرة؟ لكنني لستُ كذلك بالتأكيد!

-أسرى الخوف والحب والعجز والخنوع ليسوا بأقل استعبادًا من أسرى الأغلال والسجون.

أطرَقَت برأسها قليلا ثم همسَت:

-أنا سَبِيَّة، للخوف؛ والحب.. والعجز، وربما.. الضعف أيضا.

-أنتِ ضعيفة، لذلك وُلِدتُ أنا.. لقد وُلِدتُ منكِ لأحميك..

-لكنني لا أحتاج الحماية.. يمكنني التغلّب على خوفي؛ لكن.. لماذا أنا خائفة؟ ومِمَّ؟ ألا يجدر أن أُقدِم؟

-لا تعرفين عواقب الأمور، لذلك تشعرين بالخوف من التقدُّم أنا مشاعركِ تلك.. أنا خوفكِ وعجزكِ وضعفكِ، وخنوعكِ واستسلامكِ؛ أنا دموعكِ الهشَّة وقواكِ الخائرة.

-لكن.. هل أمتَلِكُ كل ذلك؟ هل أنا هشَّةٌ لِتلك الدرجة؟

-دوما على الأبواب كنتِ تتراجعين قبل أن تطرقي على منزل حلمكِ.. متردّدةً على الدوام.. أعرف أنكِ تشعرين بذلك؛ صدِّقيني.. أودُّ حمايتكِ، لتعيشي في أمان.. حياةً دون مصائب، دون أن تسقطي أو تفشلي، ثقي بي.

حملَقَت فيها مندهشةً ثم قالت بفضول:

-لكن.. أينبغي أن أكون هكذا؟

-تلك الطريقة الوحيدة التي تخلِّصُكِ من هذا العالم وبأسِه؛ أنتِ لا تعرفين ما يحدث بالخارج.

-ماذا؟

اتَّقدَت عينا نارنج وتحوَّل لونهما إلى البرتقالي فجأة كما حدث مع الزهور التي تعتلي حجابها في شكل مستدير كتاجٍ من الزهور البرتقالية المائلة إلى الحُمرة، قالت بأسف:

-هذا العالم غير منصفٍ يا نبرمان؛ هناك دماءٌ تسفك، مشاعرٌ زائفة في العلن تُخفي ما سَتَرته القلوب.. إنه مملوءٌ بالنِّفاق والرِّياء عليكِ أن تبقَي هكذا؛ وحيدةً كما وُلِدتِ.

-لكن.. أنا أحتاج أن أعيش يا نارنج، أحتاج أن أنجح وأفشل؛ أن أتقدَّم وأقتحم الحياة، لِمَ تريدينني أن أبقى أسيرةً لِأسوار الخوف والألم، وأتصوَّرَ الأسوأ دوما من هذا العالم، ماذا لو كان مكانًا آمنًا؛ مليئا بالحبِّ والأمل، مُفعمًا بالحياة والجمال، والطِّيبةِ والوِداد.. سأكون حينها قد خسرتُ الحياة التي سأعيشها مرَّةً واحدة!

حدجَتها نارنج بنظرةِ تحذير وقالت:

-وماذا لو كان العكس، أنا أكبر منكِ لأنني نتاجُ خبراتك في الحياة؛ أنتِ ضعيفة.. لا يمكنكِ مواجهةُ العالم وحدكِ!

هدأَت نبرمان قليلا وأخذَت نفَسا عميقا، مكثَت على ذلك أمدًا طويلًا بينما نارنج تصيح مُردِّدة:

-إياكِ أن تفعليها.. لن أسامحك!

تجاهلَت صراخها فتلألأَت المرآة الهائلة وانفصَمَت، انشطَرَت نِصفين لكنها بقيَت بنفس الحجم، وكأنَّ مرآةً أخرى وُلِدَت من الأولى ونُسِخَت منها، تردَّدَت نبرمان قليلا قبل أن تفتَح عينيها صَوَّبَتهما مباشرةً نحو الانعكاس الجديد للمرآة التي أخذَت الصورة فيها تتمايَل ثم عكسَت فتاةً تشبهها تماما، لكنَّها ترتدي ثيابا بُنِّية

وتضعُ على رأسها وشائج زعفران مُلَفَّقةً بطريقة لطيفة، لونها مائل إلى الأحمر البُنِّي، وتتَّشِحُ بحجابٍ من نفس اللون، تجلس في سكينةٍ مغمِضةً عينيها فلا يظهر منهما غير رموشهما الكثيفة همسَت نبرمان بإصرار:

-ناجود[5]

فتحَت الفتاة عينيها ورمقتها شاخصةَ النظر برهةً من الزمن لكنها سرعان ما ابتسمت بِطيبَة وقالت:

- كيف أنتِ يا نبرمان؟

أحنَت رأسها بأسى فصاحَت نارنج:

- لماذا فعلتِ ذلك، ستأخذك إلى الهاوية أيتها الحمقاء!

مرَّرت نبرمان يدها على المرآة الأولى فتبخَّرَت نارنج وصارَت ضبابا يموج في بعد لا ملموسٍ داخل قطعةٍ زجاجية، تحول لون المرآة إلى البرتقالي المائل إلى الأحمر النَّاريّ، والجواهر التي تحفُّها إلى الأخضر الزُّمردي، استدارَت نبرمان نحو ناجود وتنهَّدَت ثم قالت:

-أنا ضائعةٌ بالفعل!

طبعَت ابتسامةً على وجهها وردَّدَت:

-خفِّفي عن نفسك..

أرسلَت نبرمان زفرةً حارةً وهمسَت:

-ليتني أستطيع.. كيف سأفعل ذلك؟

أجابت ناجود بعد أن رمَّشَت بعينيها الزعفرانيَّتَي اللون:

---

(5)الناجود أو الزعفران هو صبغ أصفر زاهي اللون يُستَعمل في الطهي، له رائحة عطرية وفوائد طبية عديدة.

-كثرةُ الأفكار السلبية تقتل روح الحياة فيكِ، تماما كسُمٍّ بطيء المفعول.. يعطِّلُ جسدكِ دون أن تشعري!

-لقد تعِبت.. وكأنني أسيرةٌ بالفعل.

-أسرى الخوف والضعف والحب والخنوع عبيد لِمَدِّ هواجسهم وجزر ظنونهم، يمكنكِ أن تتحرَّري من أسرِكِ يا نبرمان.. إن أنتِ تغلَّبتِ على مخاوفك!

-لن أستطيع بمفردي يا ناجود..

قاطعَتها قائلةً:

-كوني مؤمنةً أنكِ كائنٌ مستقل بذاته، وجودكِ ليس مقترنا بكيانٍ آخر، لذلك.. يمكنكِ.. بمفردك.. إن أردتِ ذلك!

-أنا أحب يا ناجود.. وهذا يؤلمني كثيرا..

وضعَت يدها على قلبها وابتسَمَت بانكسار ثم قالت:

-مِرَاس.. تلك قصة قديمة، لكن.. ما الذي يؤلمك يا نبرمان؟

مسحَت على صدرها وأجابَت:

-أشعر بالألم هنا.. أنا خائفة!

-ولكن.. مِمَّ؟

تردَّدَت قليلا قبل أن تقول:

-خائفةٌ من الألم.. والضعف، والفقدان؛ والاقتراب أيضا.. أخشى أن أكتشف حقيقةً ما يا ناجود، تغيِّر كل مفاهيمي.

-لا تجعلي خوفك من الألم يمنعك من رؤية جمال الحياة، لو لم تقتحمي لحظاتها.. ستعيشين ما تبقى منها تظنّين أن شيئا جميلا قد فاتكِ، إن أردتِ التغلب على خوفك؛ اِتبَعي ذاك الحماس داخلك.. فضول الشابة اليافعة.. الخوف من الحقائق

يجعلك تعيشين في كهفٍ مظلم من الوهم، تحيط بكِ أطياف الألم، والنكوص، والتَّردّد قبل كل خطوة تَخْطِينَها، لا تحبِّي أحدًا قبل أن تحبي نفسك.

-لكنني أُحبّ بالفعل.. كما أنني لا أستطيع التحكم في هذا الشعور.. أبدًا!

-قد لا تتمكّنين من التحكم في مشاعر قلبك؛ لكن يمكنك السيطرة على تصرفاتك بالطبع.

تنهدت نبرمان وقالت باستسلام:

-الكلمات سهلة على اللسان، مع ذلك.. لن أستطيع.

-ذاك الانكسار.. تلك النظرة اليائسة، والضعف والارتجاف في صوتك وأنت تحدثينه، تخلَّي عن ذلك.. جبينك يتفصَّد عرقا حين تكونين متوترة، أحيانا أشعر أنك ستذرفين الدموع في الحال.

-لم أَجِد ملجأً يا ناجود.. أشعر أنني وحيدة؛ حتى مِرَاس ذاته غريبٌ عني بالرغم من كلِّ شيء، ولا يَحِقُّ لي تجاوز حدودي معه.. كما أنه؛ ربما.. لا يُحِبُّني!

-أُترُكي عنكِ البشَر وتوجَّهي نحو خالقهم.. فهو يُقَلِّبُ القلوب كيفما شاء، اِسألي الله دوما أن يُرَيكِ الصَّواب؛ وأن يربِطَ على قلبكِ ويُلهِمَكِ الصبر..

أشاحَت نبرمان بعينيها وتمتمَت:

-ماذا لو كنتُ أتبعُ الطريق الخاطئة، ماذا لو كان هذا العالم حقًّا بقعةً من المآسي تتعملقُ حول البشر؛ لا زِلتُ خائفةً من كلِّ شيء، حتى.. من الحبّ.

أخذَت ناجود نفَسًا عميقا وقالت:

-حسنا.. يمكنكِ أن تظلّي هكذا.. شريدةً خائفة، يمكنكِ أن تكوني فردا من القطيع، تتبَعين طريق أسلافكِ المُؤَمَّنة.. أنتِ بالفعل لا تريدين ذلك، الطريق المرسومة لن تؤدي إلى نجاحٍ فِعليّ تكرار روتينيٌّ لفشلٍ مفخخ بكلمة النجاح، إن أرَدتِ حياةً حقيقية فاصنعيها أنتِ، ربما تخافين من اقتحام العالم، ماذا لو كانت كلُّ مخاوِفِكِ سرابًا؟ ستقضين حياتَكِ بين مدٍّ وجزر، ثم تُضَيِّعين فرصة اكتشافها حين تَرَين سنين عمركِ تتبخَّر دون أن تجرُؤي على التقدم خطوة نحو الأمام، أيعجبك أن تعيشي في الظلام؟ أتريدين أن تندمي بعد ذلك؟

-بالطبع لا.. لكنني أحتاج بذلك قابليةً للتضحية، لا أظن أنني أستطيع.

زفرَت ناجود بعمق لتهدِّئ أعصابها وقالت:

-"من لا يستطيع أن يضحّي بشيء، لن يمكنه تغيير أي شيء" تذكري ذلك دوما.. كوني على استعداد دائم للتضحية، لا تتخلّي عن مبادئك فقط!

تنهّدَت نبرمان فماجَت الصورة في المرآة البرتقالية وظهرَت نارنج صائحةً:

-لماذا كان عليكِ أن تضحّي بكل شيء، ما الذي ستَجنِينه بعد ذلك؟ أنتِ ضعيفة وتحتاجين للحماية، لن تفعلي شيئا بمفردك!

تماسكَت ونظرَت إليها بعد أن اقتنَصَت نظرةً إلى ناجود تمتمَت بإصرار:

-يمكنكِ البقاء يا نارنج.. لكن لغرض البقاء لا غير، أشكركِ؛ أنا لا أريد حماية، أتعلمين؟ بما أنني سأعيش مرة واحدة.. فلن أضيِّعها في التفكير في العتمة، سأخرج إلى النور.. ثم أرى العالم كما خلقه الله.. تماما! أنا هنا.. وهذه أنا؛ ولا قوةَ بشريّةً تستطيع إيقافي، الخوف شيء غريزيّ فينا، لا يجدر أن يُقعِدَنا عن بلوغ ما رجَته قلوبنا..

ابتسَمَت نارنج بسخرية ثم تحوَّلت تلك البسمة إلى قهقهةٍ عالية قالت على إثرها بحدَّة:

-تصنعين الوهم من هباء الألم، أنتِ مثيرة للشفقة.. الحياة ليست ورديةً كسنين عمرك الثماني عشرة، أنتِ لا تعرفين شيئا يا صغيرتي الخرقاء..

-الأوهام التي تجعلنا أفضل خيرٌ من الحقائق التي تهوي بنا في قعر اليأس وحطام الاستسلام، نحن نميل إلى تحقيق وهم جميل وطمس معالم ألمٍ غابر..

ابتسمَت ناجود وكأنها استساغَت كلامها وهزّت رأسها موافقةً ثم عقّبت:

-المرايا صور أخرى للبشر.. تعكس انفصاماتهم، وآلامهم العميقة.. تعابير وجوههم، وجومهم ويأسهم، خوفهم وتردّدهم.. بعيدا عن ذلك، الحقيقة هي ما يوجد داخل تلك القلوب، أما المرايا.. فقد تكون كاذبةً.. تماما كما الأقنعة التي تستبدلها الوجوه؛ بيد أنها وجه مشترك للكثير من عُمَلِ المشاعر..

***

جبينه يتفصّد عرقا، وجسده يعلو ويهبط وكأنه خرج لتوّهِ من معركة ضارية، أنفاسه تتسارع وحرارته ترتفع كما لو أنه أُصيبَ بنزلة برد، دَوّت منه فجأةً صرخة فزع فَلَكَزَهُ والده وصاح:

-مِرَاس.. استيقظ ، ماذا حصل لك؟

فتح عينيه اللتين جحظتا وتنفّس مِرارًا ثم قال:

-رأيتُ كابوسًا يا أبي!

أخذ نفسا طويلا ثم أضاف:

-وكأن نبرمان كانت مُقَيَّدةً إلى شجرةٍ بنفسجية، والمكان مظلم تماما؛ لم أكن أرى شيئا غيرها، كانت عاجزةً عن الصراخ، أو بالأحرى.. كانت تصرخ وصوتها مكتومٌ بطريقةٍ ما، وكأنها تستنجد بي، وحين حاولتُ إنقاذَها وبدأتُ السَّيرَ نحوها بَدَت تلك الشجرة وكأنّها تتراجع وتبتعدُ عني فأخذتُ أُهَروِل، رأيتُ حينها أطيافا سوداء تُسايرُني في ركضي، وكنتُ أحاول أن أُسابِقَها، وكُلّما سَبقتُ طيفًا سقطَ أرضا وكأنه قد ماتَ فجأةً؛ كانت أعدادها هائلة، تظهر وتختفي في الظلام ولا أكاد أراها إلَّا بشقِّ الأنفس، وكنتُ أصطدم بها أحيانا، لكنَّ تلك الشجرةَ ما انفكَّت تُبعِدُ نبرمان عنّي حتى كَفَّت عن الصراخ، وعرفتُ ذلك من تعابير وجهها التي اتَّقَدَت بها فجأةً نظرة إصرار، عندها ظهرَت فتاتان تشبهانها تماما، اِحداهما ترتدي فستانا برتقاليًا وأصفر وتضع على رأسها حجابًا قرمزيًّا، وورودًا نارنجيّة اللون، والأخرى تلبس فستانا زعفرانيًّا ووشاحًا من نفس اللون تغطي به شعرها، وتضع على رأسها وشائج زعفران خِلتُ أن طيب رائحته وصلني حيث كنت رغم بعدي عمّا أرى، ساعَدَتَاهَا على إزالةِ قيدِها فظهَرَت ثيابها البيضاء الناصعة وكأنها أضاءت

الظلام مَدَّ بصر الرَّائي ثم انبثقَت لها أجنحةٌ فطارَت بخفَّةٍ وتقدّمَت نحوي وانتشلَتني من بين الأطياف فانقشَعَ الظلام وبانَ النور وكأنَّهُ صبح يشرق على الأرض.

صَمَتَ مِراس ونظر نحو والده الذي كان يستمع إلى الرؤيا بانتباهٍ شديد، وما إن لاحَظَ أن ابنه أكمَلَ قَصَّها حتى قَطَّب جبينه وقال:

-أضغاث أحلام يا بنيّ

تنهَّد ثم أضاف:

-احذر ظلام النفس، والانغِماس في الشهوات، اِربِط على قلبك الذي بين أضلعك، وإياك وكثرة الظنون، فإن سوء الظن يُذهِب الوِداد..

ابتسَمَ وانتظَرَه أن يُتِمَّ حديثه لكنه أردف مغيِّرًا مجراه:

-كم تمنَّيتُ لو أراك.. ولو مَرَّةً واحدةً قبل أن أموت!

أَخفى مراس حزنه على أبيه خلف كلماته قدر الإمكان وهو يقول بِمَرَح:

-لن تكون مسرورًا.. أنا لستُ جميلا يا أبي، أظُنّ أن سبب وفاتِك حينئذ سيكون رؤيتي، ستموت من الصدمة يا رجل..

ضحك والده بأُنسٍ وصاح ممازحًا:

-لكنَّ نبرمان لا ترى ذلك بالتأكيد!

تلاشَت البسمة التي كانت على وجه مراس وسأل بجِدِّية:

-ما الذي تقصده؟

ابتسَم مُطَوَّلا قبل أن يقول:

-لا.. لا شيء، ستكتشف عَمَّا قريب يا بُنيّ

-أَلِكلامِكَ علاقة بالرؤيا يا أبي؟

-إطلاقًا، كل ما في الأمر أن القلوب مرايا.. القلوب شفافة؛ وهي التي تخبرنا بما تحمله حتى دون أن تدرك، الألسنة وَهْيُ المشاعِر لن تتمكَّن أبدا من الإفصاح عنها بالشكل اللائق..

نظر إلى والده باستغراب وسأل:

-لكن.. ما الذي حَمَلك على قول ذلك؟

-أنا أشعر يا مراس..

تَنَهَّد ثم أضاف فجأةً:

-لا تشغل بالك يا ولدي.. أرجوك..

أراد أن يُخَفِّفَ عن والده فقال ممازحا:

-سَيِّد رامان.. حاوِل أن تتخيَّل شكلي.. أنا قهرمٌ قصير جدا وبدينٌ جدا، وشعري أشعث، وأنا أَحوَل..

فكَّر قليلا ثم ضحك وأردف:

-ليس لديّ أنفٌ بالمناسبة.. لون بشرتي أصفرُ أيضا.

ابتسَمَ والده وقال:

-هذا ليس شكل قائد الفُرسان، هل أنتَ بَشَرٌ أم قطعةُ زبدة؟

زمَّ مراس شفتيه وتمتَمَ يتصنَّع الانزعاج:

-وكيف عرفتَ أن لون الزبدة أصفر؟

أطرق السيد رامان وقال:

-كانت أمك رحمها الله تخبرني عن ألوان كل شيء، وتجلس لِتحدّثني عنها كثيرا؛ كانت تؤنسني بذلك، وكنتُ أحبُّ وجودها اللطيف في حياتي، مع أنني لا أعرف حتى كيف يبدو اللون

الأصفر.. لكنني على الأقل أحمل ذكرى منها، فقد كانت بصري الذي رأيتُ به العالم ورديا..

ابتسم ورفع رأسه ثم أضاف:

-مع أنني لا أعرف كيف يبدو اللون الوردي أيضا.

-نور البصيرة أقوى من رؤيا العيون يا أبي..

صَمَت يفكر ثم أضاف بعد برهةٍ قصيرة:

-إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.. أمي رحمها الله كانت امرأةً رائعة!

لمَح مراس ضوءًا أزرقَ شاحبًا يلمع في النافذة فوَقَف من فراشه بخفّةٍ وفتحها، تسرّب النور إلى الغرفة التي تردّد بها صوت رامان وهو يسأل مراس فَور أن شعَرَ أنه وقف من مكانه:

-ما بِكَ يا بنيّ؟ ماذا يحدث؟

استدارَ نحوه وأجاب بعد أن سكنَت الفراشة على يده:

-هناك خَطبٌ ما في الغابة!

سأل والده مجدّدا باستغراب:

-وكيف عرفتَ فجأةً؟

-فراشةٌ من فراشات نبرمان.

ألقى على أكتافه سُترةً جلديّةً وحَمَلَ سيفًا وقوسا وبعض السِّهام، حانت منه التِفَاتَةٌ نحو والده قبل أن يخرج وقال:

-أنا ذاهبٌ يا أبي.. لن أتأخّر.

-رعاكَ الله يا بنيّ.. اِحذر الظلام بالخارج.

ابتسم وقبَّل جبينه ثم فتح الباب وصاح بصوتٍ كالفحيح ممازحا:

-أتظُنّني غبيًّا؟ لقد أخذتُ معي قنديلًا.

خرج وألقى نظرةً على والده ثم أَوصدَ الباب وهَمَس وهو يقف مُوَلِّيًا وجهه نحوه بينما تَستَكِينُ تلك الفراشة على سبَّابته:

-حماكَ الله يا أبي، وكَشَف بَأسَكَ وضرَّك.

تقفّى الأثر الأزرق الشاحب أينما حلّ، كان يصارع الريح والمطر؛ ويتجاوز الأشجار محاوِلًا قَدرَ الإمكانِ ألا يُضَيّعَ النور الذي تتركه أجنحة الفراشة خلفها، شَعَرَ أنَّه ابتعد كثيرا عن المنزل فتوقّف يلتقط أنفاسه وقال لاهثًا:

-أَلَم نَصِل بعد.. إلى أيّ مدى سيُمكِنني التّحمُّل؟

عادت الفراشة لتقِف على رأسه فغمرَهُ نورٌ أزرق لطيفٌ تخلَّل أعضائه وتوهَّجَ من بين أصابعه، فتح عينيه فإذا بالظلام يتلاشى حوله.

كُلّ شيء أزرق بلون السماء، وَهَّاج كالقمر في ظُلمَةِ الليل الأدهم، فَغَرَ فاهُ وصاح مشدوهًا:

-ما أعظم اللون الأزرق!

أطفأ القنديل واهتدى بذلك النور اللطيف، في حين تُرشِدُه تلك الفراشةُ إلى الطريق وهو يتبعها بصمت ودهشة ويقول:

-لِمَ لَم أعلم من قبل أن لنبرمان فراشاتٍ رائعةً كهذه!

ما كاد يُنهي كلماته تلك حتى سَكنَت على شجرةٍ ضخمة، ذات فرعٍ مُمتَدٍّ في السماء وكأنه يُناطِحُ السحاب طولًا، تلاشى النور الأزرق من ناظِرَيهِ فجأةً وعاد ظلام الليل، مَرَّرَ عينيه على أوراقها البنفسجيّةِ وأخذ ينزل نحو جذعها المُحاطِ بِتِلك الفراشاتِ

المُضيئةِ من كلّ حَدبٍ وصَوب، أنعشَت رائحةُ الأثيرِ العَبِقَةُ ذاكرتَه فمدَّ يدَيه يتحسّس خشبها المُبتَلَّ وهَمَسَ باندهاش:

-جاكرندا[6] كالتي رأيتُها في الحلم.. تمامًا!

انتفضَت الفراشات الزرقاء التي كانت تغطّي الشجرة واجتمعَت ثم حَطّت على جسده وأخذَت ترفرف برفق وكأنّها تدعوه لِيَلتَفَّ حول الشجرة، استجابَ مشدوهًا لما يرى، راوَدَهُ شعورٌ لطيف وهو يَرقُبُ تلك الكائنات الرقيقة تغطّي جسده بالرغم من أنها.. حشرات هي الأخرى! الجمال ليس في صنفٍ واحدٍ من المخلوقات، قد ينبع من أعمق نقطةٍ في القبح؛ كلّ ما خلقه الله يُخفي داخله جمالًا خاصًّا، حتى لو كان يختبئ خلف مظهره، فقط أولئك الذين يَرَونَ البهاء في هذا العالم يتمكَّنون من تجاوز الألم والخوف الذي يقبع داخلهم، لأن حياتهم.. تستحقّ المخاطرة لأجلها.

ارتجَفَت نَبَضَاتُهُ وهو يُطالِعُ ذاك العدد الهائلَ من الفراشات الزرقاء المجتمعة حول شيءٍ ما، تقَدَّم بفضولٍ فانفَضَّتْ تلك الأنوارُ الزّاهيةُ من حولِ السّلة الصغيرة، فتحَت الرضيعة عينيها حين أطلّ عليها مِراس بوجهه المستدير، كانت مقلتاها زرقاوتين كلون السماء الصافية، تلمعان كَبَدرَين دُرِّيَينِ يسبحان في بُعدٍ أبيضَ فاتنٍ كالحليب الدافئ، ابتسمَت عندما مسح على جبينها فسرَّتهُ سعادتها، للبراءة مفاهيمُ أخرى من الجمال، التفاصيل البريئة تُضفِي طعما حلوا للحياة، حتى لو كانت تافهة ومُهمَلَة..

---

[6] الجاكرندا جنس من النباتات، وهي شجرة متساقطة الأوراق ذات لون بنفسجي خشبها يعرف بالآبنوس الأخضر، ويستعمل في الأثاث بسبب صلابته.

مجرّد حروفٍ عابرةٍ في نهرٍ من الأحداث قد تقلِبُ أيامنا نحو الأفضل.. التفاصيل هي كلّ ما نملك من الذاكرة!

حمل مراس تلك الصغيرة ومسح على وجهها بيده ثم قال مندهشا:

-جميلة.. يا لِعينيك الرّائقَتَين، وكأنهما بحر لازوردي غير محدود، لم أَرَ تلك الزُّرقةَ اللَّامِعة من قبل!

مكث على تلك الحال لبعض الوقت ثم أضاف بحزن:

-يا للكِ من مسكينة.. إلى متى سَيَخذُلُنا العالم يا صغيرتي؟ حَتَّامَ سنظلُّ أسرى لِخطايانا؟ أليست للقلوب الجافّة نبضات؟ أوَليس بها رحمة؟ ما ذنبكِ حتى تُتْرَكي هنا بِتلك القسوة؟

امتعضَت ملامح الصغيرة وكأنها فهمت ما قاله واستاءَت له لمعَت الدموع بعينيها الزرقاوتين فهَدهَدَها مراس وضمّها إلى صدره حين شعر أنها سوف تبكي وقال مُتَرَجِّيًا بِسذاجة:

-أرجوكِ لا تبكِ.. صحيح أنني لا أعرف كيف أتعامل مع الأطفال، لكن أعِدُكِ؛ سآخذكِ إلى مَن يستطيع رعايتكِ.

حملقَت فيه الصغيرة وهي تبتسم والدموع لا زالت عالقةً بِمُقلَتَيها فبادَلَها نظرة سعادة وأردف بعفوية:

-نبرمان.. طبعا يا صغيرتي..

ربط غطائها الأبيض حول جذعه حتى لا تسقط وأمسك الخنجر المغروز على الشجرة محاوِلًا شَدَّهُ لكنه لم يُفلِح بذلك أسقَط السّلّة المُعلّقَة عليه فظهَرَ ساقه المزدوجُ اللون بين البنفسجيّ والرماديّ، شخصَت نظرات مراس وهو يحاول تذَكُّرَ المكان الذي رأى بِهِ ذاك الخنجر، كان حين وفاة والدَي نبرمان..

قبل سنوات، ملطّخا بدماء الساحرتين، قبل الانتقام بأيام قلائل.. وفي جنازة المِلكِ وزوجته.. هيلدا تبكي، والجدُّ مُنهار على الأرض يرثي ابنه الوحيد.. نبرمان شارَفَت على الجنون، كانت تُقَبّلُ التُّربة.. وهيلدا.. كانت تقف مع ميليا وتقول بشجون:

-كان من اللازم أن يحدث ذلك حتى ننجح.. لا حلّ آخر!

***

قَبَّل ثغرُ الشمس وجه السماء الباكي فأَضفى عليه لمسةَ حياءٍ عند الأفق، تلألأ اللون الدافئ في صفحتها مُبَدِّدًا تلك الغيوم التي أمضَت ليلها حِدادًا أسودَ مُرَصَّعًا بنجوم الأمل، لِرجاءِ صُبحٍ جديد، يَطوي الألم الذي عانَتهُ القلوب قبل تلك الدقيقة الفاصلة بين النور والظلام، هكذا.. تُنسِينا الأيام ثقوب أرواحنا فنمضي ببعض الحزن والرثاء على نفس فقدناها، وأخرى تَوَارَت تحت التراب؛ لكننا مع ذلك.. نصبح أقوى بفِعلِ صدماتِ الحياة!

فتحَت أمان عينيها وقطَّبَت جبينها حين وجدَت نفسها على سريرٍ غير سريرها، في غرفة ليست بغرفتها، رُفقةَ أختها والعجوز نِمرِقة اللتين كانتا نائمتين؛ جلسَت على الفراش تحاول تذكُّر الأحداث التي مَرّت بها فشعرَت بدوارٍ عنيف؛ وكأنَّ رأسها يُطرَقُ بقوة ويرتطم بجدارٍ صلب، تردَّد طنينٌ مزعج بأذنيها فقرَنَت حاجِبَيها وحاوَلَت شَدَّ خصلات شعرها فانتبهَت إلى حجابها الذي لا يزال مُلتَفًّا حول وجهها باحتِشام، فتحَت باب الغرفة فواجهَتها نافذةٌ هائلةُ الحجم، وقفَت أمامها وألقَت نظرةً إلى تلك الحديقة البهيجة واضِعةً يدها على الزجاج وأخذَت تُتَمتِم:

-اللهم.. يا خالق كل هذه البهجة والعظَمة، يا باسط الأرض ورافع السماء، يا كثير المَنحِ والعطاء؛ يا واسع السّخاء، رحماك يا من رعَيتَنِي حين تخلّى عنّي البشر، اللهم أنت تسخِّر المِنَح بعد المِحَن، ولطفك تخطّى إدراك بصيرة البشر.. اللهم أنت الملجأ والمعين؛ وليس لي سواك من ملاذ..

أفلتَت دمعةٌ من بحر عينيها وشقَّت طريقها على رمال وجهها فابتسمَت بعد أن تنهَّدَت بارتياح.. تلك القلوب التي تستمسِكُ بالله حتى حين تكون في أمَسِّ الحاجة للبكاء تلتئِمُ جراحُها بِبَلسَمِ الطمأنينة، ويغمرها الرضى حين تعلم أن لطف الله يكتنِفُها دون أن تُدرِك؛ لكنها تؤمن بوجوده.

لمحَت أمان بابًا سماويّ اللون لِكوخ بسيط في منأى عن تلك الحديقة، تُحيط به زهورٌ سماويَّة وبنفسجيةٌ ذات شكلٍ غريب ومُبتهِج، وشجرةٌ ضخمة من الأَرْزِ تزيّن جانبه الأيمن، شعرَت بفضول شديد لِاكتشافِهِ فتوجَّهَت دون تفكير نحو الباب وتجاوزَت الدرج كطفلةٍ صغيرة تحاول التِقاطَ ألوان الطيف في السماء بسذاجة، الفضول فطرةٌ بريئة فينا؛ ومِيزَةٌ لطيفة تُرغِمُنا على الإقدامِ بِبَلاهة، لكنه أحيانا يقودنا نحو الهاوية.

فتحَت الباب الخارجيّ للمنزل وأخذَت تبحث عن النافذة التي كانت تُطِلُّ منها، التَفَّت حول البيت بعض الشيء وهي تُصَوِّبُ ناظريها عليه، وما إن وقعَت عيناها على النافذة حتى استدارَت نحو المكان الذي رأت فيه الكوخ، هرولَت إليه بسرعة ثم وقفَت أمام بابِهِ الأزرق فانعكسَت صورتها على حيزٍ صغير بدا كَنَافذةٍ له

أُغلِقَت بِمرآةٍ مستديرة، تردّدَت قليلا لكنها استعادَت رباطة جأشها وهمسَت حين رفعَت يدها:

-حسنا.. سأفعلها الآن..

طرقَت على الباب مَرَّةً واحدة فانطلق صوتٌ رخيم من داخل الكوخ مُجيبا:

-أمي؟

تراجعَت ثلاث خطوات نحو الخلف وابتلعَت غصة علقَت بحلقها ثم تمتمَت تُحدِّث نفسها:

-آبنوس!

فُتِحَ الباب فأَطَلَّ منه وجه أسمرُ بشوشٌ لِشابٍ في أوائل العشرينات يرتدي نظّارة طبّية، ويعقص شعره الأسود الطويل بعض الشيء خلف رأسه بعشوائية، اعتلَت عينيه البنّيّتين نظرةُ دهشةٍ وهو يقول بحرج:

-آنسة أمان..

لَوَّحَت بيديها في الهواء وقالت كَدِفاعٍ عن حماقتها:

-آسفة لاِقتِحام خصوصيتك، كلّ ما في الأمر أنني شعرتُ بالفضول حين رأيتُ الكوخ فأردتُ اكتشافه..

نَزَعَ نظّارته وداهمَتهُ موجة ضحكٍ هستيريّة؛ نظرَت إليه مُستغربةً من ضِحكته الهادئة فتنهَّد مبتسما ثم قال:

-اكتشاف كوخ؟ ماذا لو كان فيه ساحرٌ ما.. أو عجوزٌ تُعطِيكِ تفاحةً مسمومة، أو سبعةُ أقزامٍ مثلا..

أطرقَت بحرجٍ فأضاف معتذرًا بِتَحَفُّظٍ هذه المرَّة:

-عذرا.. أمزح لا غير..

أعاد نظّارتَه إلى عينيه ثم أردَفَ بعد أن فتَحَ الباب:

-ليس هذا مكانًا خاصًّا البَتَّة.. هذه مكتبتي..

-لحظة.. هل تحبّ القراءة؟

-أنا كاتب..

حملقَت أمان في الباب ثم استدرَكَت فجأةً بحزنٍ غامر:

-كتبي كلها اِحترَقَت.. للأسف..

قال آبنوس بسرعة في محاولةٍ عابثة للتّخفيف عنها:

-سأذهبُ الآن لشراء بعض الأوراق والدفاتر، يمكنكِ البقاء واستعارة أيّ كتابٍ أيضا..

ابتعَدَ عن الباب فأطلَّت على المكتبة واستنشقَتْ تلك الرائحة وهي تقول بِنَشوة:

-رائحة الورق.. وكأنها لفحاتٌ طيّبة لحديقةٍ من الكتب..

هزّ رأسه موافقا فسألَت بفضول:

-لكن.. لماذا مكتبتك معزولة عن المنزل؟

ابتسم وأجاب بِبساطة:

-لِسبَبَين.. أوّلهما أن غيداء ورُخاء لا زالتا صغيرتين، لذلك هما تمزّقان كل ورقةٍ تطالها أياديهما؛ والثاني هو أن القراءة تحتاج مكانًا هادئًا وتركيزًا عاليًا، كما أن الكتابة ليست بِعَمَلٍ سهل..

أضافَت أمان بِتَفَهُّم:

-الكتابة مسؤوليّةٌ على الكاتب أن يكون أهلًا لها، لأنّه يمسح على قلوب القُرَّاءِ ويُهدِيهِم مبادئ حياةٍ في كتاب.

-الكاتب يصنع نبضاتٍ للجماد، ويتذوَّقُ السطور.. كما أن التأليف يحتاج لسَهَرٍ وصبر وذِهنٍ رائِق.

هَزَّت رأسها وقالت موافقة:

-أتَفَهَّمُ ذلك..

بَدَت وكأنّها مُتعَبَةٌ جِدًّا، أراد أن يخبرها بما وَجَدوه في منزلهم المحترق بالأمسِ لكنّه لم يَجرُؤ، اِرتَأَى أن يُؤجِّل ذلك إلى غَدٍ أو بعد غد، أو حين تُقَامُ مراسم الدَّفن، هيَ على كلّ حالٍ ستعرِف عاجلا أم آجلا، يمكننا تناسي همومنا، لكن.. لن نستطيع تجاهلها إلى الأبد، نحن مُرغمون على مواجهتها وتلَقّي طعناتها.

اختطَفَ نظرةً إلى عينيها ثم قال بِصَوتٍ مُضطَرِب:

-حسنا.. سأترُكُ الباب مفتوحًا، يمكنكِ اِعتِبارها مكتبتَك.

همهمَت بكلمات غير مفهومة وهي تحاول شكره ثم قالت فجأةً:

-لحظة.. هل يمكنني الاِطِّلاعُ على مُؤَلَّفاتك؟

ابتسم بِحُبور وقال بِسعادة:

-بالطَّبع.. إنَّها على الرَّفِّ الذي يعلو المكتب تمامًا.

غادَرَ آبنوس بعد أن دخلَت أمان إلى المكتبة وقلبه يكاد يقفز من بين أضلعه، حقًّا.. الأرواح جنودٌ مُجَنَّدة، تشعر ببعضها؛ وتجمعها الاهتمامات المشتركة أحيانًا تحت سقفِ الحبّ!

جلسَت على الكرسيّ المُقابِلِ للمكتَبِ ثم أخذَت نفَسًا عميقًا وهمسَت:

-رائحة الكتب.. إنَّها تُذكِّرُني بِغرفتي..

مَرَّ بِرَأسها فجأةً شريطٌ أحمرُ يحمل مشاهد الهول والذُّعرِ والرُّعبِ الذي شَهِدَتهُ تلك الليلة، رؤية مُخَلَّفات الموت تترك فينا رَهبَةً ما.. صدمةً نحاول طَيَّ صفحتها حتى لا نتذكَّر، نحن نتنَاسى لِنَتَمَكَّنَ من اِستِئناف الحياة.

فتحَت الكتاب الذي على المكتب بعشوائيّة وأغمضَت عينيها بإستِعدَادٍ وهي تقول بِتَحَدٍّ:

-حسنا أيها الكتاب.. سأعتبر حروف صفحاتك الأولى التي أقرؤها رسالة لي..

صَوَّبَت ناظِرَيها نحو منتصف الورقة مباشرةً ثم قرأَت بِصَوتٍ مسموع:

-"نحن لا نكتب عن الآخرين إلا لِنُخَلِّدَهم بين السطور ونجعلهم يعيشون على الرفوف؛ مُخَلَّدين على الألسنة، نُحَوِّل الوهم في عقولنا إلى صفحاتٍ تنبض بالحبِّ الذي نسكُبُه على كلّ حرفٍ من حروفها، ونُعِيدُ الموتى إلى عالمنا حين يؤلمنا رحيلهم.. الموت هو الحقيقة الوحيدة التي نصدِّقها بشكل مخيف؛ وننفُرُ منها بطريقة مُرعِبة، فنَلجَأ إلى صنع وهمٍ جميل يُبقي أحِبَّائَنا على قيد الحياة إلى الأبد، نحن في النهاية لا نكتب إلا لِنَعيش العديد من الحَيَوَات؛ ونَعبُر أكثر من حَدّ.. نُبَلوِرُ بِهِ حُلمَ يَقَظةٍ بَهِيًّا يَطمِسُ الألم القابِعَ بين أضلعنا"

تنهَّدَت أمان وهمسَت بعد أن قرأَت تلك السطور:

-الموت يترك جروحا في قلوبنا حين يَمُرُّ حولنا..

تخلَّلَت الشمسُ غرفةَ الكوخ الصغيرة بِدفئها الأثيريّ وومضَت بِحَميمِيَّة على الرفوف وكأنها تُحَيّي الكتب المُتَوَّجَةَ عليها، انتَهَت أمان إلى الأوراق المصفوفة فوق المكتب بعشوائيَّة فإستَهوَتها فَراغاتُها، الدّفاتر الفراغة مِساحاتٌ تحمل آلامَنا، تترُكُنا لِنُلَطِّخَ بَياضَها بين دِفَّتَيها ثم تكتمها إلى الأبد، لِتَجعَلَنا نُلقي عليها سِتار حزننا كَصَدِيق حميمٍ يُؤنِسُ وحشة حياتنا؛ فنَلُوذ به بين الحين

والآخر ونشكو هَمَّنا لِصَمتِه المُحَبّب، أمسكَت ورقةً ما ووضعَتها أمامها ثم بحثَت بين الأقلام عن واحدٍ يناسبها، كانت دومًا تُحبّ تلك التفاصيل التي تَرُوقُها، التفاصيل التي تصنع الفارق في مشاعرها تجاه الأشياء التي تستعملها؛ لم تكن تستعمل قلمًا عاديًّا، بل كانت تبحَثُ دومًا عن قلمٍ يشبهها؛ تماما كما تُنَقِّبُ في رُكامِ القلوب عن واحد يفهمها.

قَلَّبَت ذاك القلم الأَسوَدَ بين يديها مُتَمَعِّنَةً في هيكله الرَّقيق ومظهره الأنيق المُرَتَّب، كانت مُصَابةً بمرضٍ ما يخص تلك الدَّقائِقَ المُهمَلَة، مهووسةً بعشق التفاصيل..

ابتسمَت وخطَّت على الورقة بِحَذَرٍ شديد:

"حين تضعف، وتنكسر.. وتُقارِبُ روحك على الانطِفاء؛ ويَنفَضُّ البشر من حولك.. سَتَعلَم يقينًا أن الله أرحم بك من أمِّكَ التي وَلَدَتك؛ ومِن أبيك الذي سانَدَك، ومن البشر أجمع.. سَيَغمُرُكَ شعورٌ عميق بالرِّضى؛ وَإحساسٌ صادِق من الإيمان بِاللُّطفِ الذي يُحيطُكَ دون أن تُدرِك".

رفعَت الورقة إلى جانب قلبها ثم مرَّرَتها على أنفها واستنشقَت رائحتها الزَّكيّة بِحُبورٍ بَدَأ يتسلَّل إلى ثَناياها، بالرغم من أنها ذاتُ الفتاة التي فقدَت والِدَيها بالأمس، شعرَت بالإنتماء إلى ذلك المكان الواسع بِما ضاق، فتاةَ الكتب كانت، وليدةَ السّطور والكلمات؛ وابنةَ الأوراق والصفحات، لم يكن ذاك المكان غريبا عنها رغم أنها تراهُ لِلمَرّة الأولى، المكتبات تحتضن ذاكرتنا بِرِفقٍ وتهمِسُ في آذاننا بِحَنِينِ رُفوفِها؛ وكأنها تدعونا لِنَغوصَ في بُحُورِها إلى الأبد، شعرَت أنها فتاةٌ من ورق، تذوبُ بين الكلمات، وتعيش في أبنِيَةِ الجُمَل.

وَضَعَت الورقة على الطاولة وَرَمَت القلم فجأةً ثم همسَت بِحَزم:

-حسنا.. سَنَرَى أوَّل مُؤَلَّفاتِ آبنوس..

مَدَّت يدها نحو الرّفِّ وأخذَت تُقلّبُ عينيها بين العناوين وهي تقرؤها بصوت مسموع:

-يقين.. هداية.. ساناز[7].. ما معنى ساناز؟

صمتَت قليلا وهي تفكّر ثم أضافَت:

-حسنًا.. فلنبدأ بالكتاب الأول..

جذبَت الكتاب ومسحَت على غلافه ثم قالت:

-تُرى.. ما الذي تُخفيهِ خلف كلمة "يقين" أيها الكاتب الحَذِق؟

فتحَت الصفحة الأولى وأخذَت تقرأ:

"قصةٌ هي.. خُلِقَت لِتُكتَب.. في مغارات عينيه كثيرٌ من الخَوَاءِ، بالرّغمِ من ذلك اللَّمعان الطَّموحِ المختلف بِهما، وكأنهما شمسان ساطعتان تصيبانِك بالعمى كلّما دَقَّقتَ النَّظَرَ إليهما.. بالعجز عن الكلام؛ تُمَرّرانِ رجفةً غريبةً بِجَسَدِكَ دون أن تنطقا بشيء غير الصمت الذي يُتقِنه؛ والابتِسامةِ التي يَحتَرِفُها كَرَسَّامٍ بارع يُحَوّلُ قَحطَ الأرضِ التي يعيش بها إلى جَنَّةٍ حين يَرسُمُ عليها.. بسمة، فَيَنبِض وجهه المصبوغ سُمرَةً بالبِشرِ وكأنَّما نقَلَت إليه الرياح نبأ خلود كل تلك الأرواح التي غادرَت أجسادَها المُمَزَّقَةَ في الفردوس وتصطَفُّ أسنانه قُبالةَ الألم بيضاءَ تُسفِرُ عن ابتسامة تحَدٍّ وكأنه يُخبِرُها أبدًا أن العناء لا يثني عزيمته؛ أن حلمه لا ينطفئ

---

[7] ساناز: اسم وردة ذو أصل باكستاني

تماما كأجنحته السوداء، حبر رقراق على ورق الحياة؛ يرفرف حاسمًا في موكب مهيب.. ليس به غيره؛ بِذِينك الجناحين عظيمَي المرأى، فَحمِيّي اللون، مُحَلِّقًا إلى المجد.. إلى ما لا نهاية؛ وهو الشابُّ الذي لم يَتَجاوَز السادسة عشر من عمره بعد.. يقين.. "

سمعَت فجأة صوتًا فاستدارَت نحو الباب المفتوح بفزع..

***

طَرْقٌ رَفيقٌ على بابِ غرفتها جَعَلَها تَتْرُكُ الكتاب الذي كانت تقرؤُهُ من يديها، قَطَّبَتْ جبينها بانزعاجٍ وصاحَتْ بطفوليَّة:

ـ مَن الطّارِق؟

ـ آنِسَتي..

أحَسَّتْ بالاِضطِرابِ الشديد؛ تسارعتْ نَبَضَاتُها وكأنّها خرجَت لِلتَّوّ من معركةٍ ضارية، شعرتْ أنّ هناك شيئا ما فقفزَتْ من السرير بسرعة وفتحَت الباب ثم لكَزَت الوصيفة بِمَرَحٍ لِتُخفي ارتباكَها وقالت:

ـ كَم مَرَّةً عَلَيّ أن أقول: لا تنادِني آنِسَتي، اِسمي نبرمان.. وأنا أُحِبُّه..

-لكِنَّكِ أميرة..

أغمَضَتْ عَينيها وقالت بِنَفَاذِ صبر:

-هل.. هناك فرقٌ بيننا يا مِيليا[8]؟

-نعم.. أنتِ أميرة.. وأنا وَصِيفَتُك..

---

[8] تصغير للإسم اللاتيني أميليا والذي يعني المرأة الكادحة السّاعية

-حَسَنًا.. اِعتَبِرِي نَفسَكِ صَديقتي.. هَلْ هناك فرقٌ بيننا الآن؟ أَوَلَسنا بَشَرًا مِن طينٍ لازِب؟ نحن سواسيةٌ في السَّماء.. تَذَكَّري ذلك يا ميليا، وتَذَكَّري أيضا..

ضَيَّقَتْ عينيها مازِحَةً وأضافت:

-اِسمي نبرمان؛ ولَيس آنِسَتي.

طَرقَتْ بِيَدِها على رأسِها ثم أردَفَتْ وكأنَّها تذكَّرَت للتوِّ شيئا مُهِمًّا:

-لكن.. ماذا هناك؟

أجابَتْ ميليا باحتِرام:

-مِرَاس يَطلُبُ رؤيَتَك..

شَخَصَت نَظَراتُها وابتلعَتْ غُصَّةً سَبَّبَتها لها تلك الكلمة التي اِبْتَدَأَت بِها الوصيفة حَدِيثَها؛ ليس من عادته أن يَطْلُبَ الحديث إلَيها، تمتَمَتْ بارْتِباك:

- ألَمْ يُخْبِركِ عن السبب؟

-قال إنّه سِرٌّ.. وَأوْصَاني ألَّا أُخبِر أحدًا غيرك.

أطرَقَتْ تُفَكِّر برهةً من الزمن وجبينها يَتَفَصَّدُ عَرَقًا ثُمَّ قالت بعد وقتٍ وجيزٍ بِاضطِرابٍ:

-حسَنًا.. أنا قادِمة؛ لكن، أين سأجِدُه؟

-في الحَدِيقة الأماميّة للقصر.

هَمَّت ميليا بالرَّحيل لكن نبرمان هَمْهَمَتْ تَسْتَوقِفُها:

-لحظة.. أيُمكنكِ الذهاب معي؟

نظرَت إليها بِاِستِغراب وقالت:

-لكن الحديقة قريبةٌ جدا من القصر!

اِرتبكَت نبرمان وزاغَت نظرَاتها حين لم تجد ذريعةً تقنع بها ميليا بالذهاب معها، لا يجدر أن تذهب لِلِقائِهِ بِمفردها؛ مِنَ الوارِدِ أن ترتكِبَ حماقةً ما.. أرادَت أن تجعلها تُلَبّي طلَبَها دون أن تشعر بالرِّيبَةِ تجاه شعورها نحو مراس فهَمَسَت بِسذاجة:

-لكنني أريدك أن تُرافِقيني.. أرجوكِ يا ميليا، فَلتَذهَبي معي.

ابتسمَت بِسرور وقالت:

-حسنا.. يا نبرمان.

-سَآتي فَورًا.

أغلقَت الباب ووقفَت أمام مرآتها الهائلة تَلُفُّ حجابها الأبيض حول رأسها كَزَهرَة مُتَوَّجَةٍ على أرضٍ مُقفِرة فَوَمَضَت صورة ناجود على انعكاسها وهي تقول وكأنها تُكَرِّرُ كلاما قالته أمس:

-ذاك الانكسار.. تلك النظرة اليائسة والضعف والارتِجافُ في صوتِكِ وأنتِ تُحَدِّثينه، تَخَلَّي عن ذلك، جبينكِ يتفصّد عرقا حين تكونين متوترة؛ أحيانا أشعر أنك ستذرفين الدموع في الحال!

مسحَت على وجهها وهمسَت:

-لن أكون ضعيفة بعد اليوم..

فتحَت الباب وتوجَّهَت رفقة ميليا إلى الحديقة، قَلبٌ ما.. يُصدِرُ ضجيجًا لا يسمعه البشر؛ يحترق مع كل خطوة تَخطوها صاحبته، وكأنه يقترب من الهلاك؛ دون أن يشعر الآخرون بحرارة اِحتِراقِه، لكنه مع ذلك يَستَلِذُّ عذابه الدائم ذاك.

رَأَتهُ من بعيد فشعَرَت باضطِراب شديد، وكأنها تَعبُرُ الصراط وتكاد تَهوي في ضَحضَاح ملتهب في الجحيم، اعتَلَت الدَّهشَةُ ملامحها حين لمحَت فراشة زرقاء تَستَكين على سبّابته، اقتَرَبَت منه

بسرعة وَمَدَّت يدها فَرَفرَفَت بِرِفق وانتَقَلَت إليها، نظرَت نبرمان إلى الفراشة باضطِرَاب وهي تتحاشى التِقاء عينيها بعينَي مراس الذي كان يرمقها باستغراب، صمتَت بُرهَةً من الزمن وكأنها تُحادِثُ تلك الفراشة اللامعة ثم نظرَت إلى مراس بِثبَات وهي تحاول مقاوَمَة الارتباك الذي تشعر به وقالت بِاندِفاع:

-أين هي؟

حملقَت ميليا في نبرمان بِبَلاَهَة وصاحت بِدهشة:

-تُكَلِّمين الفراشات؟

ارتبَكَت نبرمان وهَمَّت بالحديث لكن مراس قال مُجيبا لِيُخلِّصَها من الموقف:

-من قال ذلك؟ إنها تقصد قِطَّتَها المجنونة، أَلَيس كذلك؟

ابتسَمَت وهَزَّت رأسها تُسَايِرُه فأضاف:

-إنها في منزلي، عليكِ أن تُعَوِّضي اللحم الذي اِلتَهَمَتهُ في الليل.

صَمَتَت نبرمان بُرهةً من الزمن وهي تُصَوِّبُ عينيها البنفسَجِيَّتَين في وجه مراس الذي كان يبتسم بِسذاجة، يَحدث أن قلبين يَفهَمان كلام بعضهما بالرغم من أنه عاديّ بالنسبة للآخرين؛ تَتَلاقى رُموز المشاعر، وتُصبِح شيفرةً سِرِّيَّةً لا يعرِف حلَّ اِلتِواءاتِها غيرهما كذلك كانت ميليا تظن أنه حديث تافه بين أميرة ورئيسِ فُرسَانِ المملكة، لكنهما كانا يفهمان ما بين سطور الكلام؛ قالت نبرمان وهي تُطَاوِعُ مراس في حديثه الذي يبدو أبلَهًا:

-شكرا لأنك أمسكتَ بالفراشة قبل أن تهرب، لكن.. أيُمكِنني المجيء لاِصطِحابِ القطة؟

ضحك من طريقتها في الكلام وقال مُتَغابِيًا:

-نعم بالطبع، لن أستطيع تحمُّلَها يومًا إضافيًّا؛ لقد كانت تبكي.. أقصد.. تَخُور، أَعني.. تَموء طوال الليل، كما أنها خدشتني لذلك لم أستطع إحضارها معي..

حاولَت نبرمان إخفاء ضحكتها قَدر الإمكان فقالت ميليا وهي تبتسم بِغَباء:

-عليكِ أن تُقَلِّلي من تربية الحيوانات.. قِطَّتكِ تلك متوحّشة.

عَقَّب مراس على حديثها بِلُؤمٍ مصطنع:

-نعم، أوافقها الرأي.. دُيوك وفراشات وقطط وأطفال، أقصد.. وأبقار، أَهَذا قصر أم حضيرة؟

لم تستطع نبرمان إمساكَ نفسها من الضحك فأَخفَت وجهها بِيَدَيها وابتسَمَت بِلُطف، كان مراس متوترا.. مُرتَبِكًا جدا؛ يكادُ قلبه يصرخ بين أضلعه، ويقفز من مكانه؛ مَرَّرَ أصابعه على شعره النحاسيّ اللون وهو يحاول مُوارَاةَ توتُّرِهِ فِيما يُشيحُ بِناظِرَيهِ عن عَينَي نبرمان البنفسجيَّتَين، لاحظَت ارتِباكَهُ فأرادت التخفيف عنه؛ تَجَلَّدَت وأخفَت ضعف صوتها قدر الإمكان وهي تقول مُبتَسِمة:

-لكنني بالفعل لا أُرَبِّي دُيوكًا ولا أبقارًا.

ابتسم مراس فأماط اللِّثام عن أسنان لؤلؤيَّة تخترق وجهه الخمريَّ؛ اِستَدَارت نبرمان نحو ميليا وقالت بِمَرَح:

-سأذهب لِآخُذ قِطَّتي من منزل مراس.. لن أتأخَّر؛ أعتقد أنها ملتصِقَةٌ بالثُّرَيَّا كما تفعل كلما ذهبَت إلى بيته.

أغمَض مراس عينيه فجأةً وأخذ نفسا عميقا، رمقَته نبرمان باستغراب لكنه حاول أن يبدو عاديًّا قدر الإمكان فقال بعد أن استعَادَ قوة صوته:

-لا.. إنها في الثلاجة، أظنُّ أنها ستُصبح تمثالا جليديًّا إن لم تخرج بسرعة.

صاحت نبرمان مندهشة:

-أَوَضَعتَ الصغيرة في الثلاجة؟

لاحظَ مراس نظرة ميليا الحائرة فقال:

-أتَقصِدين قطّتكِ الصغيرة؟ لا. لقد دخلَت بِمَحضِ إرادتها هناك لحم في الثلاجة، لذلك هي فيها، لكنها لم تَعُد صغيرةً بعد الآن.. إنها عجوز.

وضعَت يدَها على رأسها وأغمضَت عينيها ثم استدارت نحو ميليا وقالت:

-حسنا.. سأذهب الآن يا ميليا.. يمكنكِ العودة للقصر يا قِطَّتِي أقصد.. يا صديقتي.

عادت ميليا أدراجها نحو القصر بينما تقدَّمَ مراس تتبعُهُ نبرمان وهي تقول وكأنها تتَذَمَّر:

-قِطتي في الغرفة.. ماذا لو خرجَت؟

-أخبريهم أنها قطة أخرى.. ابنتها مثلا!

توقَّفَ عن المشي فجأةً وضَيَّقَ عينيه قائلا:

-لَم تُخبِريني أن تلك الفراشات رائعة إلى ذلك الحدّ.

ابتسمَت وهَزَّت رأسها مُجِيبة:

-حتى القطة مدهشة، لكن علينا أن نكتُم الأمر.. أتَرى؛ كادت ميليا تكتشف أنني أفهم الفراشة!

-يجب أن يبقى ذلك سِرًّا حتى لا تعرف هيلدا، لن أُبالِغَ إن قلتُ أنني استأنَستُ بِسَماعِ الحيوانات في الغابة.

تابَعَ مراس مَشيَهُ فقالت نبرمان مَشدوهة:

-على ذكر الغابة.. كيف استطَعتَ الخروج في الليل، وفي جُنحِ الظلام.

تَنحنَح مراس بِزَهو مازِح وقال بخيلاء مصطنعة:

-لا تَنسَي أنني فارس.

ابتسَمَت وهي تحاول إخفاء الارتِباكِ الذي تشعر به وسألَت فجأةً باهتِمام:

-لكن.. أين الصغيرة؟

-في الثلاجة..

توقَّفَت عن المشي مُندَهِشَةً وفغَرَت فاها فاستَدَار مبتسمًا وأضاف:

-أمزح.. هل أنا غبيّ لِتلك الدرجة؟ إنها في سريري، رفقة أبي؛ لقد سَقَيتُها حليبًا بالأمس.

-يبدو أنك والِدٌ جيّد.. كيف تعتقد أن فتاةً في الثامنة عشر يمكنها رِعايةُ رضيعة لم تتجاوز شهرًا من عمرها؟

رفعَ حاجِبَيه ويَدَيهِ في حركة مضحكة وأجاب:

-وهل تَظُنّينَ أن شابًا في العشرين يمكنه فعل ذلك؟

رفعَت يدها نحو جانب قلبها وحاولَت أن تبدو متماسكة مجدّدًا ثم قالت بابتِسَام:

-نعم.. أنت لا تستطيع..

-٣-

تُقَى

مزيجٌ من اللون الأخضر والنَّارنجي يتماوج في سماءٍ زرقاءَ قبل أن تشرق الشمس بلحظات، وآخرُ أحمر على الأرض يَدوي رفقة أطنانٍ من الألم والموت؛ انكمشت تلك الصغيرة على نفسها وهي ترى ذاك الكم الهائل من الدِّماء، كانت بِتِلك البراءة التي منَعَتْها من تصديق مخلفات البنيان والهول الذي تشهده؛ اتَّخذتْ مكانا قصيًّا وجلست تصيح حين شعرتْ بغريزتها أن الخطر يقترب قرفصت على الأرض تحتمي تحت الدرج من نيران المدافع التي دوَّت في الأثير وأخذتْ تغطِّي على زقزقة الطيور؛ لمحتْ ظلاً يقف أمامها فرفعتْ رأسها ونظرتْ إلى صاحِبَتِه التي مدت يدها مبتسمةً ببراءةٍ وقالت:

-هيا انهضي..

وقفَت تلك الصغيرة والدموع تمنعُها من الرؤية فَمسحَت الفتاة عَبَراتِها وأضافت بِصمود:

-لا تبكِ.. هيا بنا..

-من أنتِ؟

ابتسمت الفتاة بإصرارٍ وأجابت:

-أنا تقى.. ما اسمكِ أنتِ؟

كفكفَت الصغيرة دموعها وقالت:

-اسمي سديم..

رفعت تُقَى رأسها وهي تُحَاوِل تجاهل صوت المدافع وطقطقة النيران وقالت:

-أين منزلكِ يا سديم؟

انفجرت عيون الفتاة مجددًا وجثَت على ركبتيها وهي تصيح متألمة:

-لقد انهار، احترق.. وماتت أمي في الداخل.

تلألأت عينا تقى بأسفٍ، وكأنها تكابد الألم الذي تعانيه؛ حاولت التخفيف عن تلك الصغيرة، أن تواسيها بالرغم من أنها أشد منها حاجةً للمواساة، شعرت أن قواها قد خارت لكنها حاولت أن تكون صامدةً قدر الإمكان حين انحنت واحتضنتها وهي تمسحُ على رأسها ثم قالت:

-لا بأس يا عزيزتي، كل ذلك مجرد كابوسٍ سينتهي.. أَتَرَيْن.. هذه الأصوات؛ وتلك النيران ليست إلا سرابا نسمع عنه بين الأنام ورمادًا لِخبرٍ تتقاذفه الألسنة.. أليس كذلك؟

حملقت الفتاة في اللهب والدموع عالقة بمقلتيها ثم همست بخفوت:

-صحيح.. لكنها مخيفة.

-لا بأس عليكِ يا سديم، سينتهي هذا الكابوس لا رَيب.

تنهدت تقى ثم أضافت بتماسك:

-فلنذهب..

-لكن أمي بالداخل!

انعقد لسانها فجأة وتلجلج صوتها ثم جثت على ركبتيها ودنَت نحو سديم وقالت مبتسمةً تقاوم رغبةً جارفة في الانفجار وقلبها يُعْتَصَر ألما:

-ماذا لو أخبرتُكِ أنها الآن في مكانٍ أفضل بكثيرٍ من هذا؟ ماذا لو عرفتِ أنها سعيدةٌ جدا في ذلك المكان يا سديم؟ وأنها لن تحزن هناك أبدا.. هل ستكونين مسرورةً لأجلها؟

رَمَشت الصغيرة وأجابت تقى بسؤال آخر:

-لكن.. لماذا لم تأخذنِي معها؟

عانقتها لتخفي دموع التأثر التي انسابت من جفونها وقالت:

-لقد اصطفاها الله يا صغيرتي؛ لا يمكنها أن تأخذكِ بعد، لكنك ستلحقين بها ذات يوم.

-هل تعرفين أحدا ذهب إلى هناك يا تقى؟

زاغت نظراتها ومرَّت بعينيها تلك المشاهدُ المفزِعَة على حين غرَّةٍ قبل أن تجيب وهي تطبع بسمة باهتة على وجهها الحنطي:

-نعم.. لقد غادروا جميعا إلى هناك..

-أهلك؟

-أجل..

صمتت سديم تفكر ثم أضافت بعد زمنٍ وجيز:

-لكن.. متى سيعودون؟

-لن يفعلوا يا صغيرتي.. سيعيشون هناك إلى الأبد!

-أريد أن أذهب إلى هناك يا تقى، أتعرفين الطريق إلى ذاك المكان؟ أريد رؤية أمي.. لماذا تركَتْني وذهبَتْ؟

-أخبرتكِ يا سديم.. ليس ذلك بإرادتنا، حين يقضي الله أمرا كان مفعولا؛ ليس للبشر إرادةٌ فيه، لن يمكنهم تغيير أي شيء من حقائقه.. مجبرون نحن على تقبُّله..

أخذت تقى بِيَدِ سديم ثم أردفت بعد أن وقفت:

-فلنخرج من هنا.. قد نحترق إن لامسَتنا النيران.

خطت بضع خطوات ثم وقفت ومسحت دموعها وقالت:

-تقى.. هل تركتِهم يذهبون دون أن يأخذوكِ؟

-لقد قاومتُ طبعا يا سديم، بكيتُ كثيرا.. أكثر مما تتخيلين؛ حاولتُ إطفاء النيران لكنني لم أُفلِح، بحثتُ عن شخصٍ ما ليساعدني لكن الجميع كانوا يَفِرُّون بأنفسهم من الحطام؛ لا أحد اكترثَ لأبنائه أو أهله؛ تهادى منزلنا واحترق فانهارت قوَّتي حين جلستُ أمامه أبكي على طول الليل لكن الدموع لم تنفع، لن يَرُدَّ الحزن قضاء الله، لقد عرفت ذلك بالفعل.. لِكُلِّ أمرٍ منه غاية وخلف كل ألمٍ لطفٌ ما؛ حكمةٌ لا نَفْقَهُهَا نحن البشر بمحدوديَّة فِكرنا.

سلكَتْ يدها في جَيْبِ معطفها ومرَّرت ذلك الكيس القماشي أمام عيني سديم التي فتحته وسألت بفضول:

-ما هذا؟

-تلك هي الذكرى الوحيدة التي أمتلكُها من البيت.. رماده!

توغَّلَت الفتاتانِ في الغابة فقالت سديم وهي تلهث:

-أيمكننا أن نرتاح يا تقى؟ لقد تعبت..

لم تنبس ببنت شَفَةٍ لكنها ألقتْ نفسها إلى جذع شجرةٍ بنفسجية وأشارت لها أن تجلس بجانبها ففعلت؛ مرَّت لحظاتُ صمتٍ طويلةٌ عليهما فتسلَّل النُّعاس إلى جفون سديم بينما تلاعبت الرياح بأوراق الشجرة البنفسجية فتناثرَتْ على شعر تقى الأشقر الممتزج مع اللون النحاسي وكأنها قاربٌ في لُجَّةٍ من قمح حملها هول النيران على المغادرة دون تغطيته، كان المنزل يحترق..

وكانت الناجيةَ الوحيدة! الآلام تنسينا كل شيء حين تقترن بالموت.. حتى أرواحنا تصبح همًّا بعيدا عنا آنَئِذٍ.

وقع رأس سديم على كتفها فانتبهت لِكَونها بدأت تتراخى وتنام نزعتْ معطفها وألقته بينهما فاحتضنتها بعد أن فتحتْ عينيها وكأنها تطمئن لوجودها بالقرب منها وقالت متمسِّكَةً بها:

-أحبُّك يا تقى..

-وأنا أيضا.. سديم!

أخذتْ تنظر إلى تلك الفتاة بإشفاق، بعض القلوب تهبنا الأمان حين نُلقي عليها سُترة آلامنا، بعض القلوب راحةٌ وسكنٌ لأجسامنا وهبةٌ من الله تعيد القوَّةَ إلى أرواحنا حين نرى تماسكها، القلوب أسرارٌ بين أصحابها وخالقهم، لا أحد يعلم ما بها غيره؛ مع ذلك.. بعضها تكمل الآخر، وتساندهُ دون أن تعلم ما ألمَّ به؛ لكنَّها تعرف أن هناك وجعًا ما ينتصفُ صدره، فتَعْذِره.. وتَجبُرُهُ لِتتمكَّن الأفواهُ من الابتسام رغمَ ما تشعرُ به، نحن كتبٌ مطوية.. ولِجَميعِنا همومٌ سِرِّيَّة، بيننا وبين الله الكثير؛ لذلك.. كما كتَب على نفسه الرحمة نرحم ضعف بعضنا، وكما كتب على نفسه المغفرة نغفر زلات بعضنا.. لمجرد أننا لا نريد فقدانهم..

كانت الغابة ظليلةً شبه مظلمة، حتى الشمس لم تجرؤ على إفساد لحظاتِ الراحة التي حظيتا بها، استسلمت تقى للنعاس أيضا فسكنت الرياح وصمت حفيف الأشجار، وعمَّ الدفئ أثيرها.

***

-لكن.. أين وجدتها؟

أجاب مراس بعفوية:

-على شجرة الجاكرندا، في الغابة..

-جاكرندا؟ كيف تبدو؟

أغمض عينيه وكأنه يحاول التهرب من طعنات قلبه بِتَخَيُّل ما رآه مجددا:

-شجرةٌ ضخمةٌ عريقة، متفرعةٌ ذات أوراقٍ بنفسجية ورائحةٍ طيِّبة..

قاطعته قائلةً بِدَهشة:

-بنفسجية؟ أريد رؤيتها..

-لكن الغابة بعيدةٌ يا نبرمان، و..

انتبَهَ لانتفاضَتِها حين ذكر اسمها، ابتسم باستلطاف حين غضَّت عينيها وشَبَكَت يديها بتوتر، حروف اسمها محبوبةٌ جدا بالنسبة له، قريبةٌ جدا إليه؛ وجميلةٌ تلك الكلمة حين تَرِدُ في حوارِه، كانت تُصِيبه برجفةٍ غريبة، وجيبٌ يجوبُ شِغَاف قلبه وينتقل نحو أضلعه، كيف بدأ ذلك؟ ومتى؟ لا يمكنه أن يجزم.. فقط كان يشعر بالتوتر في حُضُورِهَا، لِوجودها رونقٌ خاص ولِصَمتها لغةٌ أخرى، ربما كان يفهمُ كل لُغَاتِها، ويُحاكي الزهور التي تُشبهها، مجنونًا بها، ويعرفُ كل تفاصيلها دون أن تفصح عنها.. ثم.. وَجَدَ نفسه يردِّد في داخله بين الفينة والأخرى: أحبها..

تداركت الموقف وقالت بحزم:

-أود رؤيتها.

أراد تغيير مسار الحديث حتى يُمَوِّه عن الشجرة فقال وهو يخرج من جيبه خنجرا:

-أتذكرينه يا نبرمان؟

تنحنح باضطراب من تكرار اسمها مجددا فتجاهلت ذلك بصعوبة ورفعت نظرها نحو الخنجر ثم مدَّت يدها المرتعشة إليه وأجابت:

-لعله خنجر أبي؟

هزَّ رأسه فأضافت وهي تقلِّبُهُ بِغَير تصديق:

-قتل به الساحرتين سيعاء وعفراء بعد أن قتلتا أمي رحمها الله أمام عينيه، لم يحتمل ذلك، لكن كهمس انتقم لزوجته بعدها.. وقتل أبي هو الآخر.

وضع يديه في جيبه وزمَّ شفتيه آسِيًا حين انتبه لتأثرها وقال مواسيًا:

-رحمهما الله..

شعرت أنه عزاؤها الوحيد في عالم دائم الدوران، البشر الذين يُكِنُّون لك الحب والوِداد يَطْفُون على بحر مشاعرك الجميلة، أنتَ تشعر بهم حين يكونون بالقرب منك؛ يحاولون مواساتك كلما استَدْعَتْ تقلُّبَاتُك؛ ووحدهم يتقبَّلونك كما أنت.

كانت تشعر باليُتم والوحدة بالفعل، لكنَّ من كان الله معه فسيكون أُنسه حين يَبيد البشر، وسلامه حين تقوم الحروب وبالله يحيا، ومع الله يعيش؛ وبِدُعائه يطمئن راجيًا الإجابة، فيُرسل إليه من يُطفئ نيران قلبه ويكون له سكنًا.. يُرسل الشِّفاء على هيئةِ بَشَر..

خفَضَتْ رأسها بينما استمرَّ مراس في السير بِصَمْتٍ ثم قال فجأةً حين أَطَلَّ بابُ المنزلِ في مساحةِ الجدار:

-لقد وصلنا..

داهمَتْهُ نبرمان بسؤالها وكأنها تذكرت فجأة:

-هل الغِمْدُ معك؟

-نعم.. كنتُ أحتفظ به منذ أوصاني والدكِ بذلك، لكنَّ الخنجر سُرق آنذاك، لذلك احتفظتُ بالغمد على أمل إيجاده ذات يوم..

-وأين وجدته؟

ابتسم وهو يجيب في محاولةٍ لِتَبديد التوتر:

-كانت الفتاة معلقةً عليه إلى جذع الشجرة.

دخلت نبرمان إلى منزلِ مراس وحَيَّت والدهُ العجوزَ الذي كان يحمل الصغيرة بين يديه ثم قالت:

-إنها جميلة بالفعل..

ابتسم الشابُّ ووالِدُهُ وهما يقولان في وقتٍ واحد:

-عليكِ أن تَهَبيها اسمًا..

داولَتْ نظرتها بين مراس والشيخ رامان ثم همستْ بِغير تصديق:

-أنا؟

-نعم.. هذا من حقِّها، يجبُ أن تمتلك اسمًا، فأسماؤنا إشاراتٌ لأرواحنا.. وهي التي تحدِّد من نكون.

فكَّرَت قليلا ثم تمتمَت وهي تنظُرُ إلى وجهها:

-ساناز.. اسم مناسب!

اِمْتَعَضَ وجهُ رامان وزاغتْ نظراتُ مِراس وهما يردِّدان الاسم قبل أن يضيف بتأثر:

-تلك الحروف.. إنه اسم أمي!

قالت نبرمان مؤكدة:

-رحمها الله..

***

-تعالَي يا صغيرة.. هل أنت رُخاء؟

نظرت إليها ببراءةٍ وصاحت بعدوانيَّةٍ مصطنعة:

-أنا غيداء.

أطلَّت فتاةٌ أخرى من خلفِ ظهرها وقالت بمرح:

-بل أنا غيداء..

-أنتما توأمان؟

أجابت الفتاة التي تتحدث بلُكنَةٍ عدوانية:

-نعم.. أنا غيداء، وهذه الخرقاءُ خلفي هي رخاء.

-أنتما جميلتان.. تشبهان آبنوس كثيرا..

تبادلت الفتاتان نظرة عُجُب ثم قالت رخاء وهي تُضَيِّق عينيها:

-جميلتان.. ونشبه آبنوس.. أليس كذلك؟

شعرتْ أمان أن تلك الصغيرة تُلَمِّح إلى شيءٍ ما فتجاهلت كلامها وغيَّرَت مجراه بِسَلاسة:

-كم عمركما؟

أجابتا بصوتٍ واحد:

-خمس سنوات..

وطأت غيداء عتبة باب الكوخ وتقدَّمت نحو أمان وهي تقول:

-هل أنتِ زوجةُ آبنوس؟

فتحت عينيها عن آخرهما وأجابت مندهشة:

-ليس كذلك.. آبنوس ليس متزوّجًا يا صغيرة.

انزعجَتْ غيداء وصاحت:

-لستُ صغيرة.. لو كنتُ مثلكم لَكَان عمري عشر سنواتٍ الآن..

استغربتْ أمان لِحديثها فأضافت بِخُيلاء وهي تطالعُ غلاف كتابٍ ما على مكتب آبنوس:

-ما معنى هداية؟

همَّت أمان أن تجيب بعد أن ألقت نظرةً على عنوان الكتاب لكن رُخاء قالت بصوت بريء:

-قد تكون زوجة آبنوس..

رفعت حاجبيها وهي تردَّد:

-آبنوس ليس متزوجا.. لقد أخبرتك!

حاولت غيداء استفزازها فسألت وهي تحرك قدمها في شكل دائري على الأرض وترفع عينيها نحو أمان ببراءةٍ عاقدةً يديها خلف ظهرها:

-أتشعرين بالغيرة؟

توتَّرت واضطربت حروفها وهي تجيب بلطفٍ وتحاول ابتلاع ارتباكها:

-لقد استغربتُ فقط، أنتم هنا منذ خمس سنوات، لذلك من البديهي أن أعلم ما إذا كان آبنوس متزوجا أم لا..

تحدثت رخاء من أمام الباب بغموض:

-ومن أخبرك أننا نقصد أنه قد تزوج في وقتٍ مضى؟

حدَّقت أمان بينهما بِبَلاهةٍ فعقَّبت غيداء على كلام أختها:

-نحن لا نعلم الغيب طبعا، ولسنا ملائكة ولا رُسُلاً حتى يوحى إلينا من أمر السماء؛ نحن ندرك النوايا بما تظهره الطِّباع، كلُّ ما في الأمر أننا نعرف أخانا جيدا، وليس يخفى علينا ما يفكر فيه!

تقدَّمَتْ رخاء ووقفت أمام أختها ثم قالت بِدَهَاءٍ لا يتناسبُ مع سِنِّها:

-على كلٍّ.. زوجة آبنوس قريبةٌ منه، هي في قلبه.. وبين أضلعه لا تبرحُ تتغلغل في ثناياه.

رفعتْ رأسها نحو أمان التي أجفلتْ وأضافت:

-إنه يتألم.. الحبُّ ألم، خصوصًا حينما يكون وهمًا.. حين نُدرِك بطريقةٍ أو بأخرى أننا لن نَجْنِيَ منه غير شَوْكٍ يجرح ذاكرتنا نحاول جاهدِين أن نجعله يبدو سطحيًا قدر الإمكان، نحاول طمسه، وقمعه.. ونسيانه، لكن.. هل لنا نصيبٌ من التحكُّم في ذكريات عقولنا؟

بعثرت أمان كلمات أسفٍ في الأثير وهي تُكْبِرُ ما جاءَ على لِسان تلك الصغيرة:

-لكننا سنَنسى في النهاية على كلِّ حال؛ قد نتألم.. قد نَتِيه، قد نبكي ونَنْهَار.. لكن الطمأنينة ستحلُّ على أرواحنا حين يُرسل الله إليها سكنًا.. يجبر بخواطرنا، ويدفع الضرر على نفوسنا!

-لكنها ستبقى بالرّغم من ذلك.. تلك الثّقوب التي تُتْرَك في قلوبنا لن تَنْدَمل مهما مرَّت السُّنون، وقد تسبِّبُ لنا عاهةً مُستدِيمةً في مشاعرنا..

أرادت أن تقول شيئا لكن غيداء حالَت دون حديثها:

-صحيح.. هل ذهب آبنوس لشراء الأوراق؟

ابتسمت وأجابت بطيبة:

-نعم.. لذلك أنا في مكتبته.

نطقت الفتاتان في آن واحد:

-حسنا.. لدينا رسالةٌ له..

علَتْ وجهَ أمان أماراتُ الحيرة فأضافت رخاء:

-أخبريه أننا نجحنا في ملء بئر أبي..

هرولتا خارج الكوخ فاستوقفتهما أمان لكنهما لم تكترثا لنداءِها حملَت الكتاب الذي كانت تطالعه وآخر معه بين يديها وخرجت من المكتبة إلى الحديقة لتتقفَّى آثارهما لكنهما اختفتا وكأنهما تبخَّرتا فجأة؛ ضحكت أمان بخفوتٍ وقالت بأُنْس:

-مشاكستان!

أغلقت باب الكوخ وجلست على كرسيّ مثبَّتٍ إلى جذع شجرة الأَرْزِ تقرأ الكتاب الذي بين يديها باهتمامٍ شديدٍ متجاهلة ما حدث مع الفتاتين للتوّ، سمعت نحنحةً خلفها فاستدارت بفزعٍ ثم وضعت يدها على قلبها وتنهدت بارتياحٍ وقالت مبتسمة:

-تلك المكتبةُ رائعة.. من حقِّك أن تتَّخذ لها مكانًا في معزلٍ عن الآخرين.

هزَّ آبنوس رأسه وقال:

-نحتاج الوحدة حتى نستعيد بعض شتاتنا، والعزلة حتى نلملم فتات أرواحنا، وبقايا الألم التي تكسر أنفسنا، وشظايا الحب التي تجرح أجسادنا.

راقتها كلماته التي بدت قبسًا من كتاب.. لكأنها تراها مُسَوَّمةً على السطور تعبق بشذى الأوراق، تتذوقها عيناها بِنَهَمٍ لأنها كُتِبَت بِيَديه، ولُمِسَت بأنامله، ولامست شغافه حين أعاد قراءتها مرارًا.. الكاتب مرهفُ الحِسِّ لأنه يعطف على الكلمات؛ ويربّت على السطور، ولأنه قارئٌ أيضا.. والقارئ يحمل بين أضلعه قلبًا حانيا وروحا رثَّة، ومشاعرَ جياشة.. فكيف إذا اقترنَت الكتابة بالقراءة..

لاحظ شرودها فأضاف بحنينٍ محاولًا إظهار تذمُّرٍ مازحٍ على نبرة صوته:

-كما أن تلك الكتب كانت لِتَكون مجرَّد أوراقٍ باليةٍ لو لم أفعل ذلك..

هزَّ كتفيه واستأنَف بقلَّة حيلة:

-ماذا يفعل من كان لديه إخوةٌ صغار؟

-بالمناسبة.. أختاك لطيفتان جدا..

رفع حاجبيه وقال مستغربا:

-هل كانتا هنا؟

-نعم.. طباعهما مختلفة بالرغم من أنهما توأمان..

غضَّن جبينه وهو يصحِّح:

-لكن غيداء ورخاء ليستا توأمتين!

***

وضعت نبرمان تلك الصغيرة في غرفتها وأوصت ميليا أن تعتني بها ثم قالت وهي تغادر القصر على عجل:

-اِجعلي أمر وجودها سرًّا يا ميليا، هل آمنُكِ عليه؟

ابتسمت بحبورٍ وأجابت:

-طبعا.. أَوَلَسنا صديقتين؟

ربَّتَت نبرمان على كتفها وهمسَت:

-أثق بك.

عدَّلت حجابها الأبيض وتحسّسَت السِّهام والقوس خلف ظهرها ثم تسلَّلت خارج القصر بحذرٍ شديد وهي تحدِّث نفسها:

-عليَّ أن أرى شجرة الجاكرندا..

اخترقَت الشمسُ كبدَ السماءِ حين عَبَرت نبرمان بِقَاعَ الغابةِ باحثةً بين اخضِرارِها عن لونٍ بنفسجي بهيج، رفقة جمعٍ غفير من الفراشات التي تدُلُّها على الطريق؛ سمعت وقع أقدامٍ فالتفتت خلفها.. راودها الشكُّ وبدأ الخوف يتخلَّل هواجسها، كانت تشعر بنبضاتِ شخص قريبٍ منها، وكان مضطربا.. لكنها لم تجرؤ على الإفصاح له عن ذلك.. تماسكت ومدَّت يدها خلف ظهرها في تحفزٍ بينما تُواصل مسيرها مترقِّبَةً ظهور أيِّ شيء في أيَّة لحظة، خَطَت بضع أقدامٍ ثم أغمضت عينيها بِدَهَاءٍ وهي تحاول تحسُّس ما إذا كانت الحركة راكدةً أم لا، باعدَت بين قدميها وتقدَّمت بِجِذعِها حاملةً قوسها بعد أن وضعت به سهمًا، تغلَّبت على ذلك الشعور بالتردُّد وأرادت قهْرَه بقوة، المواقف الحاسمة تجعلنا أكثر تشجُّعا وإقداما؛ لأنها قد تكون الفَيصل في مَصائرنا.

صاحت بثبات وهي تصوِّب قوسها نحو مصدر الصوت:

-يمكنك الظهور.. لِمَ التخفِّي وقد علمتُ بوجودك..

انزلق جسدٌ قوي لشابٍ عشرينيّ فقذفت السهم دون تردُّد صاح ذلك الشاب يستوقفها:

-أنا مراس.. لا داعي للعدوانية!

اخترق السهم كتفه وانبثقت الدماء منه والتَصق بِجِذع الشجرة التي كان خلفها فتأوَّه متألِّمًا؛ شهقت نبرمان ووضعت يديها على فمها ثم أخذت الدموع مجراها على وجنتيها حين تناثرت دماؤه على صفحة وجهها الحليبيَّة اللون فقال مراس مبتسما بألمٍ وهو يغمض إحدى عينيه ويجذب السهم من كتفه بسرعة:

-قويةٌ.. حقا!

انهارَتْ على الأرض وشعرتْ بِرَجفة تسري بِجسدها، يحدثُ أنّ بعض الألم الذي نراه على وجوه من نحبُّ يدمِّر جدارا من التماسك الذي كُنَّا نغلِّف به أرواحنا.. الحب يجعلنا أكثر قوةً أمام الآخرين، لكن الأذى الذي يصيب سكان قلوبنا يحطِّم تلك القوة؛ أحسَّت بِرغبةٍ في الذوبان حين أشاد بقوتها؛ لا أحد يستطيع معاينة مقدار ضعفنا، وحده الله يهَبُنا الثبات؛ نحن هباءٌ دون عونِ الله..

داهمها دوارٌ قويٌ وإحساسٌ بالبرد القارس، وكأن مكعبا من الثلج انزلق على جسدها، شعر مراس بالذنب فتقدَّم بِصعوبةٍ محاولاً موارَاة توجُّعِه وانحنى نحوها فرفعت عينيها الدَّامعتين دون أن تنبس بِبِنت شفة، تلاقت نظراتهما قليلا فغارت عيناه في محجريه، كانت جميلة.. كلؤلؤة ملتفَّةٍ في حشمتها، كحوراءَ في خُدْرِها، أو شمسٍ داخل لِحافِ سماءِها، حتى الدموع.. كانت تزيدها.. جمالا.. بَدَت فَراشة نَديّة، وربما.. جنَّةً غنيّة.. استغرب لذاك الشعور الذي أخذ يؤلمه أكثر في كلّ مرة.. أهو التعلُّق؟ أينبغي عليه أن يبتعد حتى يقطع دابِر نفسه؟ تختلط الآراء داخلنا.. ويعلو الصراخ في نفوسنا، عليه أن يعرف قدر نفسه، فليبتعد الآن عنها

فليغادر.. هَمَّ بالاستدارة لكنه لم يستطع، رَاوَغَ قلبَه وبشدة.. هل هو.. يحب؟

نَفَضَ تلك الفكرة عن رأسه عندما أشاحت عنهُ تجنُّبًا لشحنة الارتباك تلك، مدَّ يده بالسهم وقال بعد أن أمسكَته:

-لقد قُدَّ قميصي، عليكِ إصلاحه حين نعود؛ فهو المفضَّل لَدَي.

زاغ بصرها وارتعشَت يداها وهي تقول:

-عليه دماء.. لقد جُرِحتَ يا مراس.

ارتجفت ابتسامة خافتةٌ على شفتيه وشعر بوجيفٍ في نبضاته حين نطقت اسمه بصوتها البريء فقال مُطَمئِنًا وقد راوده إحساسٌ عميق بالسعادة:

-لا بأس، إنها لا تؤلم.

-لكنها تنزف!

نزع قميصه ففغرت فاها بدهشةٍ لكنه قال بِبلاهة بعد أن مزَّق قطعةً منه ولفَّها بين كتفه وإبطه وأحكم ربطها بقوة:

-لقد أوقفتُ النزيف.. أيسرُّكِ هذا؟

-لكنك ستمرض..

أحسَّ بالامتنان لاهتمامها لأمره، وكأنه استلطف اكتراثها له الاهتمام يخلق لنا مع من نحب حصنًا يمنع احتراق الحب الذي في خوافقنا، فالحب يُذَكَّى بالاهتمام، ويَذْبُل بالإهمال مع الزمن.

ضَحِك بتهكُّمٍ وقال:

-نعم.. في شهر أغسطس.. وفي هذا الحرّ؟

تعجّبت من أسلوبه السَّاخر فصاحت بِغَضب:

-لقد كدتُ أقتُلُك.. ألا تشْعر بالألم؟

أغمض عينيه بقوة وأجاب بِغموض:

-ألم الجسد لا يُذكر إذا قورِنَ بِما في القلوب.. الكثير مِنَ المشاعر أكثر أثرًا مِنْ جروحِ الجسد السَّطحية..

سكَنَ هيجانُها وأسدَلَت رأسها فأضاف ساخرًا وهو يضرب على صدره:

-كما أنني.. وكما ترَين صنديد!

شعرَت بالخجل، والذنب والتوتر؛ لكن مراس حمْلَقَ في أشجار الغابَة والفراشات ثم قال في محاولةٍ لِبَعْزَقَةِ اضطرابها:

-هل تريدين رؤية الشجرة لذلك الحدّ؟

تجاهلت سؤاله وهمسَت بِحَرَج:

-لماذا تَبِعْتَني؟

ارتبكَ مراس وتململ في الإجابة فأردفَتْ بِإحباط:

-ولماذا كنتَ تَتَسلَّل؟

صمتتْ بُرْهَةً من الزمن وهي تُشِيح بعينيها عنه ثم قالت مجددا وكأنها تهاجِمُه بأسئلتها:

-أَوَتظُنُّني غيرَ قادرةٍ على حمايةِ نفسي؟ لقد عرَّضتَ نفسك للخطر.

تحاشى الحديث عن ذلك فَحَاوَلَ تغيير مسرى الكلام قائلا:

-الشجرة هناك!

نظرت نبرمان إلى الاتّجاه الذي أشار نحوه ثم ابتسمت وكأنها نَسِيَت بالفعل كلَّ شيء وقالت بحبور:

-حسنا.. فلنذهب لرؤيتها!

***

نظرت تلك الفتاة ذات العينين الرّماديتين إلى وجه الرجل الذي يقف أمامها بِفزعٍ حاولتْ أن تُدَارِيه وهي تستمع إلى صوته الأجشّ وهو يقول:

-آنسة هيلدا.. لقد هاجمنا المنطقة الغربيَّة..

التهبَتْ نظراتها وصوَّتت:

-أَوَجَدْتُمُوهُمَا؟

-ليس بعد، لكنَّ فَتَاتَيْنِ تمكَّنَتَا مِنَ الهرب، قد تكون إحداهما هي التي نبحث عنها!

-أبِد المنطقة الشمالية.. اِبحث عنهما في كل مكان.. عليكَ أن تقتلهما قبل أن يعودا إلى عالمهما، إن تمكنا من العودة فقد نعجز عن فصْلِ المملكتين!

صمتتْ قليلا ثم استدركت بِغلّ:

-الخنجر.. لن يُفلِح ذلك إلا باستعماله.

حدجَتْهُ بِنظرةٍ ناريَّةٍ تُخفي خلفها كثيرا مِنَ الرَّهبةِ مِنْ شكلِهِ القبيح فيمَا هو يثقبها بنظراته الضيّقة التي انبعثَتْ من عينين مشوَّهَتَين تخترقان وجهًا متقلِّصًا وكأن برميلاً من الزّيت الساخن قد صُبَّ عليه، تأرجحَتْ على أرجوحتها التي تمتد من عقدٍ لِأَزهارٍ شفّافةٍ مترابطة بِطريقةٍ لطيفة وزفرت بِحِنْقٍ وأضافت حين انتبهت إلى أنّه ينتظرها لاستكمال حديثها:

-حسنًا.. عليكَ أن تحضرهما على قيْدِ الحياة.. سنأسرهما حتى نجد الخنجر.

-ربما لم يأتيا بعد!

-سيفعلان اليوم.. أو غدًا دون شكّ..

تمتم كَهْمَس مؤيّدًا لِكلامها:

-يجب أن تنفصل المملكتان مجددا، وذلك لن يتمّ إلا إن ذَبُلَت أعدادٌ هائلةٌ من الهيدرانجيا.

-عليكَ أن تفعلها، مملكةُ الزجاج لا بُدَّ وأن تنفصل عن مملكة الضَّبَاب حتى يتسنَّى لي حُكْمُها، لا أعتقد أن قلب هايدرا سَيَبقى على قيد الحياة لو انفصلتا، كما أنه يكاد يكون العَقَبَةَ الوحيدة التي تَحُول بيني وبين الحُكم.

رفع كهمس عظْمَتَي حاجبَيْه الخاليَتَيْنِ من الشَّعْرِ وقال بِصوتٍ يَقطُر شرًّا:

-ماذا لو اِلْتَأَمَ القلب مجدّدا، واختار نبرمان؟

قاطعته بغلظة:

-سَأقتُلُها!

لمحتْ هيلدا جسدًا ما يتقدم نحوها فقالت بِسرعة:

-يمكنكَ الذهاب.. هناك أحدٌ قادم.

تلاشى كَيَانُ كهمس في الأثير وكأنه ضبابٌ يَمُوجُ في طَبَقاتِ السَّماء في حينِ تقدَّمَتْ تلك الوصيفةُ فَرَمَقَتْها هيلدا بِعُنْجُهِية وقالت:

-ماذا هناك يا ميليا؟

-آنسة هيلدا.. لقد أحضرَتْ نبرمان هذا الصباح فتاةً صغيرةً تقول أنها وجدَتها في الغابة مُعَلَّقةً إلى شجرة.

ضَيَّقت عينيها وقالت بِدَهاء:

-هكذا إذن..

***

-لكنني رأيتُهُما قبل قليل، لقد قالتا أنهما توأمتان، وأنّ عمرهما خمس سنوات.

ضَيَّق آبنوس عينيه وسأل بِاهتمامٍ وَقَد بَدَا التَّوَتُّر على نَبْرَةِ صوته:

-ألم تَقُولا شيئا آخر؟

طأطأت أمان وقبضَتْ يَدَها إلى صَدْرِها وهي تقول بِحُزن:

-كانتا تتحدثان عن زوجتك و..

قاطعها قائلاً وكأنَّه يَنْفِي جُرْمًا أُتُّهِمَ به:

-لكنني لستُ مُتَزَوّجًا!

-نعم.. أعلم، قَالَتَا إنّها..

صمتتْ قليلا ثم تنهَّدَت ونقلَتْ ناظِرَيها نحو شجرةِ الأَرْزِ فوق رأسها وهي تُضيف:

-لا تشغل بالك بِذلك، فهناك شيء أهَمّ!

هزّ آبنوس رأسه ليحفِّزَهَا على الحديثِ فأردفَتْ:

-تحدثتا عن بِئْرِ والدك أو ما شابه، تقولان إنهما تمكَّنتا من مَلئِه، وقد تَرَكَتَا هذه الكلماتِ رسالةً لك..

خرَّ على ركبتيه فجأةً في غير تصديق وارتعشَتْ شفتاهُ وهو يقول بِتَأثر:

-مَلأَتا البئر..

-لكنَّك قُلتَ أنهما ليستا بأختيك لأنهما توأمتان!

-ظننتُكِ تقصِدِين اللَّتَيْنِ على قيْدِ الحياة.

اقشعر جسد أمان ووقَّعَتْ كلماتِها بِحَذَرٍ شديد:

-هل تقصد أنّ تِينْكَ الفتَاتَيْنِ قَد..

تماسَك وهو يُحاول إبعاد نظراته عنها قدر الإمكان فاستدركتْ مُتجاهلةً مَا كانت تودُّ قولَه:

-هل حدث ذلك قَبْلاً؟

قاطعها بسؤال بِالكادِ تمَكَّن مِنْ لَفْظِ كلماتِه:

-ألم تتحدَّثا عن شيءٍ آخر؟ خمسُ سنواتٍ مثلا..

-بلى.. قالت غيداء أنهما لو كانتا مثلنا لكان عمرُهُما الآن عشرَ سنوات.

ازْدَرَدَ آبنوس رِيقَهُ وقال مُتَوَجِّسًا:

-يبدو أن ذلك سَيَحْدُثُ مُجَدَّدا!

-ماذا تقصد؟

انتصبَ واقفًا على حين غَرَّةٍ ومَسَحَ جَبِينَه الذي يتصبَّبُ عَرَقًا وأجاب:

-لقد تُوُفِّيَ أبي منذ سَنَتَينِ يا آنسة أمان..

رفعَتْ رأسَها تَزَامُنًا مع نُطقِه لِاسمِها، شعر بالاضطراب حين تعانَقَت نَظَرَاتُهُمَا لِبَعضِ الوقت، كانا يتقاسمان نفس الوجع؛ لكنّ جُرْعَتَها كانت مُضَاعَفة، قبضَتْ يَدَها وقالت وكأنَّها تخفِّفُ عنه:

وَمَنْ نَزَلَتْ بِسَاحَتِهِ المَنَايَا

فَلَا أَرْضَ تَقيهِ ولَا سَمَاءُ

تنهَّد وأضاف على كلامها:

وَأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ ولَكِن

إِذَا نَزَلَ القَضَا ضَاقَ الفضاءُ

انبعجَتْ من فَمِه ابتسامةٌ لطيفةٌ وهو يُضِيف بِأُنس:

-في الواقع.. غيداء ورُخاء قد توفِّيَتا قبل خمسِ سنوات، أثناء الهجوم الأول لِكهمس وجنودِه على المنطقة الجنوبيَّة؛ وانتَقَلْنَا إلى هنا بعد وفاتهما تماما، أنجبت أمي فتاةً أخرى سمَّتها رخاء، وهي الآن ابنةُ سنواتٍ أربع، ثم غيداء وعمرها الآن ثلاث سنوات.. تَعَمَّدتْ مَنْحَهُمَا اِسمَي التوأمتين حتى لا تنساهما، فنحن فُطِرنا على النِّسْيَانِ والتَّنَاسِي.

شعرتْ أمان بالفزع مِمَّا تسمع فسألت بِفُضولٍ يمتزج مع ذلك الخوفِ الذي يَبْدُو على عينيها:

-وما بال البئرِ الذي أَفْلَحَتا في مَلْئِه؟

تنهَّد آبنوس وقال بِشفافية:

-كنتُ ذاتَ يومٍ أصطحِبُهُما في رحلةٍ وأنا ابنُ ثمانيةَ عشرَ عامًا توقَّفْنَا لِنَرْتَاحَ عِنْدَ بئرٍ في منطقةٍ نائية؛ وكانتا تسألان عن كلّ شيء تَرَيَانِه بِطَبْعِ فُضُولِ الطُّفولة، لاحظَتَا أنَّ المكان مهجورٌ فَسَأَلَتَانِي عن السَّبب فقلتُ أن البئر الجافّ أرْغَمَ السُّكَّانَ على الرَّحيل حينها شعَرَتا بِالحُزْنِ وطَلَبَتَا مِنّي بعضَ المياه فأعطَيتُهُما، سَكَبَتَاها في البئر لكنهما عادتا إليَّ باكيتَين بِحُجَّةِ أنَّها نَفَدَتْ إلى داخِلِ التُّربة؛ أردتُ حينها أن أُهَوِّن عليهما فنظرتُ إلى قاعِ البئر وأخبرتهما أن هناك حَلاً وحيدا لإعادة الماء إليه، وأنه ليس مضمونًا بالإضافة إلى أنه مُرْهِق؛ شعرتا بِحَمَاس تلاشى حين أضفتُ أنَّ الطَّريقة تقتضي أن نقوم بالحفرِ حتى نَجِدَ رطوبةً داخل التربة؛ فقالت غيداء أننا لن ننجح في ذلك لِوَحدنا.

-ولكن ما علاقةُ ذلك بوالدك؟

-قلتُ لهما حينها: هذا البئر يُشبِه قلوبنا التي نُولَد بها رطِبَةً نَدِيَّةً بِفِطْرَتِها، نَقِيّةً طاهرةً بِجُبلَتنا، ثم تلوّثها الذُّنوب وتجفّفها المعاصي حتى تُصبح نَاشِفَةً قاسية، فينفضُّ الناس من حولها ويهْجُرُوَنها؛ ولن يتمكَّن أحدٌ من مَلْئِهَا إلا بِشَقِّ الأنفس، تِلْك القلوب قد تزلُّ وتُخطئ، قد تُذنِبُ وتسقُط؛ لكن سِترَ الله الذي يكتَنِفُها يَحفظ علاقتها وقُربها مِن البَشَر، القلوب النَّدِيَّة الحيَّةُ هي التي تعودُ بعدَ كلِّ خطإٍ تَطرقُ أبواب السَّماء بِتَوْبَتِهَا عِنْدَ كُلِّ زَلَّة، فتحفظُ مكانتها عندَ الله وعبادِه، وتلك الجافيةُ القاسية؛ أو التي تتركُ نفسها للضَّيَاع تستمِرُّ في الغوصِ نحو عمقِ الرَّذيلة حتى يهجُرَها العِباد ويطردها الله من رحمته مذمومةً مدحُورة، فتَتلاشى حسناتُها وَيَحِلُّ القَحْطُ عليها.

دارت الرياح قليلا وزفرت فقُلقِلت شجرةُ الأرْزِ بِقُوّةٍ واصْطَفَق حجابُها القاتم كالصَّرِيمِ فشعرتْ بارتياحٍ عميق، أحسَّت به يحيط قلبها لا جسدها.. يمنع روحها من الانفِلاَت والسُّقوط في هُوَّة الذنوب، شعرَتْ أن حِجَابَها عصمةٌ لها من الخَطَايا، كُلَّما شارَفَتْ عَلى الانْزِلاقِ يَرفعها ويُنَزِّهُ قلبها من الدَّنايا..

تمتمَت معَقِّبةً على حديثِه بِتفَهُّم:

-نحن مُجْرِمُون لولا سِتْرُ الله، مُذنِبُون لولا غُفرانُه، ضائعون لولا رحمته.. ومُبْلِسُون لولا نِعمَتُه..

التَقَطَ آبنوس نَفَسًا آسِفًا ثم قال بِانْكِسار:

-لعلَّكِ لا تعلَمين أن أبي رحمه الله كان محاميًا غير مُنْصِف، لم يَهُمَّهُ دفاعٌ عن حَقٍّ أو باطِل؛ وقد رأيتُهُما في مَنَامِي بعد وفَاته بِوَقتٍ وَجِيز، قَالَتا إنَّهُما سَتُحاولان مَلْء بِئْرِه الجافّ، لم أفهم في بدايةِ

الأمر، كنتُ فزعًا بِشِدَّة؛ رأيتُ وجْهَيْهِما يَشِعَّان نورًا، والدِّماء تنحدرُ من جبْهَتَيْهِمَا؛ لكنَّني عرفتُ مقصدَهُمَا حين عَرَضَتْ لِي تلك الحادِثة، اختفى ساناز بعد ذلك.. وحدث أمرٌ مُشابِهٌ لما قصصتِهِ علَيَّ قبل قليل.

طرقت أمان على رأسها تُحاول تذكُّر تلك الحروف ثم قالت:

-ساناز؟ الكتاب الثاني على الرّفّ؟

هَزّ رأسه وأجاب:

-النسخةُ الأصلية اختفت.

-لكن ما الذي تعنيه بِتِلَك الكلمة؟

-ساناز هي امرأةٌ طيّبةٌ تعيش مع زوجها الذي وُلِد كَفِيفًا في رضى تام، وقد أحبَّته بالرَّغم من أنها على قدرٍ كبيرٍ من الجمال، أنجَبت منه طفلًا يشبهها تمامًا فأسمياه مراس، هناك أسطورةٌ تَقول أن الكُتُب التي تختفي؛ يتحوَّل أبطالُها إلى أُناسٍ حقيقِيّين، لو كان كذلك فَمِراس الآن موجودٌ في عالمنا لكنَّه لا يعرف أنه لا ينتمي إليه، أما ساناز فقد توفِّيَت منذ عامٍ ونصف وبقي يعيشُ مع والده.

قالت أمان:

-إذن.. كلُّ من يغادر عالمه إلى هايدرا يَنسى كل ما مرَّ به من قبل؟ أي.. يفقد الذاكرة؟

-قد يفقِدُ ذاكرته أو جزءًا منها، وقد لا يحدثُ ذلك أبدا.

-وهل يمكن أن يَعود إلى عالمه مجدّدا بأيّ طريقة؟

-في حالَتَين فقط: إن هو قام بِعَمَلٍ عظيم، أو أعادَه شخصٌ ما عُنوةً..

شعرت أمان أن الكتابَين اللذين تحملهما بين يديها يَهْتَزَّان فوضعَتهُما بِفَزَعٍ على الكرسيّ بجانبها، ومَض فجأةً نورٌ أزرقُ مِنْهُما ثم تحرَّكت أوراقهما وارتفعا في الهواء فهبّت عاصفةٌ قوية وانفلقَت من العَدَم فجوةٌ زرقاءُ اللون تتآكل وتلتهِمُ معها صفحاتِ الكتابين ورقةً ورقة، اِخْتَفَيَا وسطَ دهشَةِ كلٍّ مِن أمان وآبنوس الذي صاح فَوْرَ أن رأى ذلك:

-مُصيبة.. لقد ظهرا، حدث ذلك مجددا!

-ماذا تقصد؟

-يقين وهداية، إنّهما هنا الآن، لقد حضرا إلى هايدرا.

-وما المصيبةُ في ذلك؟

-هناك من يسعى لِقَتلهما..

***

في رُبوعِ الثانوية الكبيرة، عمَّ الهَرجُ والمَرْجُ وارتفعتْ أصواتهم وهم ينادُون على ذاك الفتى، التفتَ أحدُهُم نحو شابٍ أسمر طويلٍ وقال:

-أمير.. هل أنتَ متأكِّدٌ أنَّ يقين كان هنا؟

صوَّت مجيبًا بِعصبيَّة وتَوَتُّر:

-لقد كان معي.. الآن، ثم ابتلَعَته فجوةٌ زرقاء والتأمَت وكأنَّها لم تكن.

-مشكلة.. لدينا امتحانٌ اليوم!

-جرِّب أن تتّصل به.

-قمتُ بذلك بالفعل.. هاتفُه خارج التغطية.

-فلنذهب إلى منزله!

مرَّر أمير أصابعه بين خصلاتِ شعره وقال بِقلق:
-أفضِّل أن نذهب إلى إدارة الثانوية ونَتَّصل بأهله.
-قرارٌ سديد!

***

-هِداية.. هل أنت مستَعِدَّة لِاجْتِيَاز الشهادة؟ نحنُ على العَتبات، شهران يفصِلاننا لا غير!
ابتسمتْ بإصرارٍ وقالت:
-بالطبع، نحن لها يا سُلَيمة!
صفَّقَت تِلك الفتاةُ بِحُبُورٍ وقالت:
-سَنَنْتَقِلُ إلى الثَّانوية العامَ المقبل، شيءٌ يدعو إلى السُّرور بالفعل، أفكِّر في الالتحاق بالثّانوية الكبرى..
نقلَت هداية ناظرَيها نحو النافذة هامسةً:
-سأدْرُسُ حَيْث يقين بكلِّ تأكيد..
قطّبت سليمة جبينها وصاحت بِمرح:
-أخوك ذاك غريب الأطوار؛ يبدو مِن مرضى التوحّد بالرغم من أنه ذو شعبيةٍ لا بأس بها.
-اِخفضي صوتكِ.. لماذا تصرخين؟
-نحن وحدنا هنا..
-أذني تمزّقَت من صياحِك..
تناهى إلى مسامعهما صوتُ الجرس فقالت هداية دون مبالاة:
-لقد أوشكت فترة الراحة على الانتهاء، علينا الذهاب..
-فلنبقَ هنا.. لا ضَيْر!

وضعت يدها على خصرها وضيَّقت عينيها وهي تقول بِمرحٍ في حين تَخنُق نفسها بِيَدها الأخرى:

-أريد أن أتنفس.. سأختنق من الكآبة.

خرجتْ سليمة من القسم وانتظرت هداية أمام الباب لكنّها سمعت صيحةً خافتة فأسرعتْ عائدةً إلى الداخل.

فجوةٌ زرقاءُ تتآكل في الجوِّ ثم تلتهمُ هداية مُسَبِّبَةً بِرياحها العظيمةِ فوضى عَارِمَة، صاحت سليمة بِفزعٍ وهرولتْ نحو صديقتها لكن الفجوة ابتلعت نفسها وتلاشت تاركةً خرابًا مُلِمًّا.

***

التفَّتْ نبرمان حول الشجرة وهي تقول لمراس:

-هل كان الخنجر مغروزًا هنا؟

-نعم.. في الجهة الخلفية لِجذعها.

لمحتْ ظلا يقف على جانبٍ ما من الشجرة فأطلت ناحيته استدارت تلك الفتاة نحوها ثم ابتسمت بعينين دامعتين وأشاحت بوجهها وكفكفَت عَبَراتِها، أنزلتْ نبرمان ناظرَيها نحو الأرض فرأتْ فتاةً أصغرَ متدثِّرةً بِمِعطفٍ بَنَفسجيٍّ بهيج، وعلى وجهها المُتْعَب بسمةٌ ساحرةٌ بريئة، شعرت بالألم حين لمحت ذلك الطّيف الأسود يقف بجانبها فتقدّمت نحو الفتاة المُسْتَنِدَةِ إلى الجذع وقالت باكيةً بينما يقف مراس بعيدا عنها مستَغرِبا:

-هل هي أختك؟

هزّت رأسها نافيةً فتنهّدت نبرمان وأضافت بِحذر:

-لقد..

قاطعتها تلك الفتاة قائلةً بِحزن:

-ماتت..

-أَتَرَيْنَه؟

نظرت إليها بتعجُّبٍ وانتظَرَتْها لِتُضيف فأشارت نحو الطيف الأسود الذي بجانبها؛ أجابت الفتاة حين فهِمت مَقْصَدَهَا:

-نعم.. الطيف!

-ما اسمك؟

-تقى..

-ماذا حدث يا تقى؟ لماذا أنتما هنا؟

-لقد دُمِّرَت مَسَاكِنُنا..

صاح مراس فجأةً بِغَضَبٍ جارف:

-لماذا؟

-لا أعلم.. كل شيء كان هادئا حتى اللّحظة الأخيرة، نحن مُسالِمون، لا نعرف للحرب سبيلا ولا سببًا، حتى المِئات من البشر المُكَدّسين على نهرٍ من دِمَائِهم قد ماتوا دون أن يعرفوا السبب، لا أحد يعلم بأيّ ذنب قُتل.. لازالت الأجساد ممزقةً مرميَّةً على الأرض، وكل ذلك حدث فجأةً دون مُبَرِّر..

وقفت نبرمان فَحَمل مَراس سديم وقال بِحِنق:

-ربما كهمس..

انتفضَت وصاحت:

-لكنه في السجن؟!

-ربما له عملاء يخدمونه في الخفاء، ربما هرب دون أن نشعر.. لا يمكنني أن أضمن أن جنودي جميعهم مخلصون..

تمتمت باستِهجان:

-الهرب من سجن الجبل شبهُ مستحيل.. لن يتمَكَّن شخصٌ عادي من تحريره.. إلا إذا كان ذا مكانةٍ في المملكة!

قدَّمت المعطف إلى تقى وأضافت:

-اِرتدِه..

ابتسمت نبرمان بِترحيبٍ وقالت بانكسار:

-يمكنكِ المجيءُ معي يا تقى..

ألقت عليها نظرةً بريئة بعينيها البنيتين الزُّجاجيتين وقالت باستغراب:

-إلى أين؟

-إلى القصر..

قطَّبت جبينها وتحوَلت نظراتها وصوتها إلى العدوانية وهي تصيحُ بكراهية:

-أشكرك.. لا أريد أيتها الأميرة!

تبادلت نبرمان مع مراس نظرة استغراب وقالت:

-ماذا دهاكِ يا تقى؟

هدّأت من حدة عصبيّتها وأجابت:

-سمعتُ رجلا يأمر الجنود الذين أبادوا السكان بالبحث عن أخوين وأخذِهما إلى الأميرة.

قال مراس ونبرمان بِنفسٍ واحد:

-هيلدا!

***

لَكَزَ ذاك الفتى أخته بعد أن أفاق من نومه وهمَس:

-هداية.. استيقظي، أين نحن؟

فتَحَت عينيها ببطءٍ ثم صاحت بانفعالٍ حين تبيَّنَت ملامحه:

-يقين.. لقد ابتلعتني فجوةٌ زرقاء.

-نعم.. أنا أيضا، لا أعلم من أين ظهرت.

-لكن.. أين نحن؟

ألقى نظرةً إلى خارجِ المنزل الذي وجدا نفسيهما فيه عبر نافذةٍ صغيرة أقصى الغرفة وقال:

-ربما انتقلنا عبر الزمن.. أو إلى بُعْدٍ آخر من الحياة، أو قد نكون داخل كتابٍ ما أو في مكان آخر من العالم لا غير.

قالت هداية بعد أن وقفت أمام النافذة بجانب أخيها:

-هناك كهرباءٌ هنا، هؤلاء البشر.. ملابسهم غريبة، كما أنهم يبدون..

-غريبي الأطوار؟

حملقَت في يقين باستغراب وقالت:

-ماذا تقصد؟

هزّ كتفيه وأجاب باقتضاب:

-أرى شيئا غريبا هنا، ليسوا بشرًا فقط.. هناك خطبٌ ما في هذا المكان.

دقَّقتْ النظر في الشارع وبين وجوهِ سكانه ثم قالت بِحِنْكة:

-الأطياف؟

-إنها تظهر بين الحين والآخر.. عددها كبيرٌ جدا!

-هل نخرج يا يقين؟

نظر إليها مُستَهجِنًا وصاح:

-أأنتِ مجنونة؟ سأخرُجُ بمفردي لأستطلعَ المكان.. أما أنتِ فلتبقي هنا.

شعرتْ بالضيق من كلامه فقالت بفُتور:

-سأذهب معك أينما وطأت قدماك، لن تتحرك من هنا ما لم أكن معك!

فتح عينيه البنيّتين عن آخرهما وقال بقلة حيلة:

-ماذا سأفعل؟

أجابت هداية في محاولةٍ لاستفزازه:

-أُدْعُ الله أن يخلصك مني..

انزوَت بِفَمِه ابتسامةٌ أضاءت وجهه الأسمر ثم ضربها على كتِفِها بِقَبضته مُمَازحا وصاح:

-هل أنتِ متأكدةٌ من أنك فتاة؟

أغمضت عينيها وقالت بِبرودٍ وهي تبتسم:

-أحيانًا أشعرُ أنّي رجل.. من يدري.. ربما كنتُ كذلك فعلا!

وجَّهَت إلى كتفه لكمةً قويَّةً وأضافت حين وضع يده على مكان الضَّربة متألِّمًا:

-وهذا رَدٌّ على قبضتِكَ تلك..

قال يقين فجأةً لائِمًا:

-لو حَدَثَ وانْتَقَلَتْ أيُّ فَتَاةٍ أخرى من عالمِها إلى مكانٍ آخر لا تعرفه لَكَانت تبكي الآن..

-لكنني لستُ فتاةً أخرى، أنا هِداية.

-ماذا عن الشهادة؟ والثانوية؟ والمستقبل الطِبّيّ الواعد؟

نظرت إليه باستغراب وقالت مشدوهة:

-هل تعتقِدُ أننا سنبقى هنا إلى الأبد؟ ثم.. لكل شيء موعده!

-وما الذي يضمن أننا سنعود؟

-ماذا تقول؟ فكِّر فيما يحدث الآن.. في أمي، وأبي.. وإخوتنا أحمد؛ والتوأمين زكرياء وإبراهيم، هل يمكنكَ أن تستغني عنهم؟ هل تستطيع العيشَ دونهم؟

عبثَتْ بِأَعصابه شحنةٌ من التوتُّر فجأة ولكنَّه حاول أن يخفِّف من حِدَّة صوته وهو يقول:

-أنت تعاتِبِينَنِي وكأنني فعلتُ ذلك بِمَحْضِ إرادتي، أنا مِثْلُكِ.. لا أعرفُ شيئا حتى الآن.

سَلَكَ يقين يَدَه في جَيْبِهِ وأخرج هاتفَه وكأنَّه تَذَكَّر فجأةً فَفَعَلَتْ هداية مِثله وقالت:

-سأحاول أن أتصل بأمي.

هَزّ رأسه وهَمَس:

-سأكلِّم أمير وأخبره بما حدث، لدينا امتحانٌ مهمٌّ الآن..

حاوَلاَ الاتصال لكن المكالمة كانت تنقطِعُ قبل أن تَصِل، تبادلا نظرةً ذات مغزى قال يقين على إثرها:

-سأحاولُ الاتصال بكِ لأَتَأَكَّدَ من أنّ هواتِفَنا تحتَ التَّغطية أولا..

غمرَتْهُمَا لحظةُ صمتٍ ثقيلةٌ مَزَّقَها صوتُ رَنِينِ هاتِفِ هِدَاية التي صاحَتْ بِدَهْشَة:

-لقد نَجَحَ ذلك!

وثَبَ يقين من فِراشه بِحماسٍ وقال حين وَضَع يَدَيه على سُتْرَتَين طويلتين معلَّقَتين بِبَابِ الغرفة المفتوح:

-ارتدِ واحدة.. هناك من يرتدي مثلها بالخارج، علينا ألَّا نَلْفِتَ الأنظار.. ولْنَبْقَ على تواصلٍ إن ضَلَّ أحدُنا الآخر، يجبُ أن نجِدَ حلاً لِلعودَةِ بِأقصى سُرعة!

خرَجَا من الغرفة وأخذا يتجَوَّلان بالمِنزِلِ الذي كان فارغًا بالرّغم من أن مظهره وأثاثه لا يُظهِران أنه مهجورٌ أو ما شابه، سمِعَا صوت طقطقةٍ دافئًا فاتَّجها نحو مصدره يَهتَدِيَانِ برائحةٍ زكيّةٍ نفدَت إلى أنفهما، ازدردَت هداية ريقها حين أطلّت على المطبَخ وهمسَت:

-إنه خالٍ أيضا..

-هناك قدرٌ يغلي.

-لكن.. أين أصحابُ هذا المنزل؟

أطفأ يقين الحَطَب المُتَّقِد فتقدّمت هداية وحملتْ المِلعقة الخشبِيّة التي بِجانبه ثم قرَّبت قليلا من الحَساء بواسطتها نحو شفتيها فزَجَرها يقين قائلا:

-قد يكون مسمومًا، نحن لا نعلم ماهيّة شيء هنا، لا يمكننا أن نَثِق في شيءٍ بعد!

-٤-

ماذا عن الكتب؟

شعرت أمان بالحيرة وهي تسأل آبنوس الذي بدا عليه التوتر والقلق:

-لكن.. كيف يمكن لِشخوصٍ مأسورة بين السطور أن تتحوّل إلى حقيقة؟

-بعض الأوهام تكون واقعا دون أن ندرك، الحقيقة التي نعيشها تبدو رحلةَ ميتافيزيقا بالنّسبة للآخرين، بينما نظنّ أنهم مجرّد حبرٍ على ورق، لكلٍّ مِنَّا روح ونفسٌ وجسد ومع ذلك قد نكون شخوصًا لِروايةٍ ما، مأسورينَ داخل أحداثها، ومأخوذين بغرابة وجودنا فيها بطريقةٍ ما.

-لا أظن ذلك، نحن نشعر.. ونتنفس، ولدينا قلوبٌ تنبض.

-تلك الكتب مرهفةُ الحِسّ أكثر من البشر، وصادقَةٌ كما القلوب النّقيّة.

-كيف يمكن أن نكون أسرى لأحداثِ روايةٍ ما؟ ذلك غير منطقيّ.

-أمن المنطقي أن تُزْهَق الأرواح كل يوم؟ أيُعقل أن الظلم ينتشر في بقاعِ الأرض بذلك الشكل؟ أَوَلَيس الحَيْفُ والأسر أعمقَ بُعْدٍ للماورائيات؟ ألا ترين أن ذلك قد زاد عن حدّه؟ إذا كان ذلك منطقيًّا فكيف يكون السّفر عبر الكتب غير منطقي؟

أجفلت أمان وقالت بِوَجَل:

-لكن.. ما علاقة ذلك بالكتب؟

تنهّد وهو يُوَقّع كلماته مُجِيبًا:

-بعضنا يكون أسيرا لأحداثٍ مُدَوَّنَةٍ في كتاب.. لا يمكنه تغيير مسارها لأنه اختار أن يتركها تتلاعب بِحياته كيفما تشاء، فلا يجرُؤ على اقتحامها كَجُزءٍ منها، بل يكتفي بِمراقبتها كيف تَمُرُّ عليه فيمَا هو ينتظر النهاية كسطورٍ أخيرةٍ يقرؤها من كتابٍ يغلقه ثم يورثه لأبنائه، والذين يعيدون توريث قصّته لأجيالٍ كثيرة.. دون أن يدْرِكوا أنهم بذلك يخسرون حياتهم.

أحسَّت أمان أنها فهمت مُرَادَهُ بِتِلك الكلمات فعَقَّبت على حديثه:

-حين نترك أنفسنا لِنَقع في شَرَك العجز، نُصْبِح ضحايا للمصاعب التي نواجهها، فنكتفي بالاستسلام حتى تمرّ حياتنا هباءً منثورا، وتضيع سِنينها دون أن نكون قادرين على التصدّي لضربات الدّهر.. ثم نجعل أبناءنا يشعرون بالخوف والعجز، ويبقَون أسرى لقِصّة فشلنا حين يعتقدون أن هذا العالم.. مجرّد ظلامٍ دامس!

هزّ آبنوس رأسه موافقا وابتسم، استغرب من طريقتها الواضحة في الحديث، وشعر بالسرور لأنها تفهم تلميحاته، بعض القلوب تحتاج من يفهم غموضها ويشعر بألمها دون أن تتحدث عنه، لغة الأرواح عصيّةٌ على من لا يؤمن بوجودها بين الثّنايا.

حمل آبنوس تلك الدّفاتر ودخل مكتبته ثم وضعها على المكتب فانتبه إلى تلك الورقة التي فوقه، رفعها أمام عينيه وقرأها مبتسمًا ثم وضعها على جانب قلبه وتنهّد بِارتِياحٍ وهو يهْمِس:

-يا لك من وهمٍ جميل، عذابٌ محبَّب.. تَمَنَّيْتُهُ لو يَدُوم لِي إلى الأبد، لكن.. عليَّ أن أستعصم، ولأقْطَع سُبُلَ الضياع متى بدأت تنبتُ بين شراييني..

شعر بالانكسار والتشظّي، أحيانا نكون مُجبَرينَ على التخلّي عن شيء باهظ بالنِّسبة لنا فقط لأننا لا نُريد التَّخلِيَةَ بيننا وبين مَمَرَّات الشَّيطَانِ إلى نفوسنا، لكننا نتمسّك مع كلِّ ذلك ببعض الأمل، والرجاءِ الذي يجعلنا متعلِّقِينَ بحبلِ السَّماءِ دوما، نرجوه من الله كلّما لامست جِبَاهُنا الأرض سُجَّدًا، وكلّما شَفَّتْ قُلُوبُنَا وخشعَتْ لِلّذي فَطَرها، سَلَكَ نَاظِرَيهِ إلى السّماء وتمتَم مُسْتَعْصِما:

-اللهم صبرًا.. اللهم جبرا.. ورفقًا بِعبدٍ عاصٍ، أذلّتهُ المعاصي اللهم تجلُّدا وقوة.. وطاقةً على تحمُّل ألم القلب يا ربّاه!

خرج وأغلق باب الكوخ ثم توجّه نحوها مستعدّا وقال بِحزنٍ وتحفُّز متمازجَين:

-سَتُقام مراسمُ الدّفن اليوم..

حانَت منها التفاتَةٌ وانتفضَتْ مُجْفِلَةً فَضَاقَتْ مُقْلَتاهَا وشَهَقَتْ وهي تقول:

-دفن؟

أنزل رأسه بأسى فارتعشتْ أطرافها وكأنها تذكّرت للتوّ ما حدَث في تلك الليلة المشؤومة، شعر بالأسف نحوها لكنّه تجلّد، نحتاج بعض الصَّلادَة حين نكون في موقفٍ حاسم، وأحيانا علينا انتزاعُ إنسانيّتنا والتوقُّف عن رثاءها لنتمكّن من توجيه ضربةٍ حاسمة تُنهي صِراعنا..

قال بارتباك محاوِلا أن يبدو حذرًا فيما يقول:

-أرسل عمُّكِ هذا الصباح، يقول إنه سيأتي لاصْطِحَابِكُما للعيش عنده.

دفنت أمان وجهها بين يديها وهمسَت بِشُجُونٍ:

-لا يَهُمّ.. لا أريد شيئًا من البشر.

زفر آبنوس بِحزنٍ وأضاف حين غسلت الدموع وجنتَيها وكأنه يحاول إبعاد الحزن عنها:

-**ذَرِالهُمُومَ فَمَاءُ العَيْنِ مُنْحَدِرُ**

سحًا إِذَا حفلتهُ عبرة دُرر

انتشَت روحُها وانفجرت عيناها بِرثاء فأدركَ أن محاولته تلك زادَت شجونها، شعر بالألم لِأَلمها فقال:

-لا زال الوقت مبكِّرًا.. الجميع نِيَام، عليكِ أن ترتاحي أنت أيضا..

-ليس ضروريًّا، أنا لا أهتم..

صمتَت قليلا ثم قالت بإصرار والدموع تتلألأ بعينيها:

-سأذهب إلى المنزل الآن.

صاحَ مشدوها:

-الآن؟ الساعةُ لم تتجاوز التاسعةَ بعد.

خارتْ قِواها فجأةً وتفجرتْ الدّموع من عَينيها فارْتَمَت على الكرسيّ وكأنها تذكرت حادثةً أليمة بعد أن نسيَتها تماما؛ في لحظاتِ الضعف الأكثر شفافيةً، ودموعِ الألم الأعمق أثرا.. ذكرياتٌ قديمة تطفو على السطح، قد تكون آخرها هي القطرة التي تُفيض كأسًا حمل الكثير.

اعتُصِر قلب آبنوس وراودتهُ رغبةٌ في البكاء أيضا، لكنه تجلّد وارتدى سُترة القوة متشبّثًا بحبل من الرجاء وهو يُتمتِمُ بِخُفوت:

-لطفك وعفوك يا من تَربطُ على قلوبنا فَنَتَماسك، وتُنسينا آلامنا فنتَحامَل على أرواحنا كأن لم نحزن بالأمس.

***

بعض الأوهام تخلق لنا حياةً جديدة نعيشها كأبطالٍ في كتاب بَيد أننا نملك أن نغيّر أحداثها، لأن صفحاتها ستكون حيَّة تتنفس، وتنبض قلوبها كما تختلجُ مشاعرنا داخل صدورِنا؛ ما أكثر ما نصنعُ من حلمِ يقظةٍ هدفًا مُبَهرَجًا بِألوان الطيف، وانكسارًا أبيضَ يلِدُ في زَهوٍ سَبْعَةَ توائم مختلفة؛ لكلٍّ منها طعم ما، للألم طعم.. وللخوف.. والضعف؛ والسعادة.. والحزن، والشجاعة والإقدام.. ونقاءِ الفطرة البشرية التي تدفعنا إلى الاقتحام بِسذاجة، ولولا تلك المشاعر لتسَاوَت الحياة بالموت، ولَدُفنت عزائمنا تحت التراب؛ علينا أن نمتنَّ لكل عُسرٍ مررنا به فالصدمات هي التي تصنعنا.

فتح يقين باب المنزل الخارجي بعد أن بحثَ عنه رفقة هداية مطوَّلا وقال مُوصِيا:

-إياك أن تفعلي ما يَلفت النظر، فَلنَكتَشف المكان أولا.

-لحظة.. كم الساعة الآن؟

نظر إليها بِضِيقٍ وقال بِبَدِيهيّة:

-العاشرة أو تجاوزت ذلك بقليل.. لقد اختُطِفنا وقت الراحة؛ أنسيت؟

هزّت رأسها نافيةً وقالت بِنَبَاهة:

-يبدو أن الوقت هنا مختلف.. أترى.. الشمس حديثةُ العهد بالسّماء هذا اليوم، لا زالت رائحةُ الصباح تعْبَق في الأجواء.

-حسنا.. ماذا لو..

صمت قليلا واسترق نظرة إلى شاشةِ هاتفه الذي شغَّله ثم همَس متعجِّبا:

-الثامنة وثلاثون دقيقة!

-لكن.. كيف تغيّر الوقت على الهاتف أيضا؟

-أتعلمين.. لا أدري! يبدو أننا سنُفاجئ كثيرا هنا، علينا أن نستعدَّ لأي شيء قد يحدث!

ألصَقَت هداية ذراعها بذراع يقين حتى لا يضلاَّ بعضهما وأخذا يَجُوبَانِ الشوارع وهما يعلِّقان على كل ما يريَانه بصوتٍ خافت حتى لا يُثيرا شكوك السكان، وصلا إلى منطقةٍ معزولة بِها سورٌ عالٍ من الشِباك المُنَسَّقة حول عِصِيٍّ طويلة، مُحاطة في أربع جوانب بِمساحةٍ كبيرة جدا من الأرض؛ قرفَصَ يقين نحو زهرةٍ من الأُلوف المزروعة هناك ومدّ يده إلى داخل السور ثم اقتلعها فانبثقت أخرى تشبهها وشقّت طريقها بين الأخريات، وقف وقدّمها لِهداية باستغراب فدَقّقت النظر إليها وهمسَت في غير تصديق:

-هيدرانجيا!

هزّ يقين رأسه موافِقًا وأضاف:

-موطنها الأصليّ هو اليابان، وهي ترمز للقلب المخلص، لكنّها لا تنبتُ فُرادى على الأرض؛ إنها عطريّة، رائحتها تُمازِج الأثير.

-هذا المكان غريبٌ بالفعل!

-لكن لماذا هذا العدد الهائل منها؟

-ربما هناك سرٌ خلفها، أنت تعلم أن بعض البشر يَطَّيَّرون بأنواعٍ من الزهور ويتفائلون بأخرى.

سمعا صوتًا يصدر من الحقل كَحفيف العشب جرّاء لَمَسات الرياح فقال ذاك الشاب لأخته بترقُّب:

-فَلْنَعُد إلى حيث تجمّع السكان ولْنُحاوِل أن نختلط بهم قدر الإمكان.

قاطعتهُ قائلةً:

-ألم تلاحظ أنّهم يَتَوَجَّهُونَ جميعهم نحو مبنى عظيم في جهة اليسار؟

وَقَّع كلماته بِحذرٍ مُستشِيرا لها:

-أتريدين أن نذهب إلى هناك؟

نظرت في الطريق الخالية يمينًا وشمالا ثم أجابت:

-ما رأيك أن نسأل أولا؟

رَجَّ رأسه مستحسنا لِتلك الفكرة ثم توجّه تلقاء شابٍ يمشي وحيدا في الشارع المُفضي إلى البناء؛ نظر إلى سُترته الطويلة المُهالة على رأسه وحاول تبيُّن ملامحه المُخفاة خلف قماشها قبل أن يصيح بِلطف:

-عذرا، أيمكننا أن نسألك يا سيدي؟

توقّف الرجل عن المشي ونظر إليه بِريبَةٍ من طرفٍ خفيّ ثم أجابه وقد بدا التوتر في نبرةِ صوته:

-نعم.. بكلِّ تأكيد.

تقدّمت هداية حيث يقف أخوها وانتظرته ليبدأ الحديث لكنه تَمَلْمَلَ فقالت بِجُرأة لِتُخَلِّصه من الموقف:

-نودُّ الاستفسار عن شأنِ السكان الذين يذهبون إلى ذلك البناء..

فكَّر الشاب قليلا قبل أن يجيب:

-ألا تعرفانِ حقا؟

قال يقين فجأة وكأنّه شعر بأصابع الاتهام والشكّ تَحِيقُ به:

-عذرا، لكننا غريبان عن هذا المكان.

أنزل الشاب طرف القماش الذي كان يغطِّي به رأسه وملامحه فظهرت عيناه النَّجلاوَتَان في مساحة وجهه الحنطِيَّة المُحِيطة بابتسامة مجاملةٍ يُداري بها توتُّره حين تفرَّس في وجه الفتى مستغرِبا وقال:

-لكن؛ كيف تمكّنتما من الدُّخول إلى المملكة دون ترخيص؟

همَّت هداية بالحديث لكن يقين استوقفها بِيده وأجاب باشًّا:

-ومن أخبرك أننا دخلنا دون ترخيص؟

حَدَجَهُ بِنظرة استهجانٍ وأجاب مُحَاوِلا أن يبدو هادِئًا قدر الإمكان:

-حسنا.. كل من يَوَدُّ الدُّخول إلى هايدرا عليه أن يَمتلك ترخيصًا من قائد حراس المملكة، أو من أحدِ سُكَّان القصر، ويكون الترخيص مكتوبا، وهو عُرْبون سِلْمٍ بين الزَّائر والسكان.

نظَر الأخوان في بعضهما مندهشَين وقالا بِنَفَسٍ واحد:

-هايدرا؟

رَفع الشاب حاجبَيه النُّحاسيَّين اللذَيْن قاربا على الاقتران وقال بِجديّةٍ أكبر:

-يبدو أن وراءَكُما قصةً غريبة، ما من أحدٍ في الممالك المجاورة لا يعرف مملكة الهيدرانجيا!

زفَرَ يقين وقال باضطراب:

-أنا في حِيرةٍ من أمري، قد لا تصدِّق ما سأُخبِرك به، ولا أعلم إن كان بإمكاني أن أضع ثقتي فيك أم لا.

تنفَّس الصُّعَداء ونَزع تلك السُّترة فظهرت ثيابه المطعَّمة بالفولاذ وقال مُطَمْئِنًا:

-يمكنك يا صاح.. أنا قائِدُ الحرس ولن يؤذيك أحدٌ ما دُمْتَ معي.

-نحن لا نعرف أحدًا هنا ولسنا من أيٍّ من تلك الممالك التي تتحدث عنها أيضا.

ربَّت ذلك الشاب على كتفه وقال بِشيءٍ من الطِّيبة:

-فَلْتَأتيا معي إلى القصر، يبدو أنّكما تَعِبْتُما من الرّحلة.

فَرك يقين رأسه وردّد بِتَمَوُّر:

-في الواقع لم تكن رحلة، لقد التهَمَتْنَا فجوةٌ زرقاء فجأةً.

أصاب الخرس مراس ودَاوَل نظْرَتَه بين الأخوين منتظِرًا إضافةً من أحَدِهما، وحين طال بِه الأمد قال مرتبِكًا:

-من أي البلاد أنتُما؟

أرادت هداية صَرف أخيها عن إجابته قبل أن يتبيَّنَا أهُوَ مُسَالِمٌ أَمْ لا فقالت متجاهلَةً سؤاله:

-أين تقع هذه المملكة بالتَّحديد؟ وما قِصَّة الهيدرانجيا هنا؟ هناك حقلٌ كبير جدا ممتلئٌ بها، بالإضافة إلى أنَّها لا تنبُتُ على شجيراتٍ كما أَلِفْنَاهَا.

-المملكة تتوسَّطُ تجمُّعَ ممالك، وهي اتِّحاد ممْلَكَتَي الضّباب والزجاج، وهي الكبرى بين الأخريات، الممالِكُ المُجاوِرةُ كلُّها تحمل أسماء الزهور، والتجمُّعُ على شكلِ زهرةٍ كبيرة.

أطلَّت من عيني هداية نظرةُ فضولٍ وهي تسأل بِحَذَر:

-وماذا خلف تجمُّع الممالك؟

-العدم. هباءٌ لا نعرفه ولم نتمكّن من الوصول إليه من قبل، العالم هنا محصورٌ بين تلك المَمْلَكات المجتمعة في شكل زهرة، ثمّ لاشيء بعد ذلك، على الأقلِّ هذا ما نعرفه حتى الآن، لكن لا بد وأن هناك تفسيرا لِما في البعيد.

-ماذا عن الهيدرانجيا؟

-ذاك تاريخٌ متعلِّق بالمملكة، يمكنني أن أقُصَّه عليكُما ونحن في الطّريق إلى القصر..

تَنَهَّد يقين وقال مُحتارا:

-ولماذا علينا الإتْيَانُ معك؟

أطال ذلك الشاب النَّظر في عينيه البُنِّيَّتَيْن ووجهِهِ الأسمر مُتَّجِهًا نحو جبينه الذي غطَّتهُ خصلاتٌ من شعره الغِرْبِيبِ الطّويل بعض الشيء ثم أجاب مبتسِماً بِطول بَال:

-يجب أن تحصُلا على ترخيصٍ حتى لا تحدث مشاكل بسبب وجودكما المجهول هنا.

قالت هداية مُتَسائِلَة:

-لكن.. لماذا كنت تتنَكَّر؟

-اليوم موعدٌ استثنائي، الجميع يجتمعون في ذلك المبنى لأجل الحماية، هناك نقصٌ ملحوظٌ في الهيدرانجيا، ومن المُتَوَقَّع أن هذه المنطقة سَتَخضَع لِهُجُومٍ اليوم.

-وكيف عَرَفْت؟

سأل يقين مستهجِنًا فاستطرَدَ ذاك الشاب:

-عدد السكان يقِلّ، وهذا يُشَكِّل خَطَرًا.. لِذلك رشَّحتُ فَيْلَقًا مِن الجُنُود وفَرَّقتُ كل فارِسٍ لِحِرَاسَةِ منطقةٍ ما ومراقبتها.

-إذن.. لن تتمكّن من اصطحابِنَا إلى القصر..

ابتسمَ وأجاب عن سؤاله بِطِيب خَاطِر:

-أبدًا.. أستطيع التَّنَقُّل بِحُرِّيَّةٍ داخل المملكة، نظرًا إلى أنّ هذه المنطقة هي الأكثر عُرْضةً للخطر فقد أَوْكَلْتُ خمسَةَ حُرَّاسٍ بِحِرَاسَتِها.

أخفَت هِداية زهرة الهيدرانجيا في جَيْبِ سُترتها وقالت بِحَماس:

-يبدو هذا المكان مثيرًا للاهتمام، لا بد وأن هناك أشياء غريبةً تحدث هنا، أريد أن أَجُوبَهُ شِبرا بِشِبر، وذِراعا بِذراع.

زفرَ يقين وسأل بِجِدِّيَّة:

-ما تِلك؟

ألقى على أخته نظْرَةَ تَرَقُّبٍ أضافا عقِبَها بِنَفَسٍ واحد:

-الأطياف..

جَحَظَت عيناهُ وهو يُتَمْتِمُ مُنْبَهِرا:

-هل تَرَيَانِها؟ هنا؟

* * *

فتحَت نبرمان باب الجناح الأيمن من القصر وخَطَتْ داخل البَهْوِ الواسع مُتَّجهةً نحو غرفةٍ في أقصى يَساره والحِنق يفيض من شِدْقَيها، اقتحَمَت تلك الغرفة ونظرت إلى الفتاة الجالسة عند الطاولة شِزْرًا وهي تهمس بعينين مُتَّقِدَتَين غضَبًا:

-هيلدا..

وقفَت تلك الشابة التي كانت ترشُف من قدح الشّاي السّاخن في برودٍ وهي تَتَمَطَّى في مشْيَتِها ناظرةً إليها باشمِئْزَاز راسمَةً على شفتيها الرَّفيعتين بسمَةَ سُخْرية وتوقّفت أمامها مباشرةً ثم مَدَّت يدها نحو ذقْنِها وقالت بانزعاجٍ أظهرَتْهُ ابتسامتها الخبيثة:

-أختي الصّغرى التي تعلَّمت قِلَّة التَّربية.

صمتَت قليلا وأضافت بعد أن حَدَجتها بِنَظرة ازدِرَاءٍ كاذِب:

-منذ متى وأنت تَتعلمين الفُجور أيَّتها المُدَلَّلة، ماذا عن العِفَّة والحياء، وخِصال مريم البَتول التي كنتِ تَتَّسِمِين بها، أتذهبُ هبَاءً؟ يا لِسُوء خُلُقك الذي تَبَخَّرت سَنَواته هَدْرًا..

تجاهلتْ نبرمان ذلك الكلام وأنزلَت يَدَ هِيلْدَا عنها بِعُنْفٍ وصَوَّتَت:

-أعلم أنَّكِ وراء ذلك.. لماذا فَعَلتِها؟

-ماذا تقصدين يا صغيرتي؟ أتُهْمَةً تُوَارِين بِها عَارَك؟

صاحَت نبرمان بِحِدَّة:

-عمَّ تَتَحَدَّثين؟ أَتَقْذِفِينَنِي؟

صَفَعَتها بِقوَّة فأرْدَتْها أرضًا، وضعت يدها على وجهها ووقفت بِثَبَاتٍ وهي تنْظُر إليها بِعَينَينِ تَشْتَعِلان شَرَرًا وتصيح:

-أنتِ من حَرَّرَ ذلك السَّاحر من السِّجن، أيُرضيك الدَّمار الذي حلّ بسببك؟

تمتمَت بازدِرَاءٍ وهي تُضَيِّق عينيها الرّماديتين:

-وما الضّرر من ذلك؟ كهمس تحت أمري الآن.. أنا أتلَاعَبُ بِه كَدُمْيَةٍ حَمقاء لا تَفْقَهُ شيئا، لم يَعُد خطيرا بعد الآن يا عزيزتي..

-عمَّن تَبْحثين هذه المرة؟ ولماذا أُبِيدَت المنطقةُ الغربيّة؟ أنتِ السّبب.. لكن لماذا؟

أرادت هيلدا صَرفها عن هذا الحديث فوقَّعَت حروفها بِبرود محاولَةً إخفاء توتُّرِها:

-حسنا.. سأخبركِ يا نبرمان.. أم عليّ القول.. يا أمَّ ساناز!

فتحَت عينيها عن آخرهما بينما لفحَت نسائِمٌ تدفَّقَت كَمِيَاهٍ عَذبةٍ من النَّافذة شَعْرَ هيلدا الذي بَدا قاتِما كَسُوَاعٍ مِن لَيلٍ أدهم تتدلى منه نجومٌ من الزّبرجد والزّركون، التفَّت نبرمان على أعقابها مُهَرْوِلَةً في البهوِ المُزدان بِثُرياتٍ بنفسجية اللون وزرقاء شفّافة كما الزجاج الهشّ أو البحر المُترامي الأطراف، تاركَةً هيلدا تنتظر أَوْبَتَها في تحفُّزٍ وتضع يدها على خاصرتها، فتحت باب الغرفة فسقطت عيناها مباشرةً على السرير الذي كانت تضع عليه ساناز، اجتاحها غضبٌ جارف فدوّت منها صرخةٌ ارتجَّت لها جدران القصر:

-ميليا..

انتظرت إجابةً لكن أحدا لم يتفَوّه بكلمة، طرقت على الأرض بقدميها مُتّجِهةً نحو مطبخ القصر؛ صفعت بابه بِعنفٍ وصاحت:

-أين ميليا؟

تبادلت الوصيفات الأنظار باحثاتٍ عن تلك الفتاة فانطلق صوتٌ من بينِهن مخترقا الأثير في قسوة:

-لقد خرجت قبل قليل من القصر.

شعرت أن الأرض تميد بها، اجتاحها شعورٌ بالقهر والألم أحسّت بانقباضٍ قوِيٍّ في صدرها فهبّت نحو غرفة شقيقتها مجددا وقالت بِعينين تقدَحان شَرَرًا:

-أين الفتاة.. أين ساناز؟

تنهّدت هيلدا تتصنّع الألم وأجابت بأسًى خادِع:

-للأسف يا صغيرتي.. لقد أُلقِيَت ابنتُك في البئر القديم.

اندفعَت نبرمان كَقَذِيفَةٍ أُطْلِقَت للتَّوّ من مِدْفَعٍ ثائر دون أن تستمع لِبَقيَّة حديث شقيقتها، توجَّهَت نحو الاصطبل وامتَطَت فرَسًا ناصِعَةَ البَيَاض وأقبلَت عليها بِجذعها متحفِّزَةً ثم قالت:

-هيّا يا عزيف.. أسمِعِيني عزيفَ الرّيح.

صَهَلَت الفرس فكأن نبرمان أضافت لِتُجيبها عن سؤالٍ طَرَحَتْهُ عليها:

-إلى البئر المهجور، بئر هايدرا المرْدُوم..

شعرت بحركةٍ خلفها فإذا بِتُقَى تسْتَعِدُّ لِرُكوب فرَسٍ أخرى لكنّ نبرمان زَجَرَتْها قائلة بِحَزم:

-البَلْقَاءُ يا تقى.. تلك البيضاء المرقَّطَةُ باللون الأسود..

هزّت رأسها وامتطتها في حركةٍ سريعة فانطلقتا تُسابقان الريح عدوًا نحو الجبل الذي يَقَع البئر على سفحِه متمَسِّكَتَين بالفرَسَين بِقُوَّةٍ حتى لا تُفلِتاهما، ولِتَتَمكَّنا من اللَّحاق بميليا قبل أن تُلقيَ بِساناز في غَيَابة الجُبِّ أو تَدُسَّها في التراب.

* * *

حَصْحَصَت الشمس وانْتَصَفَت كبِد السماء حين دَوَّى صوتٌ عنيف تَفَجَّر مِن رَحِم الصَّمتِ على حِين غفلةٍ من أهل المنطقة صَاح الشّاب مُوَجِّهًا حديثَه إلى يقين وهداية:

-أطيافُ الموت.. أنتُما تَرَيَانِها بالفعل!

شعرت الفتاة بالفزع فالتَصَقَت بِذراع أخيها الذي احتَضَنَها بِيَدِهِ وهو يقول بِقَلَق:

-ألا تَراها؟

-لا.. قلائِلُ مِنَ البشر فقط من يَفعلون، الذين يمتَلِكُون مِيزةً تُفَرِّقُهُم عن الآخرين، حتّى بعضُ الكُتَّابِ لا يَرَونَها، فقط أولئك الذين لهم شأنٌ خاصٌّ هنا، إحدى الأمِيرَتَيْنِ لا تراها بالرّغم من أنها أميرة؛ فكيف بِغَرِيبَيْنِ عَن المَملَكة؟

بدى مُضطربًا حَدَّ الإنفجار، بزَغَت مِن وجهه لآلئ العَرَق التي أَظْهَرت توتُّرَه وهو يسلك يَدَهُ في جَيْبِ سُتْرَتِهِ بِحَذَرٍ ويُخْرِجُ مُسَدَّسًا يُطْلِقُ رصاصةً مِنه في السماء فَيَنطَلِقُ دخانٌ أحمرُ اللون نحْوَها كَإشارةٍ ما..

اندفعَتْ من العدم زمرةٌ من الفُرْسان المُدَجَّجِينَ بالأسلحة على أحصنتهم رُفقَةَ جَمْعٍ آخرَ مِن الخُيُولِ المُعَدَّةِ لِلإمْتِطَاء؛ صاح يقين مَشْدُوهًا:

-ما هذا يا..

قاطَعَهُ ذلك الشابُّ قائلا:

-أنا مراس.. اِرْكَبَا على الخيل، لقد بدأ الهجوم على المنطقة.

أجْفَلاَ وهُما يَسْتَمِعان لِكلامه ثم رَاوَدَتْهُما حماسةٌ جنونِيَّةٌ وهُما يُجَرِّبَانِ رُكوب حِصانين للمرَّة الأولى، كان شيئًا يَدعو إلى الرَّهبة؛ خُصوصًا وأنَّ تلك الكائنات تبدو فاتنةً بِألوانها المُختلفة وخصلاتها المُنسدلة كحسناءَ تُطِلُّ مِن خُدرها بِحَيَاء، نظر مراس إلى الأخوين وصوَّت بِجِدِّيَّةٍ شديدةٍ وصرامَةٍ بادِيَةٍ على حروفه التي يَمُدُّهَا بِتَحَفُّز:

-يُمكنكما التوجُّه نحو القصر، إنّه في الطريق المُعاكسة سَأرسل مَعَكما من يدلكما عليه، أو اُسْلُكا الغابة واِسْأَلا عن قَصرِ كُمَاتِر..

قاطَعَه يقين قائِلا:

-ماذا يحدُث هنا؟

-إنه هجومٌ لإِبادَة المنطقة، علينا الاستعداد لِمَا قَد يَسْتَجِدّ..

-هل سَتُحَاربون؟

-إن تطلَّب الأمر، لِأَجْلِ الذَّوْدِ عن أرضِنا ومملكتنا..

تلَحَّفَت هداية بِلِحاف من القوَّة وشَدَّت على الفَرَس وهي تقُول:

-أنا لَن أُغادر..

نظر يقين إلى أخته بِفخرٍ وَرَدَّد بِعَزم:

-ولا أنا.. وَلَو تَطَلَّب الأمرُ سَأُحاربُ معكم أيضا!

-لكنّها ليست مَعْرَكَتَكُما، أنتُما غَريبَان عن هذا المكان..

-نحن نَنْتَمي إلى حيثُ البشر، إلى كلِّ أرضٍ نَمُتُّ بِصِلَة، وحيثما وُجِدَت الحياة.. فنَحن نَنْتَسِبُ إليها.

اِسْتأنفَت هداية معقِّبَةً على كلامِ أخيها:

-صحيحٌ أنّنا لا نعرف عن هذا المكان شيئًا، لكن الدَّمار ظُلم والقتلَ بِغَير وَجهِ حَقٍّ ظلم، والسُّكوتُ عنِ الظُّلمِ ظُلمٌ أيضًا، أَمَا وَقد خابَ مَن حَمَل ظُلمًا؛ فَلَن نُغَادِرَكم حتى يَنْزَاحَ مِن هنا!

ابتسم مراس وصاح بِحماس وهو يتقدَّم بِحصانه الأدْهَمِ كَقطعَةٍ من اللّيلِ البَهِيمِ فَيَتْبعُه الجنودُ يتوسَّطُهُم يقين وهداية التي لم تُجْدِ معها محاولاتُ صَدِّها عَن الخَوْضِ في غِمار هذه المعركة، هَتَف يقين وسط وَقْع حوافِرِ الخيل:

-مراس.. إلَيَّ بِسَيفٍ مِن حديد.

صاحت هداية على إثْرِ صوته:

-وأنا.. أريدُ قَوْسًا وسِهاما..

نظر الشاب إلى أخته ساخِرًا فأضافَت بِتَسَاؤُلٍ وهي تُحَدِّقُ فيه بِبَرَاءة:

-ماذا؟ لا تظُنُّني لا أستطيعُ استِعْمَالَه، أليس كذلك؟ لقد تعلَّمتُ ذلك من ألعاب الفيديو يا أخِي العزيز..

-للأسف يا أخْتي الحمقاء، هناك فرقٌ شاسعٌ بين ألعابٍ محصورةٍ في حدودِ الشَّاشات وبين الحقيقة.. لا زِلْتُ أعتقد أنَّكِ قَد تُفَاجِئِينَنَا يومًا ما وتُصبِحِين رجُلا، أأنْتِ على يقينٍ مِن أنَّكِ فتاة؟

شَدَّت على الفَرَسِ التي تركَبُها وأجابت بِاسْتِهزاء:

-أنا لستُ عليك يا يقين..

تبسَّم مراس وهو يَسْتَرِق السَّمع إلى حوارِهِما الأخويّ بالرّغم مِن أنَّه يَبدو مَليئًا بالسّخرية والخُشونة، راوَدَه حَنينٌ جارف إلى أخٍ يخفِّف عنه ضنك الحياة، ويُبادله المزاح والسعادة، والخوف والألم؛ والحزن والأمل كَما هَذان الأخوان.. لِوهلةٍ بَدَت له علاقتهما

كأخُوَّةٍ مترابطة لا تَنْفَكُّ تَنْعَقد؛ بالرغم من أن ظاهر تصرفاتِهما ساخرٌ بِطبعه، لكنّهما أخوان، وهُمَا فقط يَفهمان ذاك البُرود الذي يَتَلَبَّسُهُما، طباعُ الإخوة قوانينٌ عائلية، قد تستعصي على الآخرين بالرّغم من أنها بالنسبة لهم، أسلوب حياة؛ لكلّ مِنّا طريقةَ مختلفة في إظهار حبِّ الأُخُوَّة، ودفء الأسرة من أقصى درجات النعيم الدُّنيوي، لذلك لا يمكننا الحُكم على الأشخاص ما لم نَرَهُم من الدّاخل، ما لَم نفهم مشاعرهم، ونُعَاشِر قلوبهم الجميع كان يظنُّ أفراد تلك العائلة يَتَشارَكون بُرُودًا غريبا، وصمتًا مُريبا، لكنهم جميعا يشعرون بِشيء مختلف؛ حَمِيمِيَّة لَحظاتِنا التي تَمُرّ كما نُحِبّ أفضل من التَّصَنُّع الذي يَطغى على جَلَساتٍ مَملوءة بِالتّنطُّع والرِّياء، من الأفضل أن نكون على طبائِعنا وسَجَايانا رُفقةَ من نُحِبّ؛ لأنهم الوَحيدُون الذين سَيفهموننا.

تذكر نبرمان حين نظر إلى تلك الفتاة فَابتسم، كانت تمتلك ذات الحماسة التي تؤهِّلها لِاقتِحامِ العَقَبات، واستغرب لأنها طلبَت رُمحًا وسِهاما وهو يُقدِّمُهما إليها بِطيبِ نفسٍ، إذْ أنَّ نبرمان تستعمل ذلك أيضا، تحسَّس مكان الجُرح الذي سبَّبَته له هذا الصباح فاتَّسَعَت بَسمتُه وهو يَهمِس:

-اللَّهم احفظها لِأجلي.. رُحماك يا مَن تَهَبُنا وِصالا فيه لَذَّة، حتى لَنَظُنّ أنّه سَيدوم مَا دامَت السّماوات والأرض، ثم تَربِط على قلوبنا وتَعصِمنا، اللهم وصالا سَرمَدِيًّا غير مَبثوثٍ لِقلبٍ تُقَلِّبُه كيفما تشاء؛ وما نشاء إلا أن تشاء.

***

بعيدا جدا عن براثن الحُطام التي مَزَّقت الراحة من أعيُن الجنود على حينِ غَرَّة، وفي القصر الذي اختلط فيه الحبُّ بِالحقد، والأمل باليأس، وتناقضَت فيه مشاعر الأخُوة والعدوان؛ ليس لكل الإخوة وميضٌ من حُبٍّ يبزغ كَفجرٍ خجولٍ في القلوب الدّافئة، هناك الأنانية؛ والبغض، وهناك الكراهية والحسد.. فمِن أجْلِهِنَّ تَتَوارى شمسُ الأخُوّة خلف أفقٍ أسود، كما حدث داخل قصر كماتر.

ارتَدَت تلك الفتاة ثيابا سافرةً وجلست بِخُيَلاءَ على كرسيّها المحفوف بِأزهار الهيكل الشَّفَّافةِ على الجانبين تنتظر قُدوم ذلك الساحر الذي اقتحم الغرفة فجأةً وطالَعَها بِمُجُونٍ فقالت:

-كيف تَسير الأمور؟

ردَّد كهمس بِعينين تقدَحَان شرَرًا وهو يحرّك فمَه المشْقُوق على الجانبين بِسَمَاجَة:

-أعدادُ الهيدرانجيا في تناقصٍ مستَمِرّ، لقد بَدأ الهجوم!

-مُذهل.. ماذا عن الشَّابين؟

-تقصِدين الأخوين؟

صمَتَ منتظِرًا الإجابة لكنَّها بَادَلَتْهُ ذاتَ الصَّمْتِ وكأنّ سؤاله لم يَرُق لها فأضاف:

-لا نعلَمُ عنهما شيئًا حتى الآن..

-ألا تستطيع التَّكهن لِمكانهما؟

-لن أتمَكَّن من ذلك.. لكن سِلاب سَتفعل!

سَرَت رجفةٌ بِجسدها حين ذُكِرَ ذلك الِاسم أمامها، طَرَقَت على الأرض بِتوتُّرٍ بِكعب حذائِها العالي ثم وقفت بِغَضبٍ اهتزَّت له بَتَلاتُ الأزهارِ الحَافَّةُ لِكرسيّها وقالت:

-فَلْنَذهب إليها.. الآن!

اتَّقدَت نظرةُ مكرٍ في عَينَي كهمس الثَّعلبيَّتين وأدخَلَ الهواء إلى جَوفه بِمِنخارَين يَثقُبانِ وجهه المُتقَلِّص دون أنفٍ ثم تقَدَّم نحوها ووضع يَدَه على يدِها وشدَّد عليها مُفَرْقِعًا بِأصَابِعِ يَدِه الأخرى؛ شعرت هيلدا بِدوارٍ عنيفٍ يَجتاحُها وبَدَت وكأنَّها أُصِيبَت بِالعمى بُرهَةً مِن الزمن، أحسَّت بِطَبقاتِ الهواء تَتقاذَفُها في الجوّ وكأنَّها تحلِّق في سماءٍ مُدْلَهِمَّةٍ فأجفَلَتْ وهي تُحاول تَبَيُّن مكانِها وتسأل كهمس بِهَلَعٍ بَدَا جَلِيًّا في لُكنَةِ صوتها:

-أين نحن؟ وما هذا الظلام الدّامس؟

-إنه سجنُ الزمن.. الفَيصل بين الثواني، والسَّيف البَتَّار لِهَولِ المسافات، كما أنّه طريق عودة شخصيات الكتب من حيث أَتَوا.

-أتِلك هي الطريق التي يسلُكُها جميعهم؟

-لا.. لكلٍّ وجهةٌ هو مُوَلِّيها، ولكلٍّ طريقَتُه في اختِلاَقِ السُّبُل ومبدأٌ في اقتحامِ الظلام؛ وعلى قدرِ الشَّجاعة يكون الإقدام.

شعرَت بِقدميها تَطَآنِ الأرض فإذا بها وَقَد عاد إليها البصرُ مجددا تَقِف داخل دائرةٍ حمراءَ من الدَّم المجفَّفِ أمام عجوزٍ شمطاءَ ذاتِ شعرٍ صوفِيٍّ متمرِّدٍ على مِساحة رأسها الملفوف بِوِشاحٍ أسودَ مُغَبَّر، وَعَينَين غائِرَتَين ووجهٍ ضامرٍ تُغَطِّيه ثقوبٌ تبدو كآثارِ أقدامٍ على أرضٍ جرداءَ عفراء، بِشَفَتَينِ مُشَقَّقَتَين كأنَّهما صحراءُ عانَت وِصال سِنِين من الجَفاف، تُتَمْتِمَان بِشيءٍ لم

تفهم كُنْهَهُ فيمَا تنظُر إليها في تحفُّزٍ وَهِي تَرَى ارتجافَها وذُعْرَها خرج كهمس من الدَّائرة التي كانت تجمعُهُمَا فَقالت تلك العجوز المتربّعةُ على الأرض مُخاطِبَةً هيلدا:

-أنتِ تخشَين نبرمان.. لا تُريدين أن تكون الملكة؟

فَغَرت فاها وقالت بِذُهُول:

-كيف عرفتِ؟

-أُقتُلِيها.. بعد أن تقتُلي الأخوَيْن، اِستعمِلي الخِنجر مُلَطَّخًا بِدِمَائِهِما، ذاك الخنجر صُنِع لِيَقتُل الأخَوَين؛ لقد خُلِق لِيُنْهِيَهُما.. خصِّيصًا لإزْهاقِ رُوحَيْهِمَا، لقد تنبّأ صانعه بقدومهما، سيكونان سبب هلاكك، لِذلك سَيَكتَسِبُ قوّةً عظيمَةً حِين يُدْهَنُ بِدِمائِهِمَا مُمْتَزِجَة.

ارتعَدَت فَرَائِصُها وقالت مُسْتَعْجِلَة:

-سَيِّدة سِلاب، ما لِذلك أَتَيْتُ.. إنما..

قاطَعَتْها بِصوتٍ كَالفَحِيحِ يخرج من حُنجرتها حتى لَيَكادُ يُمزّقها:

-لِلخنجر نَصلان، أحضِريه إلَيَّ.. سَأُطَلسِمُه لِتَستَعْمِليه فِي طَعْنِ الأخوين، أحدهما بِنصله الأيمن، والآخر بِالأيسر.

ارتجفَت هيلدا وشعَرَت بالدُّوار من الحرارةِ الشَّديدة ورائحَة البخور وطَقْطَقَةِ الحطب المُشتعل، اختطفَت نظرةً إلى ضِرسها الفِضّيّ اللَّامِعِ جَرَّاءَ الوَمِيضِ القِرمِزِيّ لِلنّيران وقالت:

-لكنَّني.. لا أعرف مكان الخنجر.

اجْتُثَّ صوتُ الساحرة من حُلقومها كَنقِيقِ ضفدعٍ فيه بَحَّةٌ وكأنّها تصوَّرَت أن تطرح عليها ذاك السؤال:

-في غرفةِ نبرمان، في الدُّرج العلويّ للخزانة!

غارت عينَاها الرَّماديتان في محجريها وتَمْتَمَت تسأل مجدَّدا:

-ماذا عن الأخَوَين؟

تَمَلْمَلَت سِلاب وهي تُجِيبُ بِكَلِمَاتٍ غير مَفهُومة ثمَّ تقولُ فجأةً:

-لا أعلم تماما، لكنَّهما قد وصلا هذا الصباح.

اجْتَاحَها ذعْرٌ شديدٌ فخرجت من دائرةِ الدّماء المجَفَّفة دون أن تشعُر، تلَقَّت صفعةً مِن فَرَاغٍ لم تَرَهُ فَسَقَطَتْ أرضًا وتهَافَتَ عليها الضَّربُ والصَّفعُ من كل مَكَانٍ حتى صَاحَت العجوز:

-كفى.. حُلُّوا عنها.

وقفت ومَدَّت يدها مُمْسِكَةً بِكهمس فتَكَهرَبَتْ بِقُوَّةٍ ثُمّ انتقَلَت إلى الدُّجْنَة في لَمْحِ البصَرِ رُفْقَتَه.

شعرَت بِالعمى مجددا لكنَّها استَعَادت بصَرها بِسرعةٍ هذه المَرَّةَ حين وَطَأَت قَدَمَاها أرْضَ الغرفَةِ، وَفَوْرَ أن حَطَّ جسدُ كهمس على الأرض صاحَت تسأله:

-لماذا أُصابُ بِالعمى حين أنْتَقِلُ عبْرَ الفجوة؟

انتظرَت إجابَةً منه لكنَّه تلاشى في الأثير وغَبر جَسَدُه كَدُخَانٍ يَغشى الغرفة ثم نُسِف كأنَّه هبَاءٌ يَتَلَوَّى في السَّديم مُتَّجِهًا نحو المنطقة الشرقية.. لقد حانَ الوقت!

***

(آبنوس)

بعض الأماكن تحتفِظ بِشَظايَا من قلوبِنا، نحتاج أن نَصِلَهَا بِأَورِدَتِنَا حتى نَبقَى على قَيدِ الحياة، لأنّها مَمَرٌّ يَقود نحو أُلُوفِ الذّكريات المُلَثَّمَةِ بِالحَنين.. الحنينُ إلى الماضي، والشَّوق إلى أشخاصٍ رَحَلُوا.

كنتُ أسيرُ هائِمًا أتحسَّس تلك الوَخْزَةَ في قلبي، أُحَاوِل تبيُّنَ الطريقِ نحو الغابة السَّوداء؛ حامِلاً أضلعي على كَتِفَيْن أرهَقَهُمَا نَبضي المُتَسَارِع في حضرةِ أمان، وقد أمْضَيْتُ الطريق بِرَمَّتها أستذكِرُ ما حدَث قبل ساعةٍ مِن الآن، كانت قد رفَضَت أن يُرافقها أحدٌ غيرُ أختِها إلى منزلهم المُحترق، وتمَسَّكت بِذَلك بِشِدَّة وهي تبكي بِلَوْعَة.

قَد يُرسِل الله إلَينا بَرَدًا مِن النِّسْيَان، حتى تلفَحَنا سُعُر الذاكرة؛ فَتَلْتَهِبُ عُيونُنا حرقَةً بِدُمُوعِها، وأجسَادُنا ألمًا بِكَرِيها.. لولا التَّناسي لَما كانت هناك حياة!

كانت أمان أمانًا على هذا العالم.. تجلِسُ بِحَياء وتتعامل بِخَفْرة مع مَن حولها، مُتَلَحِّفَةً بذلك النُّور السَّاتر كَدُرَّة تُقحِم نفسها بين النجوم، تمشي على استحياء فتبدو في عفَّتها كَقَمرٍ خجول يخترق السماء، وكان قلبي يهتِف بِاسمها وأنا أحاول غضَّ الطَّرف عنها راجِيًا وِصالا لا ينقطع لِشظيَّة من نبضي.

لاحَت أسوارُ الغابة السوداء من بعيدٍ فغَذَذْتُ الخُطى نحوها الكتُب هنا ليست سِلَعًا تُبَاع وتُشتَرى؛ الأفكار ليست للتِّجارة، بل هي صدقاتٌ يَهَبُهَا الكُتَّابُ لِلقُرَّاء عن طِيب نفسٍ وخاطِر، الكتب هنا لا تُعرض في المتَاجر، لا تُباع في المكاتب أو المطابع؛ إنما تنبتُ على الأشجار، لأنها بَنَاتُ الرُّقِيّ، وثمارُ العقل والفكر.

لمَحَتُ الحارس ذا الشَّعر الأشْعَثِ الأشقر والذَّقن غَير الحَلِيق فتقَدَّم نحْوِي بِحُبُورٍ وحَفِيَ بي ثم فَتَح الباب الفاصِل بَين الغابةِ وهايدرا وقال مَسرورا:

-أَمِن كُتُبٍ يا آبنوس؟

-اشتريتُ هذا الصباح رزْمَةً من الورق، إنَّما لم آتِ لأجل ذلك.

الأوراق والدفاتر الفارغةُ تُباع لأنها بياضٌ يهيّءُ نفسه لِاستقبال حِمْلٍ أسودَ لطيفٍ يُرافِقُ القُرَّاءَ في رِحلةٍ بين السُّطور، لأنها مساحةٌ تعمل كَمرهم لِجروحنا التي تَلتَئِم حين نَبُثُّ هموم حروفنا لِصفحاتها، انتظَرَني لأستكمِل حَديثي فقُلتُ مُتَوَجِّسًا:

-لقد تكرَّر الأمر.. اخْتَفَت نُسختان أصليَّتان هاتِه المرة!

شهَق بِفزع ثم سَحَبني من يَدِي نحو الغابة وأغلق بابها بِسرعة رائحةُ الحَنين.. الوَرق الأصفر، وحفيفُ أوراق الأشجار السوداء عَبَقُ صبغةٍ خاصة؛ والكثير من الكتب تتَدَلَّى كَعَناقيدٍ من الثمار استنشقْتُ تلك الرائحة بِوَلَهٍ وأنا أستمِعُ لِحَديثه:

-من.. ومتى حدَث؟

-هذا الصباح.. أخوان، أحدهما يُسَمَّى يقين.. والأخرى هداية!

-ألم تَغْثُر على الزَّائرِ الأوَّل بَعْد؟

-تقصِدُ مراس؟

-ووالده رَامَان..

-ليس بعد.. لا أعلمُ أين هُما، أخشى أنَّ الأمر سَيَتَكَرَّرُ كثيرا.

حَكَّ حارِسُ الغابة رأسه بِحِيرَةٍ ثم قال وكأنَّ فكرةً لَمَعَتْ بِخَاطرِه فجأةً:

-حسَنًا.. ماذا لو بَحَثْنَا في دَلِيلِ هايدرا؟

-ذلك الكتاب لا يَنْفع يا صديقي، إنه أساطيرُ تَكَهُّنِيَّةٌ لا أسَاس لها مِنَ الصِّحَّة، ولا حَدَثَتْ أو سَتَحدُث قَطّ..

زفَرَ الرَّجُل بِقِلَّةِ حِيلَةٍ وأطرق يُفكِّر ثم صَاحَ وكأنَّه تَذَكَّر:

-ماذا عن الكِتَابَيْن؟

مَرَّ حَسيسٌ على الأشجار وبَدَت الكتب وكأنَّها انتفضَتْ فَزِعَةً فَقَال آبنوس مُتَوَتِّرًا:

-عليكَ التِزَامُ الصَّمت.. تحدَّثْ بِخُفُوت؛ فَالكُتُبُ لا تحِبُّ الضَّجيج.. ثم.. ما بَالُ الكِتابَيْن؟

-يقين وهداية.. أين زرَعتَ الكتابين المَنْسُوخَين عن الأصليَّين؟

هكذا تُنشَر الكتب، تُزرَع كَبُذُورٍ فَتِيَّةٍ في تُرْبَةٍ خصبَةٍ فَيَمْتَدُّ فرعُ أشجارٍ سوداءَ بِأوراقٍ غِرْبِيبَةٍ في السَّماءِ حامِلَةً المزيد من النُّسَخ، حُمْتُ بِنَاظِرَيَّ في أرجاءِ الغابة ثم وَجَّهتُ بَصَري نَحو مَوضِعٍ ما وقُلْت:

-هناك..

هَرْوَلَ حيث أشرتُ وقَطَف كتابًا مِن شجرةٍ قَرَأ عنوانَه بِصَوتٍ مَسْموع:

-"هداية"

ثم قَطَف الآخر مِن شجرةٍ مُجاوِرةٍ وأَجَالَ عَيْنَيه على غلافه طويلا قبل أن يَهمِس مُسْتَطْرِدًا:

-"يقين"

احتَفَظَ بِأَحَدِهِما ومَدَّ الآخر نَحْوِي بِحَذر وهو يَنظر إليه بِحَنِين، فتحتُهُ بِتِلقَائِيَّةٍ كَمَا فعَل هُوَ؛ لكنَّنا شهَقْنَا بِنَفْسِ الوقت مَشْدُوهَيْن، وَصِحْنَا دون اعتبارٍ لِبَقيَّة الكُتب:

-الكتاب فارغ!

***

(أمان)

فوضى المشاعر، واكتِظاظُ الألم على رصيف الأحاسيس وعكةُ حُبٍّ وَوعكةُ كراهية؛ رُشَاحٌ حادٌّ مِن الشَّفافية وآخر من البَلادَة، تجمُّدٌ مُرعِبٌ لِمَلامِحِ الوجوه؛ فَلا هِيَ تُظْهِرُ الحقيقة، ولا تواريها بِبَسمةٍ مُجَامَلَةٍ وانكسار؛ شعرتُ أن هوف تُعانِي ذاك الوَباء الذي لا أظُنُّ دَواءه قَد صُنِّفَ في أيٍّ من كُتُبِ الطِّبّ بعد، لم يكن المنزل مُنْهَارًا بِشَكلٍ كامِل، أمَّا عن غرفتها.. فقد كانت سلِيمَةً وكأنَّ شيئا لَم يَطَلْهَا، شعرتُ بِرَغبَةٍ جارِفَةٍ في الصُّراخ بأقصى صوتٍ يُمكِنه أن يخرج من حَلقي، في تمزيقِ حِبَالِي الصَّوتية بِالصِّياح والاِنتِحاب، لكنَّنِي سَلَّمت، لَعَلَّ في قضاءِ الله تَطلُّعًا إلى مَا هُو أفضل؛ فإنَّما يمنَعُ لِيُعْطِي.. وعَطَاؤهُ غَيثٌ مُلِمّ.. وتذكَّرتُ قَوْل ورقة بن نوفل لِخديجةَ حين قَصَّت عليه ما وَقَع لِرسول الله ﷺ:

فَقُلْتُ علَّ الذي تَرْجِينَ يُنْجِزُه

لَكِ الإِلٰهُ فرَجِّي الخَيْرَ وانتَظِرِي

فَرَجَوْتُ مِن الله خيرا، واطمأنَنْت.. اليُتْمُ مُؤْلِم، لا أحد يُمكنه أن يُعَوِّضَنا عَمَّن فَقَدْنا؛ حتَّى لو أَظْهَرَ ذلك.. لا أحد غَيرُ شخصٍ يحمِلُ داخِلَهُ حُبًّا صادِقًا نَحْوَنا، ولا يُزعِجُهُ أننا نَبُثُّ إليه هُمومنا؛ فَيُرَتِّبُ على أكتافِنا لِيُسْقِطَ عَن كاهِلِها بعضَ الثِّقَل، لِتَصْفُوَ لَنا الحياة مجددا..

كُنّا نَتَجوَّل في المنزل بَاكِيَتَيْنِ ونُلاحِق الجُدران المُتَفَجِّمَةَ هنا وهناك، لم يَهْوِ المنزل أرْضًا بالرّغم من أنَّه احترَق بِالكامِل، الأماكنُ عَرَابِينُ الذاكرة؛ تَرْشُو النِّسيَانَ لِيُغَادِرَنَا كُلَّما وقعَتْ أعينُنَا على

مكانٍ نَحْمِلُ مِنْه حقيقَةً تَبَخَّرَت كَوَهْمٍ مِنَ العَدَمِ وَطُمِسَتْ بِأطنانٍ من الواقع، فأصبحَت.. مَحْضَ ذكرى.

نظرَت هوف إلى الرِّواق الأسود بالكامل وهي تَتجاوزُ الأعمِدَةَ المُتَهَدِّمَة وقالت بِحزن:

-أشتاقُ إلى المواقف.. أشتاق إلى صَخَبِ الحياة التي كُنّا نعيشها، وصِيَاحِ والِدَيْنَا الطُّفولي في بعضهما كلَّ يوم؛ ها هوَ المنزل قد خَلاَ، وعلى عروشِه اِلتَوَى صمتٌ قاتِل، وعَرِمٌ غير مسبوقٍ من السكون، لَيتَنِي غادرتُ قبلَهما.. وقبل أن يَرحَلا مع سَخَطِهِمَا عليّ.

شعرتُ بالأسف نحوها، مرَّت بِذِهني صورةُ ذاك الرِّواق الزَّاهيةُ ذاتُ الألوانِ النَيِّرَة التي أصبحَت دَمَارًا وخَرابًا أسود، أرَدْتُ التَّخفيف عنها فَهَمَسْتُ قابِضَةً على يدها:

-فَمَا عَيْشُ مَنْ قَد عَاشَ بَعْدِي بِنَافِعِي

وَلاَ مَوْتُ مَنْ قَدْ مَاتَ يَوْمًا بِمُخْلِدِي

هَزّت رأسها وتنهَّدت ثم قالت وكأنَّنا نتحدث بِأبياتٍ مُتَقَطِّعة:

-أَلَا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلا اللّٰهُ باطِلُ

وَكُلُّ نعيمٍ لا مَحَالَةَ زائلُ

لَفَحَتني رياحٌ رفيقَة صدَرَت من تحْتِ بابِ غرفتها فَذَكَّرَتني بِتِلك اللَّيلة حِين أردتُ البحث عن الصغيرة، استدرتُ نحوها وقلتُ فجأة:

-أين الفتاة؟

***

-الطّريق تتكرر يا نبرمان..

قطَّبَت جَبينَها في قَلَقٍ وقالت:

-كأننا في دوَّامةٍ أو مَتَاهَة!

لمحَت تقى عَجوزا يَعرج في مَشيهِ ويَتوكَّأُ على عَصًى ضخمةٍ سوداءِ اللون ويَتَمايل كَثَمِل لم يفارقه السُّكْر منذ أمدٍ طويل فنظرت إلى نبرمان وصاحت مخْتَرقَةً بِصَوتِها خَشفَ الفَرَسَين:

-فَلْنَسألْ ذاك الرجل..

تَرَجَّلت نبرمان بِسرعة عَن عزيف وتقدَّمَت نَحْوَه قائلَةً بِأَدَبٍ جَمّ:

-عُذرًا سيدي، أَلَم تَرَ شَابَّةً تَحمِلُ فتاةً رضيعةً مَرَّت مِن هنا؟

طالعها بِريبَةٍ وأجاب بِاستِنكار:

-لا يا اِبنتي، لم أَرَ بَشَرِيًّا قَبلَكُمَا هُنَا منذُ ما يقْرُب نصف قرن.

عَدَّلَت تقى حِجابها البنفسجي على رأسها وقالت بِجِدِّيَّة:

-أَمَا مِن طريقةٍ لِبُلوغ البئر هنا؟ السُّبل كلُّها تعُودُ إلى نَفْسِ المكان.. نحن تائِهَتانِ مُنْذ حوالي نصفِ ساعة..

-إيَّاكُما والذَّهاب إلى هناك.. قبَائِلُ الجِنِّ تَسكُن البئرَ القديم؛ أنا لا أعرِف لَه طريقا مُنْذ هَجَرَه السُّكان..

امتَطَت تُقى الفَرَس بِسُرْعةٍ وقالت بِصرامة:

-لِنَذْهب..

تقَدَّمَتا قليلا فَسَألت نبرمان حين التفَتَت فَرَأَت ضَبَابًا يمُوجُ في الهَوَاء جَرَّاء سُرْعَةِ الفَرَسَيْن:

-لماذا تجاهَلتِ كلامه؟

صَوَّبَتْ تقى ناظِرَيها على الطَّريق وهي تقول بِثِقة:

-إنَّه يكذب..

-وكيف عرفتِ؟

شَـدَّدَت على الفَرَس وأجابت:

-أعلامُ المواقِفِ والمشاعر!

-وما تِلك؟

-حين التقيتُكِ أول مَرَّةٍ لم أَرَ على رأسِك عَلَمًا في البداية، لكنَّه ظَهَر حين قلْتِ "هيلدا"، كان علَمَ الصِّدق، فعَرَفتُ أنَّكِ صادقة أمَّا هذا الشيخ؛ فهو كاذِبٌ لأنَّني رأَيْتُ رَايَةَ الكذِب على رأسه.

-لم أسمَع بِذَلك مِن قبل، لكن.. مَاذَا عَن المَتَاهة؟

-قَرأتُ على العلم الثَّاني الذي على رأسه أنَّها سَتَنْتَهي حِينما نُريد ذلك..

-لكنَّنا نُريد بالفعل، ومُنذ مَجِيئِنا!

-أحيانًا نَكون خائِفِين من شيءٍ مَا لأن عَواقِبَ حُدُوثِه قد تكُونُ مُؤْلِمَةً لنا، فَنَتَمَاطَلُ عَنه في حين نُقْنِع أنفسنا بِطَرِيقَةٍ مَا أنَّنا حَاوَلنَا الوُصول إِلَيْهِ لكنَّنا ضِعْنَا في الدَّهاليز، حينها نَيْأَسُ لأنَّنا جَرَّبنا ولم نُحَقِّقْ، وَنَحْنُ بِشَكلٍ مِن الأشكال كُنَّا نَخْلُقُ تِلك العَوَائِق، لذلك.. الآن؛ حين نَقْتَنِعُ في داخلنا أنَّنا نستطيعُ الوصول فقط.. سَنَصِلُ إلى هناك، ونُواجه ما ينتظِرُنا مهما كان!

بَدَت على مَلامِح تقى جِدِّيَّةٌ شديدة وهي تَحُثُّ الفرس عَلَى الإسراع، ولَاحَ مِن بَعيدٍ جَبَلٌ تَلْتَفُّ حَولَهُ هالَةُ دُخَانٍ خضراءَ قِرمِزِيَّةٍ كَلَونِ الزُّمُرُّدِ وعَلى سَفحِهِ بئرٌ هائِلُ الحجْمِ يَكادُ يَمْتَدُّ في السماء ويُصَارِعُها طُولاً، لَطَمَت الرِّياحُ حِجَابَها البنفسجي وَهِيَ تَسِيرُ صامِتَةً دون أن تَنْبِسَ بِبِنْتِ شَفَة، نظرَت نبرمان إليها بِفَخْرٍ ثُم سألت:

-تقى.. كم عمرُكِ الآن؟

-خَمْسَةَ عَشَرَ عامًا.

* * *

لفحَتْ نَسَائِمُ حارَّةٌ كَلَسَعَاتِ الجَحِيمِ وُجُوهَ الفُرسان وهم يتقدَّمون نحو جنود كهمس الذي انبَثَق فجأةً من السماء وألقى على مراس نظرةً ناريَّةً وهو يحَلِّق نحوه ويقول بِتَحذير:

-إيَّاك أن تخدعني.. أين هُمَا؟

صَدَّه مراس بِسَيفِهِ وهو يسأل بِغَضب:

-ماذا تقول أيها المجرم؟ لماذا تقتُل الناس بتلك الهمجية؟ وبِأَيِّ حقٍّ تَبْخَسُهُم حياتَهُم؟

قَهقَهَ بِسخْرِيةٍ وَثَقَبَهُ بِنَظرةٍ كراهيةٍ ثم صاح بِحِقد:

-أتظُنُّ هؤلاء الحُثالة بَشَرًا؟ ما الفرقُ بين الموت والحياة بِالنِّسبةِ لهم؟ هم على أَيَّةِ حالٍ لن يعيشوا.. فَلِماذا الإسراف في العدد؟ دَعْنَا نَكُن مُنْصِفَيْن، أَتَعْتَقِدُ أنَّ حياتهم تستَحِقُّ العيش لأَجلها؟ ما الذي سَيَفرُق لو تخَلَّوا عنها؟ ما الذي تَرَكوه للعالم حتى يستحقوا العيش؟ لا يَجْرِمَنَّك أمرُهُم كثيرا، فهم لا يَستأهِلون كلَّ ذلك الاهتمام.

صرخ مراس بِصوت ارتجَّت له صُفوف الجنود ذُعرا:

-تَعُدُّونَ قَتْلًا فِي الحَرَامِ عَظِيمَةً

وَأَعْظَمُ مِنْهُ لَوْ يَرَى الرُّشدَ رَاشِدُ

أخذ نفسا عميقا ثم أضاف بِصياحه المُفزِع وقد تغيَّر تمامًا وكأنَّه ليس مراس ذاته:

-أترى الأجْداث كيف امتلأت؟ والدِّماء كيف أُرِيقَتْ على الأرض؟ ألم تَرَ إلى هؤلاء اليتامى كيف سَبَحوا في لُجَجٍ من الدِّماء التي كانت

تذْكَارهُم الوحيد من ذَوِيهِم قبل أن يُغَادِرُوهُم.. ألستَ إنسانًا يا هذا؟

اتَّقَدَت نظرةُ كراهيةٍ في عينيه وهو يُصَوِّتُ:

-إنَّه انتقام.. على الجميع أن يَشعروا بما شعرتُ به حين قَتَلَ ذلك المُتَحَذْلِقُ زوجتي، الجميع مُطَالَبُونَ بِدَفع الثمن، الجميع كانوا سَبَبًا في مَوتِ سيعاء لأنهم أحبُّوا تلك الملكة وطَلَبُوا الثأر لأجلها.

حاول مراس لَيَّهُ عَمَّا يريد فقال بِهدوء:

-الماضي سِجِلٌّ مطويّ.. والكراهية التي تحمِلُهَا داخلك لن تُفضِي بك إلى مَخْرَج.. سَتكتشِف أنَّ كلَّ حِنقِكَ هباءٌ حين يَفُوتُ أَوان الأَوْبَة.. أَوَلَمْ يَكْفِكَ أَنَّكَ حَرَمْتَ الأميرتَين مِنْ والِدَيْهِمَا؟ أَوَلَمْ تَنْتَقِمْ حِينما صَلَبتَ زوجة الملك أمامه ثم فَقَأْتَ عَينيها أنت وزوجتك وحَرقتَ جسدها بِالزيت؟ أَوَلَم تَكْتَفِ بِتَغلِيلِ يَدَيهِ وتَمزيقه إِربًا حتَّى تنقُل عُدْوَانِيَّتَك إلى هؤلاء الأبرياء؟

انتفَض كهمس وكَشَّر فَظَهرت أسنانه المُصْفَرَّةُ الكَالِحَةُ ثم جَثَمَ على صدرِ مراس بعد أن أَسقَطَهُ أرضا ورَاحَا يَتَصَارَعَان وكأَنَّهما على حلبَةِ تبادُلِ اللَّكَمات، شعر الجنود بِالرَّهبة من التَّقدُّم؛ وتردَّد يقين في التَّصَرُّف بِالأمر، رفع كهمس نَصْلَ سَيفِه وأمسكه بِثِنْتَيْ يَدَيْهِ وهَمَّ أن يَهْوِي بِهِ على مراس لكنَّ شَيئًا لاَمِعًا اخترَقَ الصُّفُوف فجأةً بِلَونِه القِرمِزِيّ المُلتهِب مُتَوجِّهًا نحو ذلك السَّاحر القبيح، كان سَهْمًا اندَفع بِسرعة من القوس فَاشتعَل وكأَنَّه أُطلِقَ بِيَدِ مُحاربٍ مُحَنَّكٍ يَضْطَرِمُ غَضبًا، اِلْتَفَتَ الجنود نحو مَصْدَرِه حين اخترق جَسَدَ كهمس ناظِرِينَ إلى الفتاة التي تحمِل القوسَ بِدهشةٍ أَنْطَقَت يقين بِاستِغْرَابٍ شديد:

-كيف فعلتِ ذلك يا هداية؟

سَرَى تيَّارٌ هوائِيٌ عنيف حَمل ذرَّات التراب فَكَادَ يعْمِي الأعْيُنَ في حِينِ ارتَفَع كهمس عن الأرض وهو يتَخَلَّل هداية وَيُوشِكُ أَن يلتَهِمَهَا بِعَينَيْهِ الضَّيِّقَتَين ثم يقول بِوُجُومٍ وحِقد:

-إنها هي..

اندَفَعَ نحوها وأمسك بها ثم عَلاَ عن سطحِ الأرض وهو يَحمِلُهَا في لَمْحِ البصر وفَرْقَعَ بِأصابعِهِ مُحَاوِلاً نَقْلَهَا عبرَ سِجْنِ الزَّمَن إلى القصر كما يَفْعَلُ مَع هيلدا، وحتى يَزجَّ بِها في زنزانةٍ اِنفرَادِيَّةٍ إلى حِين تَأتِيهِ هيلدا بِالخنجر لكِنَّهُ لم يتَمَكَّن مِن ذلك، بَدَت وكأنَّها مُحَصَّنَةٌ بِطَرِيقَةٍ ما.. وكانت تُتَمْتِمُ بِكلِمَاتٍ لَم يَفهم كُنهَهَا لكِنَّها كانت تُشعِرُهُ بالألم، وتَظهَرُ آثارُها كَحُروقٍ تَلتَهِبُ فِي بَدَنِهِ حين يُحَاوِلُ لَمْسَ هداية، تَدَاخل جسَدُه وأصبح دخانا يَكْتَنِفُهَا من كلِّ ناحيَةٍ فيمَا هي مُغمِضَةٌ عينَيها وتهمس بِآيَاتٍ مِن القرآن، كانت والِدَتُها تُخبرها دَوما أن من تمَسَّك بالله فَلن يَضِلّ، فَمَا خَابَ عبدٌ كَان رَجَاؤُهُ بِاللَّه.

صَاحَ يقين مُحَذِّرًا:

-إيَّاكَ وأخذَهَا إلى أيّ مكان.. أعِدْهَا إلى هنا..

كان ذلك الضباب يَبْتَعِدُ حامِلا داخلَه تلك الفَتَاةَ التي لم تُصْدِر ضجَّةَ فَزَعٍ قَطّ؛ لكَزَ ذلك الفتى الحصانَ الذي يَمْتَطِيهِ وانطلق يُلاحِق الظِلَّ الوَارِبَ حول أُخْتِه بِغَضَبٍ وخشيَةٍ بدَأت تَتَمَلَّكُه على حينِ غرَّة، ماذا لو أصابَها خطْبٌ ما؟ ماذا لو فقدها؟

صَرخ مُنادِيًا حين اكتَسَحَهُ الغضب وأخذ صدرُه يعلو ويهبط وجَبِينُهُ يَتَفَصَّد عرقًا:

-هداية.. تَماسَكِي وكُونِي قويَّة، أنا آتٍ أُخَيَّتِي.

جَلْجَلَةٌ تُسمَع من بعيدٍ انطلقتْ خلفَه فجأةً، تبِعَهُ الجنود ومعهم مراس الذي هتف مُوَاسِيًا:

-سَتكون بِخير بإذن الله، الله لَن يضيّع أختك يا يقين، ولَن يخذُلَ قلبك، فَتَمَسَّك به!

مضى في تلك الطريق بينما التَفَتَ مراس نحو الجنود وأضاف عَقِبَ صَهِيلِ حصانه:

-أيها الجنود.. إنَّ مَن جَنَحَ لِلسِّلمِ جَنَحنَا معه له، ومَن اختار ظُلمًا فَإِنَّ البشريَّةَ لم تُخْلَق لِتُقمَع.. ولا لِتُقْتَل وتَسْقي الأرض بِدمائها، دِفاعًا عن بلادكم، واتّحادِ المملكتين؛ دفاعا عن كرامتكم، وإنسانيتكم.. دفاعا عن أحلامكم.. وبراءة أطفالكم اليتامى، وثأْرًا لِأُلُوفِ البشر الذين مَاتوا حَيْفًا وَجُورًا، وقَهرا وألما.

صاح الجنود صَيحَةً واحدة اهْتَزّت لها خُيولُهم وانْدَفَعوا خلفَهم يُخمِدون النّيران التي يُضرِمُها أعوان كهمس بينما استدَارَ مراس يَتَقَفَّى أثر يقين لِيَبحَث معه عن أخته، نظَر إليه وإلى جسده الذي يَخْتَلِجُ غضبا، أنفاسه تسَارَعَت وكأنَّه كان في معركَةٍ ضَارِيَة وسعَفُ شَعرِه الفحمي تَطَايَرَ في الهواء كَأَوْرَاقِ نخلَةٍ لاَمَسَتْهَا الرَّوَامِس، وهو يَتْبَعُ ضباب كهمس المُتَمَاوِجَ في السماء أمَلاً في إيجَادِ هداية، غَرَز نَظَرَاته بِعَينَي مراس وسأل واجَمًا:

-أين يأخُذُها؟

-أُرَجِّحُ أنَّهما يَتَّجِهَانِ نحو السِّجن أعلى الجبل، ربَّما سَيَحْبِسُها هناك.

-فَلْنَذْهَبْ إليه.. دُلَّنِي على الطريق يا أخي..

لَمَعت عَينَا مراس وشعر بِوَجِيبٍ في قلبه حين سَمع تلك الكلمة على لِسان يقين فقال بِتَأَثُّر:

-فَلْنَتَّجِه شَمالا.. ولْنُسْرِعْ لِنَلحَقَ به.. يا أخي!

-٥-

يقين..

مَارَت الكتب في الغابة السوداء واهتَزَّ الكِتابَانِ بَين يَدَي آبنوس والحارس فَأَجْفَلاَ، ومَض مِنهما نورٌ كَما فعَل مع شَجَرَتَيْهِمَا اللَّتَيْن اِلْتَأَمَتَا وكأَنَّهُما شجرةٌ واحدة اِنْبَثَقَت مِن بَين أوراقِها كتبٌ أخرى تماما، ذاتُ أغلِفَةٍ بيضاءَ حَلِيبِيَّة، وعلى كُلِّ غلافٍ جَنَاحٌ أسوَدُ كَزَهرةِ هَالفِيتي سوداءِ اللَّون تلمَع تحت شعاعِ الشمس المُسَلَّط عليها لِشِدَّة بَرِيقِها، وآخَرُ رماديٌّ كَلَونِ السَّمَاءِ المُتَجَهِّمَة، اِنْسَحَبَ الكِتَابُ مِن يَدَي آبنوس والحارس وأخَذ يرتفع في الهواء ويَلمع مِنه وَمِيضٌ أزرَقُ وكَأنَّه يُوَقِّعُ عَليه حُرُوفًا مَا.. سَرَتْ رِيَاحٌ قَوِيَّةٌ أَصْدَرَت الأشجارُ على إِثْرِهَا حَفيفًا وأغصانُها زفيرًا وأَطِيطًا، رَفرَفَت أوراق الكِتاب في السماء وكأنَّ رُوحًا قَد بُثَّت فيه ثم خَمدَ كلُّ شيءٍ فجأةً واِرْتَطَمَ مُغْلَقًا بِالأرض فِي حِينِ يَرَى الشَّابَّان ذلك وعلى وَجْهَيهِمَا صُفْرَةٌ كَالِحَةٌ إِثْرَ الفَزعِ الذي سَبَّبَهُ لَهُمَا المشهد، تقدَّم آبنوس وحمَل الكتاب المُلْقَى على الأرض ثم قرأ العُنوانَ الذي ظهر بِلَونٍ أزرقَ مُرَقَّطٍ بِالبَنَفسَجِيّ البَرَّاق بِصوتٍ مسموع:

-"مملكةُ الكلمات"

تبادَلَ نظرةً ذات دَلاَلَةٍ مع الحارس الذي أَوْمَأَ بِرَأسِه فَفَتَحَ آبنوس الكِتاب على أَوَّلِ صفْحَةٍ وكأنَّه تَلَقَّى أمْرًا ثم قال بِخيبَة:

-لا زال فَارِغًا..

سَطَعَ نُورٌ عظيمٌ مِن تلك الصَّفحاتِ واِنْبَثَقَت الكلمات تِبَاعًا وَرُتِّبَتْ على السُّطور وكَأَنَّ هُنَالِك يَدًا خَفِيَّةً تَكْتُبُ بِنَهَمٍ وسُرْعَةٍ

شديدة، وأَخَذ آبنوس يقرأ كلَّ مَا اِسْتَجَدَّ على تِلك السُّطُورِ بِصَوْتٍ عَالٍ:

-"بَعضُ اللَّحَظَاتِ تُؤْلِمُنَا حِينَ تُصبِحُ ذِكْرَى.. وَبَعض المواقِفِ تَطْعَنُنَا بِالنِّسيَان، نحن نَشعُرُ بِالحَنينِ لِلأَشخاصِ الذين نُحِبُّهُم حِين نُدْرِكُ أَنَّنَا سَنَفْقِدُهُم؛ وحِينَ نُشَارِفُ عَلَى خَسَارَتِهِم، وحين نَرَاهُم مَوتَى مُخَضَّلِينَ بِدمائِهِم، فَتَسْتَحِيلُ كُلُّ ذِكْرَيَاتِنَا السَّابِقَةِ مَعهم نارًا تَلْسَع؛ وعَذَابًا يُذَكِّرُنَا بِهِم.. نحن لا نُدْرِكُ قيمَةَ الأشخاصِ المُحِيطِينَ بِنا إلاَّ حِين نَفقِدُهُم"

نظَر آبنوس إلى الحارس وقال مُتَوَجِّسًا:

-يَبْدُو أَنَّ أَحَدَ الأَخَوَينِ في خطَر.. ذلك ما تُوحِي بِه المُقَدِّمة.

ارْتَجَّ الكتاب بَين يديه وكأَنَّما هوَ يَدْعُوهُ لِاسْتِكْمَالِ القِراءة فَأَضَافَ:

-"سِجْنُ الجَبَلِ الأخضَرِ كان يَعِجُّ بِأَصْوَاتِ الوُحُوشِ الكَاسِرَة وَنَعِيقِ الحَمِيرِ وَفَحِيحِ الثَّعَابِين، بَيْدَ أَنَّ شَيْئًا مِن ذلك كُلِّهِ لَمْ يَكُنْ هُناك، وكأَنَّها أصواتٌ تَنْبَثِقُ مِن العدم، سِيقَتْ تِلكَ الفَتَاةُ إلى زِنْزَانَةٍ تَفُوحُ مِنهَا رائحَةُ العَفَنِ والدِّماء والجُثَثِ المُتَآكِلَة؛ تَسِيرُ وكأَنَّها تَسْبَحُ فِي ظَلاَمٍ دَامِس، وتتَلَقَّى وَكْزَةً بَينَ الحِينِ والآخر تُجْبِرُها على المَسِيرِ نَحو الأمام، لَم تكُنْ أبَدًا ضَعِيفَة؛ ولا خَانَهَا لِسَانُها وهي تسْأَلُ ذلك الرَّجُلَ القبيحَ الذي يَسْتَدْرِجُهَا:

-أين أخي؟"

أغْلَقَ الكِتابَ فجأةً وَقال لِلحارس وهُوَ يَهُمُّ بِمُغَادَرَةِ الغابة:

-أنا ذاهِبٌ إلى هناك..

-أين؟

-الجبلُ المُحَاطُ بِالهَالَةِ الخضراءِ القِرْمِزِيَّة.

رَفع حاجِبَيْهِ وصاحَ مُسْتَنْكِرًا:

-أَوَ تُعَرِّضُ حيَاتَكَ لِلْخَطَر؟ كهمس مَسْجُونٌ بِذَاك السِّجن!

زَفَرَ بِقُوَّةٍ وهو يقول:

-علَيَّ الذَّهاب.. لا حَلَّ آخر.

-وما شأْنُكَ أنْتَ بِهِمَا؟

-أنَا مَن أحضرَهُمَا إلى هنا، أنا مَن كَتَبَهُمَا.. وعَلَيَّ إعَادَتُهُما إلى حَيث يَنْتَمِيَانِ.. لا أُريد أن يَطَالَهُمَا مَكْرُوهٌ بِسَبَبِي، أشعُر بِالذَّنْبِ تجَاهَهُمَا..

-حسَنًا، سَأذهبُ مَعَكَ إذن!

-وَمَنْ سَيَحْرُسُ الغابة؟

ابتسَم وأجَاب بِحنانٍ بَالِغٍ وَهُوَ يُرَبِّتُ عَلى شَجرةٍ مِن أشجارِ الكُتُب:

-الكُتبُ لا تَحتَاجُ حِرَاسَة، وكَما تَعلَم.. القُرَّاءُ لَيْسُوا لُصُوصًا واللُّصوص لا يَقْرؤون..

بَادَلَهُ آبنوس بَسْمَةً حَانِيَةً وكأنَّه اِقتَنَعَ بِكلاَمِه ثُمّ قال:

-يَلْزمُنَا خَيْلاَن.

-أُتْرُك أَمْرَهُمَا لِي.

***

صاحَت أمان بِعَصَبِيَّةٍ حين سمعَتْ كَلِمَاتِ هوف وهي تُلَوِّحُ بِيَدَيْها في الهواء:

-كَيفَ تَقُولِينَ أنَّكِ نَسِيتِ مَكَانَها؟

-كانَ الظَّلاَمُ دَامِسًا.. ولم أتبَيَّن أيَّ شجَرَةٍ عَلَّقتُهَا إليها، كَمَا أَنَّنِي لم أَكُنْ فِي حَالَةٍ تسمَحُ لِي بِالاِهتِمَامِ بِالتَّفاصيل.

-لكن.. لِماذا تَخَلَّيتِ عَنْهَا أيَّتُهَا القَاسِية؟

نظرَت هوف فِي الفراغِ وهمَسَت بعد أن زفَرَت بِحِنْق:

-أخشى العَارَ يا أمان، لقد أخْطَأْتُ؛ وهِيَ كانَت وَصْمَتِي، لا أُرِيدُ أَن يَشْمتَ بِي البشر.

لطَمَت البَابَ وصَاحَتْ بِغَضَب:

-فَلْيَذْهَب جَمِيعُهُم إلى الجَحِيمِ؛ ما مَوقِفُكِ مِن رَبِّهِم؟ أَوَتَخْشَيْنَ البَشَرَ وَتُوَارِينَ خَطِيئَتَك عنهم بِخَطيئَةٍ أعظم منها؟ لِماذا لم تَحْسِبِي حِسابًا لِلّه قَبل أن تحْسِبِي حسابَ الناس؟ ماذا لو مَاتَت المِسكينة؟ لِمَ لَمْ تُفَكِّري في عَوَاقِب فعلتِكِ قبل أن تُقْدِمِي عليها؟ كيف تَشْعُرِين الآن؟ بِالصَّفَاء.. صحيح؟ كيفَ أَمْكَنَكِ العَيشُ وَفلْذَةُ كَبِدِكِ مُلْقَاةٌ تَلطِمُهَا صَوَاعِقُ الحَياة أو رُبَّما أَوْدَتْ بِرُوحِها.. لِمَاذَا يَا هوف.. مَا الذي فعَلَتْهُ المسكينة حتى تُعَاقَبَ على خَطَإٍ لَم تَرتَكِبه؟

-اهْدَئِي يا أمان.. أنتِ تُكَرِّرِينَ حَدِيثَهُم، أنَا لَا أَحْتَمِلُ العِتَاب.. صَبْرِكِ علَيَّ يا أختي، أريدُكِ أَن تَتَفَهَّمِي مَوْقِفِي!

قاطَعَتْهَا بَعد أن اِبْتَلَعَت الغُصَّةَ التي تَحْرِقُ حُنْجُرَتَهَا فَانْفَجَرَت الدُّموعُ مِن مِحْجَرَيْهَا حِينَ لَم تحْتَمِلْ تَعَاظُمَ الأَلَم:

-أَهْدَأ؟ كيف يا هوف؟ أأنتِ مَجنونة؟ أَتَرَيْن.. ماتَ والِدَانَا وهُمَا غيْرُ راضِيَيْنِ عنْكِ.. ثُمَّ ماذا؟ أَلْقَيْتِ بِتلك المسكينة في قَحطِ هذا العالم قبل أن تكون قادرَةً على تَحَمُّلِ مَا قَد يَطَالُهَا مِنه، أَلاَ يَهُمُّكِ

ذلك؟ ألا تُفَكِّرِينَ في غَيرِ نفسِك؟ الخَطَايَا تُجْفِي القلب يا هَوف! هل أنتِ مسرورَةٌ لأنَّكِ تَخلَّصتِ منها؟ إنَّها اِبنتُك.. ابنتك يا هوف..

اِنتَفَضَت وشَهَقَتْ بِقُوَّةٍ وهي تنْظُرُ إلى أمان بِانْكِسَارٍ ثم انْهَمَرَت دموع عَينيها الزَّرقَاوَتَين فَضَمَّت يَدَيْهَا إلى رُكْبَتَيْها وجلسَت على الأرض وأخَذَت تَنْتَحِب كَرَضيعَةٍ مُنِعَتْ مَا اِشْتَهَت نَفْسُهَا، حاوَلَتْ أمان أن تُهَدِّئَ مِن رَوعِهَا وقَالت بِخُفُوت:

-عليك أن تَعُودِي.. فِرِّي إليه لِيُخَلِّصَكِ مِمَّا أنتِ فيه، فَهُمُومُنَا لا تَسْتَعْصِي عَليه مهما كَثُرَت، وقُلُوبُنا بَين إصبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِه يُقَلِّبُهَا كَيْفَمَا شَاء.. لا مَلْجَأَ لَكِ دُونَه يا أُخَيَّتي.. لَا أَحَدَ سَيُخَفِّفُ عَنْكِ غيره؛ لا أحد!

-ما الذي سَأَفعَلُه يا أمان؟ لستُ أَحْتَمِلُ نَفْسِي بعدَ الذي حَصَل.. ظنَنْتُ أَنَّني سَأَنسَى إن فَقَدْتُها؛ لَكِنْ دُونَ جَدْوَى.

سَمِعَتَا صَوْتًا خَافِتًا يَصدُر مِن غرفةِ هوف التي كان بابُها مُغْلَقًا فَمَدَّت أمان يَدَها إِلَيْهِ ثم تنهَّدَت وتَمْتَمَتْ وهِيَ تَفْتَحُه:

-عُودِي إليه يا هوف.. اللهُ يَغفِرُ ذُنُوبَنَا لِنَنْسَاهَا، وحتَّى نَطْوِيَهَا وَنُدَاوِيَ جِرَاحَها، ثم نُغْلِقَ صَفَحَاتِها ولا نُكَرِّرَها.. الله يَهَبُنَا الفُرَصَ ويَربِطُ على قُلُوبِنا حين نَزِلُّ ثم نَقِفُ بَينَ يَدَيْهِ وَنَدْعُوهُ بِانْكِسَار ونَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَرْحَمَنَا؛ لِأنه أَمَانُنَا فِي عالَمٍ تَشْتَدُّ فيه حُرُوبُ نُفُوسِنا!

اِنْتَفَضَتْ تِلكَ الفراشَاتُ حِينَ شُقَّ البابُ وخَرَجَت مِنَ الغُرْفَةِ فَفَغَرَتَا فَمَيْهِمَا مُنْدَهِشَتَيْنِ في حِين صَاحَت أمان:

-تِلك الفراشاتُ مَرَّةً أخْرَى.. المِرآةُ يا هوف.. لَقَدْ اِلْتَأَمَتْ حِينَ كَانَ المَنْزِلُ يَحْتَرِق، أَتَذْكُرِين؟ كانَتْ مُتَشَظِّيَة!

***

أَطَلَّتْ تُقَى على البِئْرِ فَلَمْ تَرَ غيرَ الظَّلام، تَرَجَّلَتْ نبرمان عَن الفَرَس وهَرْوَلَت نَحْوَهَا وَفَعَلَت مِثْلَها فَقَابَلَهَا السَّوَادُ العَمِيقُ اللاَّمُتَنَاهِي، نظَرَت تقى إليها وقالت بِأَسَف:

-لا أثَرَ لَها.. ربّما كانت هيلدا تَكذِب.

هَزَّت نبرمان رأسَها نَافِيَةً وَهَمَست:

-أَشْعُرُ بِها، إِنَّها هُنَا بِالفِعْل.. وَهُنَاكَ فَتَاةٌ أُخْرَى غَيْرُنَا بِالجِوَارِ أَيْضًا!

بَدَتْ تُقَى حَائِرَةً وَحَمْلَقَتْ فِيهَا بِفُضُولٍ وَهِيَ تَصِيحُ مُقْبِلَةً بِجِذْعِهَا عَلى البِئر:

-ساناز..

وَمَضَت أَنْوارٌ زاهِيَةٌ مِن جُنُوبِه وكأنها نجُومٌ زرقاءُ ضَئِيلَةٌ وَرَفْرَفَتْ حتى غَشِيَتْ سوَادَهُ المُدْلَهِمَّ ثم ارتَفَعَتْ بِبُطْءٍ حَتّى ظَهَرَ ذلك الجسَدُ الهَزِيلُ الذي اِسْتَلَمَتْهُ نبرمان وكأَنَّها تَقْبِضُ هديَّةً مِن شخصٍ عَزيزٍ عليها، قالت تقى بِدهشةٍ حين اِنْفَضَّت الفراشات وانْتَشَرَتْ حَولَهُما:

-لقد حَمَتْهَا الفراشات مِنَ السُّقوط!

احتَضَنَت نبرمان الصَّغيرَةَ لِتَنْسَابَ دموعُ الفَتَاتَيْن بِتَأَثُّرٍ حين رَأَتَا ضحكَةَ ساناز وَهِيَ تَرْنُو إلى تقى وَتَمُدُّ يدَها الصغيرة إليها.

هاجَت ذرَّاتُ التُّرَابِ بَعِيدًا عَنْهُمَا وَعَلاَ صَوْتُ صَهِيلِ الخُيُولِ وَجدْفَةُ حَوافِرِها المُسْرِعَةِ على الأرضِ فَأَخْفَتْ نبرمان تِلكَ الفتاةَ على الفَرَسِ أمامها وامْتَطَتْهَا؛ وكذلك فعلتْ تقى مع الوَدْقَاءِ وَمَكَثَتَا

تَنْتَظِرَان القَادِمَيْن نَحْوَهُمَا مِن بعيد، لَوَّح أحدُهُما بِيَدِهِ حين رَأَى لَمْعَةَ الفراشاتِ وَهَتَف:

-نبرمان.. أَلَمْ يَمُرَّ كهمس مِن هنا؟

حَرَّكتْ رأسها ذات اليمين وذات الشِّمال نافِيَةً عندما تَبَيَّنَتْ أنَّه مراس ثم نظرَت إلى الشابّ الذي معه وقالتْ حين وَصَلاَ إليهما:

-ماذا حدث؟

-لقد اختطَفَ أخته!

همسَت تقى وهي تنْظُر إلى رأسِ يقين:

-خائفٌ جدًا، وغاضِبٌ جدا، إنَّه لا يَثِقُ بِنا.

رَمَقَتْهَا نبرمان بِغَرَابَةٍ وقالت بِعَطف:

-اِخْتِلاَطُ مَشَاعِر؟

أشارَت تقى بِرَأسِها إيجابًا فَصاحَ مراس فجأةً:

-فَلْنَذْهَب يا يقين..

هَمَّا بِالْمُغَادَرَةِ لَكِنَّ الفَتَاتَيْنِ اِسْتَوْقَفَتَاهُمَا بِآنٍ واحد:

-سَنَذْهَبُ معكما..

شعَر مراس بِوَخْزَةٍ فِي قَلْبِهِ وتبادَلَ نظرَةً ذاتَ دَلاَلَةٍ مع يقين فَأَرْدَفَت نبرمان بِثِقة:

-لا يُمْكِنُكُما السَّيرُ جُزَافًا، أنا أشعُرُ بِشَخْصٍ قريبٍ مِنَّا والفراشات سَتَدُلُّنا أيضا.

تَجَاوَبَ مراس مُؤَكِّدًا:

-أَعتَقِدُ أنَّها في سِجن القِمَّةِ أَعلى الجبل.

***

(هِداية)

المكانُ مظْلِمٌ هنا، رائحَةُ العَفَن والمَوْتِ والدِّماء، وأصواتُ الوحوش وَوَقْعُ قَطَرَاتِ المِياه التي تَتَرَدَّدُ على الأرض وكأنَّها تَهْوِي مِن مَكَانٍ مرتفع، لا أظنّ أنَّ أحدًا هنا، أنا وحدي في هذه الزّنزانة الرّطبة، تحَسَّسْتُ المكان فَاصْطَدَمَتْ أصابعي بِالطّحالب الزَّلِقَةِ التي كنْتُ أجلِسُ عليها، حتَّى ذاك الرَّجُلُ القبيح الذي أَسَرَنِي قَد غَادَرَ قبل أن يُجِيبَ عَن سؤالي؛ لا أعرِف مكانِي تماما، هل أنا في سجنٍ تَحت الأرض؟

أغمضْتُ عينَيَّ وَتَجَلَّدْتُ وأنا أهمِسُ فِي رَجَاءٍ:

-يَا مَن يَسمع دُعائِي، ويَعْلَم رَجائي.. ويَرحم ضعفي وَبُكائي اللّهم كَمَا نَجَّيْتَ يُونس من ظُلمَةِ جَوْفِ الحوت، اِرْحَم العجزَ الذي اعترَاني؛ وَنَجِّنِي مِن غَيَاهِبِ مَا أنا فيه.

تَذَكّرتُ يَقين فَهَرَبَتْ مِن عَينِي دمعَةُ شَوْق، وَرَدَّد صوتٌ مَا داخِلي:

دَلِيلُ الأَسَى نارٌ عَلَى القَلبِ تَلفَحُ

وَدَمْعٌ عَلَى الخَدَّينِ يهمِي ويسْفَحُ

مَرَّت بِذهني في لحظةٍ خاطِفَةٍ كلُّ اللحظات التي كنْتُ فيها رفقَةَ أخي فَابْتَسَمْت، ابتسمْتُ وأنا في عُمقِ الدّهمَةِ التي لا أجِدُ لِلخُروجِ مِنها سَبِيلاً، وترَدَّدَت بِذهني حُرُوفُه وهو يَصيح مُخَاطِبًا أمي بِمرح: "أمي.. ليست لديكِ اِبنةٌ قط، أنتِ أمٌ لِخمسَةِ ذكور!" فَتَبتَسِمُ أُمّي بِأُنْسٍ لِيُضِيفَ وهو يَضرِبُ كَتِفِي ضاحِكًا: "أَتَرَين.. فتاةٌ بِهَذِه القُوَّةِ لا يُمكِن أن تكون أنثى أصلاً.."

أَحِنُّ إليه الآن، حين أراه يبتَسِمُ وَيَضحَك؛ حين يَغضَبُ أو يَحزن، أشتاقُ إليهم جميعًا مع أنَّني لَم أغِبْ عنهم سِوى ساعاتٍ قليلة.. أمي وأبي، أشعر بالحنين إلى صوتِ إِخوَتي المرتفع وهُم يَصرُخون.. حتى بُكائُهُم، أحتَاجُ إليه الآن وأنا في هذه الوحدَةِ والصَّمتِ المُطبِق، التَّفاصيل التي كُنَّا نَظُنُّهَا مُعَانَاةً نَعيشُها تُصبح حُلمًا مَيْمُونًا حين نَنتَقِل منها إلى جحيم الصمت والخوف؛ لولا الألم لما شَعرنا بِطعمِ السَّعادة الغَابِرة!

رفعتُ قدَمَيَّ وحَوَّطْتُهُمَا بِيَدَيَّ وَوضعتُ وجهي على رُكبَتَيَّ فَتَذَكَّرْتُ هاتفي، وصِحْتُ مِن السعادة:

-الهاتف!

اتَّصلتُ بِيَقِين وانتظرتُ رَدًّا لكِنَّني لَم أَتَلَقَّه، لا أعلَمُ لماذا، هل أنا في مكانٍ بعيد؟ أين نحن بِالضَّبط؟ وكيف انتَقَلْنَا إلى هنا؟ ولماذا نحن دون الجميع؟ أين يَقَعُ هذا المكان على الخريطة؟ وهل نحن في زمانٍ آخرَ بِالفعل؟

حاولتُ تَشغيل كشَّاف الهاتف بَيْدَ أنَّني لم أتمكن من ذلك جرَّبتُ استِغْلاَل نُورِ الشَّاشة فَأَظْلَم فجأةً، وكأنَّه يرفُضُ أن يُنِيرَ هَاتِه العَتمَةَ التي وَجَدتُ نفسي بِها دون أن أعلم السَّبب.

رأيتُ نورًا ضَئِيلاً يَتَسَرَّبُ من بين ثَنَايَا سُتْرَتِي فتذَكَّرتُ الزهرة التي قطفتُها من الحقل الكبير، مدَدتُ يَدِي أنظرُ إليها بِاستغرابٍ وَقَد أضاءَ بَرِيقُها الزِّنزانة بِأكملها حين أخرجتُها من جَيْبِ سُترتي نظرتُ حولِي أستَطْلِعُ المكان فشعَرتُ بِالفَزَع، جَماجِم تُحيطُنِي من كلِّ جَانِب، وهياكِل لأجساد مقيَّدَةٍ إلى الجدار؛ وقفتُ من مكاني فشعرتُ بِحركةٍ حولي، قذفتُ حَجَرا نحوها فَانْدَفَعَ سِرْبٌ من

الصراصير وتسلَّل هارِبًا مِن الشَّقِ السُّفْلِيّ لِبَابِ الزّنزانة، شعرتُ بالشَّجَنِ حِينَها؛ أردْتُ لو كانت أمي هنا حتى تنادِي في فزَعٍ حين تَرَاهَا: "هداية.. صراصير.. أُقْتُلِيها".

اشْتَقتُ لِذلك بِالفعلِ.. اِبتسَمْتُ وأنا أتذَكَّر كلَّ تِلك التفاصيل الوحدةُ نَفَقٌ مظلم، موتٌ صامت، ومُعَاناةٌ مُسْتَمِرَّة.

شعرتُ بِحركةٍ جَسِيمَةٍ وَتَنَاهى إلى مَسامِعي هَمسٌ مَا فَأَخفَيتُ الزهرة بِسرعةٍ وأغمضتُ عَينَيَّ وتمتمتُ بِالدعاء لِأَسْتَمِدَّ القوة، حين تَخُورُ قُوَانَا وَتَخْذُلُنا؛ حين تُغادِرُنا الأَبْصَار وتعجز الألسِنَةُ عن الكلام، سَنُدْرِكُ كم نحن ضُعَفاء؛ وَنَسْتَيْقِنُ أَنَّنا هبَاءٌ مَنْثُورٌ مِن دون الله.

تقدَّم ذلك الرجل القبيح حامِلاً قِنديلا مُضيئًا وظهر جسده الفارِغُ من خلف قضبان الزنزانة، ثم لحقَتْ بِه فتاةٌ ترتدي ثِيَابًا مَاجِنَةً حمراءَ اللون أو هكذا خُيِّلَ إِلَيَّ بِسَبَبِ النُّورِ النارنجي المُتَأَرْجِحِ مِن القنديل المُتَدَلِّي مِن يَدِ ذلك البَشِع الذي دَفَن يُسراه في جَيبِ سُترته وأخرج مفتاحًا كبير الحجم لِرَأسِه شكلُ جمجمة وعلَّق القنديل على الجِدار بِيَدِه الأخرى ثم فتح الباب فَدَلَفَت منه تلك الفتاة مُتَمَايِلَة وكأَنَّها ثَمِلَةٌ أو بِرأسِها أَذًى عَنيف، كانت تحمِل خنجرًا أظهَرَتْهُ لِي عَمدًا حتى تُوحي بِشَيءٍ مَا لَكِنَّها لَم تَلْقَ مِنّي اِهتِمَاما، أحيانًا نحتاج التّجاهُلَ حتى نتَمَلَّصَ مِن كَربٍ ما، وَالتَّجَلُّدَ حتى نتعَلَّم اللاَّمبالاة التي تُمَكِّنُنَا من ذلك.

بَدَت غاضبةً لكنّها ابتسمَتْ بِسخرِيَةٍ وهي تَرْفَع رَأسِي بِأصابعها النّاعمة التي طُلِيَت أَقَاصِيها بِلَوْنٍ أحمَرَ قَانٍ أو رُبَّما كان أسود نظرَتْ إِلَيَّ بِاستِهانَةٍ وقالت:

-يا لكِ مِن فتاةٍ قويّة.. أين الخوف؟ حاوِلِي مَنْعَ دموعِكِ من الهُطُولِ الآن يا صغيرة، أريدُ أن أرى الفزَع بِعَينَيْكِ..

كان وجهي لا يزال مُحَاطًا بِأصابعها التي بدَأت تشْتَدُّ عليه وكأنها تُحاول أن تَخنُقَنِي، بَدَت عَينَاها الرَّماديَّتان حَمراوَتَين تحْتَ نورِ القِنديل المُتَآكِلِ مِن الدَّاخل، ولا زالَت ذاتُ نَظْرَةِ التَّجاهلِ تَعْلُو ملامحي، حَلَّت عَني فأخذْتُ نَفَسًا عميقا بينما قالت لِذلك البشع بِعصبيَّة:

-اِصْلِبْهَا.. لَن أقتُلَها بِسهولة!

تقدَّم نَحوي وعَلى وجهِه السَّمِيجِ بَسمَةُ مَكْرٍ تَزِيدُهُ قُبْحًا؛ صَفَّدَ يَدَيَّ دون أن يَلقَى مِنّي أدنَى مقاومة، كانت لِلأغلالِ سلسلةٌ مُمْتَدَّةٌ على بُعد مترين على الأقل، لِذلك كنتُ أسيرُ خلفَهُما بينما تُمسِكُ تلك الفتاة بِالسلسلة حتى تُقَيّد حركتي، استَدْرَجَانِي إلى نفقٍ مُظلِم لَولا ضوءُ القِنديل الضئيلُ المُتَهَالِك، رائحةُ الرّطوبةِ والدماء تَمْنَعُنِي من التَّنفّس، نظرتُ إلى السّقف المرفوع الذي تساقطَت منه قطراتٌ تُصدِرُ صوتًا عَمِيقًا عِند ارتطامها بِالأرض وأخذْتُ أهمِسُ فِي رَجاء:

-اللهم صبرًا.. اللهم جَبْرًا.. اللهم قوة.

بِأقصى الرِّواق كانت هناك غرفَةٌ ذاتُ بابٍ خشبِيٍّ مُهْتَرِئٍ رُسِمَ عليه صليبٌ كبير بِالدماء، ارتعَدَت فرائِصي حين اقتربْتُ منه فأغمضْتُ عَينَيَّ واستَمْرَرْتُ في الدعاء.

فُتِحَ الباب فَانْتَفَضَ سِرْبٌ مِن الخفافيش وتَبَعثَرَ في سَقفه الذي بَدَا غير محدود الإرتفاع، كانت هناك نافذةٌ أقصى اليَسار تُقْحِمُ بعض الدِّفءِ في قُرُوسَةِ البَرِدِ التي تَلْسَعُنِي، وصليبٌ هائلٌ

مُلَطَّخٌ بِدمَاءٍ جَفَّفَهَا طُولُ عَهْدِهَا بِخَشَبِهِ الأسود القَاسِي، رائحَةُ الجُثَثِ المُتعفِّنةِ تمْلأُ السّجن بِأكمله.. والظلام يَلُفُّ كلَّ النواحي لولا ذلك القنديل، اللون الأحمر المُنبعث منه يَبُثُّ داخِلي نُفُورًا غريبا، كنتُ أشعرُ بِوخزَةٍ في صَدري.. ألَمٌ ما.. اعتصرتُ عَيْنَيَّ وزفرتُ فَمَرَّ بِذِهني شريطٌ طويل من الذكريات خلال أربعَةَ عَشَرَ عَامًا مَضَتْ، حَيَاتُنَا بِالفِعلِ مَوَاقِف.. السِّنُّ لَيسَ إلاَّ عَدَّادًا لِلزَّمن الضَّائع، أمَّا الأيام الجميلة فهي لا تُحْتَسَب، لأنّها لَم تذهب هباءً لكن.. هل سَأموتُ هنا؟

اِستَحَالَ جِلدي جِلد إِوزّةٍ حين رَاوَدَني ذاك الهاجس، أَمُوت؟ في مكانٍ لَم أَرَهُ مِن قبل؟ بعيدًا عن أهلي.. وعلى يَدِ هذا المَسْخ، وتِلك الفتاةِ ذاتِ العيون الرَّمادية؟ هل سَأموت هنا؟ بَين هؤلاء البشر الذين لا يَعرفون حتى من أنا.. ولماذا؟ لا أعلم.

"أمْقُتُ الموتَ دون سبب" إن كان لا بُدَّ مِن الموت.. سَأموت بشرف، لكن ليس هنا.. أنا لَن أموت الآن.. ولا هنا.

ألقيتُ نظرَة من النافذة حين لَفَحَني ذلك النَّسيم العَليل فَرأيتُ هُوَّةً تُفضي إلى الجحيم أو هكذا خُيِّل إِلَيّ، وكأنّني على قِمَّة جبلٍ أثيرُه أخضرُ قِرمزيٌّ كَلون الزمرد، اجتاحَتْنِي رغبةٌ جارِفةٌ في البكاء.. لكن؛ لا يُمكِنُني فعل ذلك، لا يمكنني أن أضعف؛ ولا أن أنكسر، لا أريد أن أعجز.. سَأبقى قويَّةً هنا.. لا أحد في هذا العالم الغريب يستحِقّ ثِقتي حتى الآن بِاستِثناءِ أخي.. يقين.

بَدَوتُ حمقاءَ حين نطقتُ اسمه بِحروفٍ مسموعة، استدارَت تلك الفتاة نحوي بعد أن كانت تنتظِر ذلك المسخ الذي يَبحث عن شيءٍ ما حول الصّليب الخشبي، كانت ملامِحُها تقطرُ حقدًا

وكراهية، وتُكَشِّر عَن شَرٍّ دَفِين، بَدَتْ حَانِقَةً على كلّ شيء وبِعينيها نظرةُ عَدَاوَة تُوَجِّهُها نحوي دون سببٍ أعلَمُه، اِنطَلَق فجأةً اِرْتِطَامٌ قويٌّ اِنْخَلَعَ لَهُ قَلبي في خِضَمّ الصّمت المُطبِق الذي كان يَقْتُلُني بِبُطْءٍ وَيَرْمِي بِأفكاري في هاويةٍ سوداء، فَزِع الرَّجل القبيح والشابَّة رماديَّة العينَيْنِ حين اِنطلَق صوتُ عَدْوٍ يتردَّد بِسرعةٍ وكلماتُ أنثى ناعمَة تَقول نَقْلاً عن الصَّدى المُتكَرِّر في ذلك المكان المُخيف:

-إنَّها هنا.. لكنَّ معها رفقَة!

لَمَع نورٌ أزرقُ ظهرتْ على إثره فراشَةٌ شاحبَةُ اللون مُبهِجَةُ المنظر وكأنها بُرْهَانُ حياةٍ في مكانٍ مُغَلَّفٍ بِالموت فَصَرَّت على أسنانها وهَمَسَت بِحقد:

-نبرمان..

صاح شخصٌ ما مُسْتَرْشِدًا:

-هداية.. أَأَنتِ هنا؟

فتحتُ عينيَّ عن آخِرِهما وأنا أستَلِذُّ بِذلِك الصَّوت.. إنه أخي!

شعرتُ أنَّني وَجدتُ طَوقَ نَجاةٍ وأَنَا الغريقَةُ في بَحرٍ من القَطِرانِ الأسود فَصِحتُ بِسعادَة:

-يقين..

هَمَمْتُ أن أقول شيئًا آخرَ لكنَّني شعرتُ بِيَدٍ غَليظَةٍ تُحِيط عنقي حتى كِدْتُ أختنق، ظهرتْ زُمْرَةٌ من الجِيادِ على ظهورِها أربعةُ أشخاصٍ تفرَّستُ في وجوههم بُرْهَةً من الزمن، مَددْتُ يَدِي إلى يقين الذي تَرَجَّلَ عن الفَرَسِ فَوْرَ أن رأى الرَّجل القَبيح يُقَرِّبُ

خِنجرًا مِنّي وكأنَّه يُهَدِّدُه، تراجع إلى الخلف بِقلَّة حيلةٍ وقال بِانْدِفاع:

-ما الذي تُريده منها؟

لفَحَت أنفاسُه الكريهةُ وجهي وهو يُجيبُ بَعد نوبةِ ضحكٍ هستيريّة:

-أن أقتُلها بِبساطة..

قاطعَتْهُ تلك الفتاة ذات النَّظرةِ الحاقدة بِحِنق:

-أَو أن يَقْتُلَكُما إن أردْتَ تعبِيرًا أَدَقّ.

نَزَلَتْ فتاةٌ جميلة مُتَّشِحَةٌ بِلونٍ أبيضَ خَام حتى أَخْمُصِ قَدَمَيْهَا عَنِ الفَرَس وقالت بِغَضَب:

-هيلدا.. ماذا تَفْعَلِين؟

وضعتْ تلك الفتاة يَدها على وجهِها وَضَحكَتْ بِصوتٍ مرتفع قبل أن تُجيب بِمكر:

-كما تَرَيْن صغيرتي.. سَأقْتُلُها.. وَدَوْرُكِ آتٍ أيّتها الوردة البيضاءُ الجميلة..

اعْتَرَى الوُجُومُ وجوهَ الأَرْبَعَةِ وعَمَّ الصّمت هُنَيْهَاتٍ من الزمن حتى ظننتُ أنهم أُصِيبُوا بِالبُكْمِ فَلَن يَتحدَّثوا أبدا، تقدّم يقين خطوةً نحو الأمام فشدَّدَ ذلك الرجل على عُنُقي، أغمضْتُ عينيَّ حين شعرتُ بِدفءِ الدماء التي اِنْسَابَت مِنه وألمِ الجرح الذي سَبَّبَهُ ذلك الخنجر الغريب، أحيانا تتعدى مشاكلنا الصبر إلى العثورِ على حَلٍّ حاسِم؛ أحيانا يَسْتَلزِم الصُّمود اللاَّمُتناهي وقفةً قَاضِيَةً في خِضَمّ الصراع؛ وَتَصَدٍّ مُسْتَمِيتٌ لِمَهَبّ الريح، لِذلك.. قرَّرْتُ أن أتَّخِذَ مَوقِفًا، شعرتُ بِالتَّعبِ والدُّوارِ لكنَّني تماسَكتُ

وحاولْتُ تَوْجِيه قبضَةٍ إلى وجهِهِ الذي يُلامِس كَتِفِي، شدَّ على رقبتي أكثر فَشَخَّبَت الدماء من الجرح؛ بدَأَت الرُّؤية تَتَلاشَى والظلام يَعُمّ، رأيتُ وجه يقين الذي صاح زَاجِرًا فَزَامَنَتْهُ فَتَاةٌ قَفَزَت عَن فَرَسِها فَلاَعبت الرياح ثِيابها البنفسجية، وَسَهْمًا يَشُقُّ الضياء مُتَّجِهًا نحوي، ثم شعرتُ بِأَلَمٍ عنيفٍ في قدمي؛ وَتَنَاهى إلى سَمعي صوتُ شاب يَهتِف:

-لقد أخطأتِ الهدف يا تقى..

لم يكن صوت يقين، خَانَتْنِي عَينَاي، الظَّلام دامِسٌ هنا؛ هل سَأموت؟

سقطتُ أرضًا وتهاوَيتُ كَهُيُولى تَتَمَايَلُ في خَلِيَّةٍ تَالِفَة، وانبثقَتْ مِن بَين شَفَتَيَّ كلماتٌ دون وَعْيٍ مِنّي أَحْسبُها:

-أحبُّكَ يا أخي..

***

(يقين)

دوامةٌ مِن المشاعر.. اختلاطُ الأفكار، لا أعرِفُ ما عَلَيَّ فِعْلُهُ بِالضَّبْط، شعرتُ بِالألم وكأَنَّني أنا الذي بين يدي كهمس القَذِرتين الرّباطُ العميقُ الذي بَينَ الإخوَةِ يَجْعَلُهُم يَتَبَادَلُون ذاتَ الإحساس ليسَ من السَّهل أن تكونَ عاجِزًا تَتَخَبَّطُ هَائِمًا في مَوقِفٍ يَستدْعِي تَفْكِيرًا سَريعا، كنتُ أرى نفسي مُخَيَّرًا بين الإقدام وَالبقاء، وحين أردتُ التَّأَنّي في قَراري وجدتُ أَنَّني مُجبَرٌ على خَرْقِ ما أَمَرَنِي بِه ذلك القَبِيح، على كلّ حال، هو يُريد قتلها، نظرتُ إلى مراس الذي ظهر العجْزُ على ملامحه فَزَادَني تردُّدًا واضطرَابًا، قرَّرتُ مُبَاغَتَتَهُ لكنّ تلك الفتاةَ داهمَتْهُ بِقَوْسٍ غَرَزَتْهُ في ساقِ هداية مباشرَةً، تبدو

واثِقَةً مِمَّا تفعل؛ لا أظُنُّها أخطأَت الهدف كما قال مراس، كانَت تقول شيئًا ما بعد أن سقطَت على الأرض، لكنَّني لم أمتَلِكْ قابِلِيَّةً لِسَمَاعِها؛ بَيْدَ أنَّ أُذني التَقَطَت آخر ما قَالَته: "أحبّك يا أخي!".

تردَّدت تلك الحروف كثيرا في ذِهني فَشعرتُ بِها كَكَأسِ ميإه بارِدَةٍ وَهَبَتْنِي صَحوَةً مِنْ غَفْوَةٍ فَاستعدتُ رباطة جأشي وأسرعتُ نحو الأمام بعد أن اِنتشلتُ السيف الذي بِحَوْزَتي مِن غِمده واخترقتُ بِه جسد كهمس ثم حملتُ هداية بِسرعة وتركتُه يَتَأَلَّم على الأرض، توجَّهتُ راكِضًا نحو مراس والفَتَاتَين لكن هيلدا صاحَت بِعنجُهِيَّة:

-كيف تَجَرَّأتَ على ذلك؟

تَجاهلتُ صِياحها وامتطيتُ الفرس بعد أن وضعتُ هداية عليها، اللَّحظاتُ الحَاسِمَة بَين الموتِ والحياة كفيلةٌ بِأن تجعلَ قَلْبَك يَهْوِي إلى حَضيضٍ مُزْدَحِم بِالخوف والحيرة، عصبيَّةُ المَواقِف تخلق تصرفاتٍ غبية تَبْدُرُ عَنَّا في لحظةِ رَهْبَةٍ تَنْتَابُنا؛ حِينَ يَمثُل أمامنا هاجِسُ الفقدان.. سَنكونُ أُنَاسًا آخرين، مَصْقُولِينَ بِرَغْبَةٍ مُهَيْمِنَة في الانتِقام.. لِذلك؛ لَم أتمكّن مِن تجاهُل طَعنةِ الخنجر التي وجَّهَهَا ذلك المسخ إلى كتِفي، وَمِنَ الغريب أنَّني لم أشعر بالألم.. ربما بِسبب الغضب الذي سَيْطرَ علَيّ وأنا أرى أختي بين يديَّ عاجزَةً كَفتاةٍ غَضّة، صَرفت نظري نحو وجهه القبيح فإذا بِه يصيح حامِلاً ذاك الخنجر وَقَد هَمَّ بِالمُغَادَرَةِ بعد أن أمسك بِيَدِ هيلدا:

-حصلتُ على الدماء، لَنا لِقاءٌ آخرُ أيّها الفارِس، يُمكِنك اعتبارُ ذلك الجُرح وَعدًا بِإِنْهَاءِ حَيَاتِكَ لاَ غَير.

***

اتَّقَدَت بِعَينَيْ يقين نظرَةٌ صارِمَةٌ وهو يَخْطُو نحو ذلك الرجل القبيح بينما يَنْضحُ جرحه بِالدماء، اِقتحَم المكانَ فجأةً رجُلٌ بشوشُ الوجهِ ذو شعرٍ طويل ومَعَهُ آخَرُ أشعثُ غَيرُ حَلِيقِ اللحية وَصَاحَ:

-يقين.. لا تترُكه يأخذ الخنجر!

اِلتَفَتَ نحوَه وَاستَغرَبَ مِن مَعْرِفَتِه لِاسمِه وهو لَم يَرَهُ من قبل تبادلَتْ تقى مع نبرمان نظرةَ تحفزٍ وهما تَضَعَانِ يدَيْهِمَا بِبَعْضِهما وَتُغمِضان أعينهما في حين استوقفَتْ هيلدا كهمس مُنْدَهِشَةً مِمَّا ترى، سَكَنَت الفراشات على جَسَدَيْ الفَتَاتَيْن واسْتَحَالَتْ أجنحَةُ بعضها بنفسجية وأخرى بيضاء، اِرتَجَّ الكتاب الذي في حقيبة آبنوس فَفَتَحَها بِذُعرٍ وَتَوَجُّس، هَدَأَ جسدُ يقين وِالتَأَمَ جرحُه فجأةً وحَلَّق الكتاب حتى اِستَوَى أمام عينيه فَمَرَّرَهُما على غِلافه وقرأ بِصوتٍ مَسموع:

-"مملكة الكلمات"

تَفَتَّتَتْ صَفحاتُه وهَوَى على الأرض وكأنّه هشيمٌ تَذرُوهُ الرّياحُ وعَصَفَ رمادُهُ حول يقين وهو مأخوذٌ بِذَاكَ البرِيقِ الوردِيّ الذي يَتَخَلَّلُه، شعَرَ بِحَكَّةٍ في ظهره حين أخذتْ ذرَّات الكتاب تلتَصِقُ بِهِ بِشكلٍ غَير مَسبُوقٍ وَجَسَدُهُ يَرتفِع عن الأرض، أغمَضَ الجميعُ أعينَهم حين أَصَابَتهَا الرِّمال الهائجَة والنورُ المُتَوَهِّجُ العظيم، أَفْلَتَتْ الفَتَاتَانِ أيْدِيَهُمَا فَارتَطَم يقين بِسطح الثَّرى الرَّطب، نظر مراس إليه حِين سَمِعَ صوتَ اِصْطِدَامِه وصاح مع آبنوس بِنفسٍ واحد:

-لَدَيهِ أجنحة!

وقف على قدميه يتحسّس ظَهره بِألمٍ ثم اندَفَع نحو كهمس وكأنّه تَدَارَك الموقف فَأثَار رِيَاحًا قويَّةً بِجَنَاحَيْهِ السّودَاوَيْن وَهو يَصْطَفق بِهِمَا وشعرُه يُلاعِبُ جَبِينَهُ وَيَتَمرَّد عليه كَشجرةٍ تَتمايل مع الرّياح، ماجَ جسد كهمس وهيلدا وهَمَّا بالرحيل لكن يقين صاح مُمْسِكًا بِطرَفِ ثَوبِ ذلك الساحر:

-ليس الآن، عليكَ أن تَرشُف من الألم الذي سَبَّبتَهُ لِتلك البريئة المُلقاة على الفرس.

هزّت تقى رأسها دون أن تنطق وصَوَّبَت سَهْمًا إلى ساقِ كهمس فَانطَلَقَ بِوَمِيضِهِ البَنَفْسَجي واخترقَ قدمه فَصرخ صرخَةً صُعِقَتْ لَها الخفافيش المُعَلَّقَةُ على السّقف المُرتفع، اِغتصَبَ يقين الخنجر من يَدِهِ فَبَقِيَ يَتَدَلّى في الهواء بينما عَادَ الشاب حيثُ أختُه واِمْتَطَى الفرس بِسرعة فَسمع أَنِينَها المُتَواصل، كانت تَتَأَلَّمُ جَرَّاء جراحها شعَر بِالذَّنب نَحوَها فَوضَعَ يَدهُ على جَبْهَتِهَا وَهَمَس:

-أسألُ الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يَشفيك.

أصابَت حُمّى شديدةٌ جسدَها فجأةً وأخَذ وجهُها يتصبَّبُ عرَقًا احمَرَّت وَجنَتَاها وأخَذَت تلْهَثُ بِسرعةٍ ثم تَلَاحمَ جِلدُها واخْتَفَتْ جِراحها وَجَفَّتْ دِماؤُها وهي تفتَحُ عَينَيْها بِبُطْءٍ تزامُنًا مع صَيحةِ دهشَةٍ أطلَقَها يقين وَخَرَّ مراس على إِثرِها ساجِدًا؛ تراقصت الدموع في أعْيُنِ الفتاتيْن وهما تَقتَرِبَانِ من الفتاة التي قالَتْ بِوهنٍ وهي تبتَسِم ناظِرَةً إلى أخيها:

-يبدو أنّك دعوتَ الله أن ينجيك مِنّي بِالفعل.

ابتسَم بِاشْتِيَاقٍ وَاحتضَنَها بَغْتَةً فَطَالَتْ رِياحٌ عَنِيفَةٌ جميع الحضور، ظهرَتْ أطيافٌ التفَّت حولهُم وحاصَرَتْهُم بينما كان

كهمس يُؤَدِّي طُقوسًا غريبة على الهواء بعد أن وضع هيلدا على الأرض، نظرَت نبرمان وتقى إلى الأطياف السوداء التي أخذت أعدادُها تزداد بِسرعة هائلَةٍ فهمَسَت هداية بعد أن لاَحَظَت ذلك:

-أطياف..

انتفَض كهمس وَوَجَّه سَبَّابَتَه نحو الأخوين وَبَرْبَرَ:

-أُقْتُلُوهُما..

تهافتَتْ تلك الأجساد السوداء على الفتاة التي تمَسَّكتْ بِأخيها وقالت بِعجز:

-يقين..

صَدَّ ضربةً وُجِّهَت نحوها وهو يرَدِّدُ مُطَمْئِنًا:

-وَاللّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْك بِجَمْعِهِم

حَتَّى أُوَسَّدَ فِي التُّرَابِ دَفِينَا

بَدَا كَوالِدٍ يرعى بُنَيَّتَهُ وهو يحاول بَعثَ السّكون إلى روحِها بِكلماتِ أبي طالب لِرسول الله ﷺ، تقدمت نبرمان فتبِعَتْهَا تقى وَمَدَّتا يَدَيْهِما إلى هداية وهُما تقولان:

-حانَ دورُكِ يا هداية.. الآن تستطِيعِين فعلها..

-ماذا؟

أضافَت تقى مُجيبة:

-ثِقي بِنا..

وضعَت يديها في يديْهِمَا وَهُمَا عَن يمينها وشمالها فِاسْتَطْرَدَت نبرمان مُرْشِدَة:

-اِفْعَلِي مِثلنا.. واِطْمئِنِّي.

أغمَضْنَ أعيُنَهن فارْتَفَعْنَ عَن الأرض وكَوَّنَّ حلقةً فأخذَت ألوانٌ رماديّةٌ وبنفسجيةٌ وبيضاءُ بَرَّاقَةٌ تَضْوِي وتَمْنَعِ الرؤية عن الشُّهود على ذلك، تخلَّلَتْ أسياخٌ انطلقَتْ من أجسادِهِن تلك الأطياف فتمزّقت كُلَّ مُمَزَّقٍ واندَثَرَت كأن لم تكن.

شعرَ كهمس بِالفزع فأَحَاط هيلدا بِسُتْرَته وَاِخْتَفَى جَسَدُه في الأثير مغادِرًا المكان وعيناهُ تَسْتَعِرَان غضَبًا؛ نظرَت هداية إلى أجنِحَة يقين وصاحَت حين وَطَأَت الأرض:

-جنَاحَان.. سَودَاوَان!

كانت عَيْنَا مراس تَرْشَحانِ أسئلَةً وفُضولاً حِينَ رَمقَهُ مُبْتَسِمًا ثم قال مُخاطِبًا تقى في اِمتِنَانٍ:

-آنسَة تقى.. أشكرُكِ على ما قَدَّمْتِه، تصَرُّفُكِ كان حكِيمًا..

حملقَتَ فِيه بِبَراءَةٍ وقالت بِاستِغرَابٍ:

-أَلَن تسْأَلَنِي عن سبَبِ توجِيهِ السَّهم إلى ساقِ أختِك؟ أنت تعلَمُ أنَّني تعمَّدتُ ذلك.

مَسح على رأسه وأجاب مبتسِمًا:

-بِصراحة.. قرأتُ عن ذلك كثيرا، يتكرّر الموقف في وُجودِ رَهينَةٍ مُهَدَّدة، وذلك لِتصبح أثقَل بِسبب جُرحها وتفقِد الوعْيَ فَيُصْبِحَ من الصعب حملُهَا وَالتَّصَدّي لِلضَّرْبَةِ التي وُجِّهَت إليها.

هَزَّ مراس رأسه وقال بِبَلاهة:

-يا لِلذكاء..

لاَح شبحُ ابتسامَةٍ على شَفَتَيْ آبنوس حَين التفَتَ الجميعُ نحوَه بِفضول وَسَألُوا بِنَفَسٍ واحد:

-هَل تَعْرِفَانِ بَعضَكُما؟

صَحَّحَ ذلك الكاتِبُ قائِلاً بِحَذَرٍ وَهُوَ يُحَاولُ أن يَبْدُو هادِئا قَدْرَ الإمكان:

-يُمْكِنُكُم القَول أنّني أعرِفُه جيّدًا.. كلّ شارِدَةٍ وَوَارِدَةٍ تَبْدُر عنه حتى مشاعِرُه؛ وظُنُونه، وتفاصيلُ حياته المُهْمَلَة، آلامُه وَمخاوفُه أحلامُه وهَوَاجِسُه؛ كَوابِيسُه ووحدَتُه، وطَيَّاتُ نفسِه الدَّفينَة بَينما هُو لا يعْرِف شيئا عنّي.

سألتْ نبرمان بِدهشة وعَدَم تصديق:

-كيف ذلك؟

تنهَّد وهو يقول مُوَضِّحًا:

-إنَّه شخصيَّةٌ في كتابٍ.. كتبتُه أنا!

هتَفَ الجميع بِنَفسٍ واحدٍ مستَبْعِدِينَ لِما يقول:

-مُستحيل!

أضاف يقين حين أراد أن يَتَبَيَّن صِدقه:

-ماذا عَن هداية؟

-أعرِفُها أيضًا.. إنها تُشْبِهُكَ أيُّها الشابُّ الطَّيِّب، إنّها نسخَةٌ مُصَغَّرَةٌ عنك، إنها أنتَ بِطَريقَةٍ أنثى، فتاةٌ مُصَاغَةٌ مِنك.. وهي أصغر مِنك بِسنتين..

-كيفَ تعرِفُ كلّ ذلك؟

-سأُخبِرُكُم عَلى الطريق..

***

غَشِيَت الأرضَ سَحابةٌ مِن الضبابِ حامِلَةً معها بَردًا قارِسا كان ذلك العجوز يجلِسُ بِوَقَارٍ على كرسيٍّ خشبِيٍّ بسيط؛ يشعر بِالتعب يَنخرُ عِظامه، وهو الشيخ الذي تجاوز عُمرُهُ التِّسعين

واشتعل رأسُه شَيْبًا وهَبَطَت وَجْنَتَاهُ على فَكَّيهِ، وحاجِبَاهُ اِنْسَدَلاَ على عينيه، وَاِمْتَلأَ وجهُه الطَّيِّب بِالتَّجاعيد التي تَنِمُّ عن طول عهدِهِ بِالحياة، وتُخبر عن ماضيه التَّليدِ، جَلْجَلَ صوتُه الذي أصدرَه بعد أن تماسك قَدر الإمكان وهو يقول بِغضبٍ جامح:

-ماذا تَظُنِّينَ نفسك فاعِلَةً يا هيلدا؟ أتعلَمِين ماذا سَيحدث لو انفَصَلت المَمْلَكَتان؟ الكتُب.. جمِيعُ حروفِها سَتَنْضب، الكثيرُ من الخَرَاب سَيَعُمّ، سَتَنْدَلِعُ الحرب، ولن تخلُد نَفَحَاتُ الخيال كما في السّابق؛ أنت تُقدِمِين على شيءٍ لا يُمكِنكِ تحمُّل عواقِبه!

أَحْنَتْ رأسها في فَزَعٍ وهي تُحاول صَرف ناظِرَيها عنه حتى لا تُثِيرَ غضبه أكثر لكنَّه صاح مُضِيفًا:

-لماذا حَرَّرتِ كهمس مِن سجنِ الجبل؟

تنهَّدت وتحاشَت النَّظر إليه فأَعادَ سُؤالَه بِغِلْظَة:

-لِماذا حرَّرتِ كهمس مِن سجن الجبل؟

رفعَت عَيْنَيْهَا إليه وأَطَالَت الحَمْلَقَةَ بِمُقْلَتَيْهِ المُخْتَلِفَتَي اللون بين البنفسجي في العَين اليمنى والرمادي في اليسرى بِذُلٍّ قبل أن تُجيب بصوت خَفِيض:

-آسفةٌ يا جدّي، لقد كان خَطَأً.

قاطَعَهَا هاتِفًا:

-خطأ؟ هل تعلَمِينَ ماذا فعلتِ بِتصرُّفِك الأحمق؟ لقد ماتَ الآلاف من البشر، لماذا؟ بِسبب خطأ، أتظُنِّينَه أمرًا مَعقُولاً ذاك الذي حصل؟ هؤلاءِ الأبرياءُ لَيسوا ملْكًا لكِ حتى تُقَلِّبِي أحوالَهُم كَيْفَمَا شِئْتِ، حُلِّي عنهم، فَلْيَعِيشُوا بِسلامٍ كما خلقهم الله لِيَفعلوا

أنتِ في النهاية أَمَةٌ ضعيفة، لا يَحِقُّ لكِ تَشويهُ حَيَوَاتِ الآخرين.. إنْ لَم تَكوني غيثًا نافعا على قَحط أرواحهم؛ فلا تكوني إذن شيئا!

صَفّق بِيَديه الاِثْنَتَيْنِ وَأَرْدَفَ مُخاطِبًا الحارِسَيْنِ اللذَين عن يَمينِها وشمالها:

-صَفِّدَا يدَيها وخُذَاهَا إلى زنزانةٍ انفراديَّةٍ في سجنِ الجبل وَابحَثَا عن كهمس وزُجَّاهُ في أخرى.

لمعَت الدُّموع في مِحْجَرَيها وصاحَت مُسْتَنْكِرَة:

-أنا حفيدتُكَ يا جدي، كيف تفعَل ذلك بي؟

أخَذَ نَفَسًا عَمِيقًا وقال بِحِكْمَة:

-أنتِ ظالِمَةٌ مَهما كانت مَكَانَتُكِ بِالنِّسبةِ لِي، الحقُّ حقٌّ وَلَو كان مُؤْلِمًا؛ يجب أن تُعَاقَبِي يَا اِبنَتِي.. سَتُعْدَمِين!

***

-أمان.. كُتُبُكِ لَم تَحْتَرِق بِالرّغم مِن أنّ غرفتكِ مُتَفَحِّمة!

هَرْوَلَتْ أَمَان نَحو مصدرِ صوتِ هوف وَارْتَمَتْ على الكُتب المُلقاةِ على الأرض وأخَذَت تَلْثُمُهَا بِغَيْرِ تصديقٍ وهي تقول بِعِرْفَان:

-"نحن نَموت.. الكُتُبُ لا تموت".

لَمْلَمَت تلكَ المجلَّدَاتِ والدَّفاتر وحمَلَتْها بين يديها ثم أضافَت:

-الكتب تُربّتُ على جُرُوحِنا يا هوف، يُمكِنُها أن تُوَاسِيَنَا وتَمْنَحَنَا العَزَاءَ حين تَرَى دُمُوعَ الخيبَةِ في عُيُونِنا؛ وهي الوَحِيدَةُ التي تحفَظُ أَسْرَارَنا بَين دِفَفِها، لِذلك.. "الكُتُب لا تَفنى!"

هزَّت رأسها لِتَصرِفَهَا عَن هذا الحديث حِين شعرَتْ بِالاِشمِئزَازِ منه وقالَت بَعدَ تفكِيرٍ والحزْنُ يَلُوحُ مِن صَفَاءِ عَيْنَيْهَا:

-أمان.. أيْن سَنذهب الآن؟

تنهَّدت بِعمقٍ وأجابت:

-لا خيَارَ أمامنا.. سَنعيشُ في بيت عمي!

-سَيهدِمُونَ البيت غدا!

انْقَبَض قلبُ أمان وهي تهمِس فِي تَسْلِيم:

-فَلْيَكُنْ.. مِنَ الأفضلِ أن نقتُلَ الأماكِنَ المُتَعَلِّقَةَ بِالفُقدَان، حتى تُغادِرَ طَيَّاتِ الذاكرة.

تَنَفَّسَت الصُّعَدَاء واستأْنَفَت:

-بِشَكلٍ أو بِآخر.. عَلينا أن نَنْسى، وَسَتُجْبِرُنَا الأيام على ذلك!

مَدَّت هوف يَدها إلى إِحْدَى الكتب التي تحْمِلها أمان وفَتَحَتْهُ محاوِلَةً توجيه دِفَّةِ الحديث بعِيدًا عن الموت، قَلَّبَتْ صفحَاتِه بِمَلَلٍ وأعادَتْهُ إِليها وقالت بِاسْتِهْجَان:

-هل كان هذا الكِتابُ فارِغًا مِن قبل؟

-أبَدًا..

تصَفَّحَت بعضَ الكتب التي بين يديها وهي تردِّد مُسْتَنْكِرَة:

-جميعُها فارغة!

***

(بعد ثلاثةِ أشهر)

زلزالٌ عنيف ضَرَب تلك الأرض اليَانِعةَ فَأَقْفَرَت فجأةً، وَامْتَدَّ فالِقٌ هائِلٌ تَخَلَّلَ الأرضَ كَوَدَجٍ يَلْتَفُّ حول الغابة التي كانت وَدْفَةً خَضْرَاء، فَتنتَصِب مِن هُوَّتِهِ الواسعة أغصَانٌ أصلُها ثابت وفرْعُهَا في السَّماء، تَضُمُّ أَشْوَاكا تَنْطَوِي على الأرضِ فَتبكِي سَمَاؤُها وَيَشْتَدُّ البرْدُ عليها، هرْوَلَ آبنوس نحو منزل مراس حيث يَنتظِرُه رفقة يقين لِيحضِر نسخَةً مِن كِتابِ "مملكة الكلمات"، مُحْتَمِيًا مِن المطرِ

وَقلبُه يَنْتَفِضُ قَلَقًا على شظيَّةٍ منهُ تَرَكَها فِي منزِله، دَخَل بِسُرعة وألقَى عَن كتِفَيْهِ تلك السُّترةَ الجِلدِيَّة التي كان يرتدِيها فَقابلَهُ مراس بِدِثَارٍ دافِئٍ وقَدَّم له يقين قَدحَ قهوَةٍ فَقال وَأطرافُه تَرْتَعِش:

-هَل عادَت الفَتياتُ إلى القصر؟

هَزَّ الشابَّان رأسَيْهِمَا مُطَمْئِنَينِ فَالْتَزَمَ آبنوس الصّمت وَارْتَشَفَ من القدح الذي بين يَديه ثم همس بعد مُدَّةٍ وَجيزة:

-اِنفَصَلَت المَمْلَكَتَان.. لَن أتمكَّن مِنَ العودة إلى منزِلي بعد الآن.

سأل مراس بِأسف:

-هل بيتُك خلف الغابة؟

اِكتَفَى بِهَزّ رأسِهِ بِإيجَابٍ فَأضافَ بِحزن:

-هل لكَ أهلٌ هناك؟

تنهَّد وأجاب:

-زَوجَتي.. أمان، أمي وأُخْتَايَ الصغيرتان..

ربَّت يقين على كتِفه وقال مُواسِيًا:

-رَبَط الله على قلبك وأَعَانَك..

عَقَّبَ مراس على كلامِه:

-جميلٌ صبرُكَ يا آبنوس، الحُبُّ الصادِق يُسقَى بِالتَّعَفُّفِ والِاستِعْصَام، وَتَقْيِيدِ النفس بِسَلاسِل الحياءِ عن فعل الحرام وإيمانٌ يخبِرك أن من ترك شيئًا للَّه.. عَوَّضَهُ الله خيرًا مِنه، فَتَترُك الحرام لِرَجَاءٍ لكَ عند الله، وَبِأَمَلِ اللقاء المُطَيَّبِ بِالحلال.

وَكَزَ السَّيِّدُ رامان اِبْنَهُ على كتِفِه وَهَتفَ مُمَازِحًا:

-عَمّن تتحدث أيُّها الوَلْهَان؟ ولِمن تشتاق؟

ابتسَمَ آبنوس وقال مُقَلِّدًا:

-لِ[نَبرمانَ] التي قَدْ تَيَّمَتهُ

فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مِنْهَا شِفَاءُ

نَظر إليه يقين همس مداعبا:

-أنتَ تسرِقُ بَيْتًا شِعْرِيًّا يا رجل! هذا قَوْل حَسَّان بن ثابت في شعثاء!

-ظننتُك عِلْمِيًّا أيها الفتى، لقد فَضَحْتَنِي.

مَسَح على صدره وَقَال مُتَبَاهِيًا:

-أخبرتُك أنَّك لا تعرِفُ كلَّ شيءٍ عنِّي، طَلَبَةُ العلوم والهندسة لَيسوا بِأَقلّ ثقافَةً أدبيَّةً مِن طلبَةِ اللغة والأدب، نحنُ نَجْمَعُ بَيْنهُما ونُحاوِل التَّوسُّع في دراسة الِاثْنَيْن، نحن لا نُؤْمِنُ بِالتَّخصُّص.

ضَحك آبنوس وهَمَس يَتَصَنَّعُ الخيبة:

-لقد هزمْتَنِي إذن أيُّها المُهَندِسُ المُسْتَقْبَلِيّ.

تغيَّرَت نظراتُ مراس إلى الحزن فَمَسح يقين على كتِفه وتمْتَم بِتَفَهُّم:

-لا تقلق، ما قَدرهُ الله لكَ سَيَأتِيك.. وَمَا لَم يكْتُبهُ لك بِتَعَلُّقِكَ بِه سَيؤلِمُك حين يَنْجَلي عنه السِّتار.. وسَيكونُ غَلِيلاً يُضْنِيكَ، فقط تَمَاسَك.. فَأَنتَ لَم تُولَد لِتَنْهَار!

أرسَل في الهواءِ زفرَةً حارَّة وقال بِانكسار:

-دَعَوَاتك يا.. أخي..

شعَر الثَّلاثَةُ بِشيءٍ من الحَميمِيّة بَدَأَت تَنْشَأُ بَينهم، كانوا قد أَلِفُوا بَعضَهُم كَإِخوَةٍ مِن نَفْسٍ واحِدَة؛ اِبْتَسَمَ السَّيِّدُ رامان وقال:

-يَبدو أنَّك سعيدٌ مع أخويك يا مراس.

صاح بِفخر وهو يَلكُمُ الِاثنَيْنِ:

-بِالطَّبع يا أبي، إنَّهما لَطيفَان جدًا..

هتَفَ يقين بِمَرَحٍ مُقَطِّبًا حَاجِبَيْهِ الفَحْمِيَّيْنِ الكَثَّيْن:

-أيُّها الشّاب الصلب، أنا بَشَر.. لا يُمكنكَ ضَربِي بِتِلك الطريقة!

-حسَنا أيَّتها الفَزَّاعةُ الهَشَّةُ المُجَنَّحَة، لن أُعِيدَها.

قبَض يقين يَده وَوَجَّه ضرْبَةً قويَّة إلى كَتِفِ مراس الذي صَرخ بِأَلم وقال لآبنوس:

-ما رأيُكَ أن تَقرأ لَنا بَعْضًا مِمَّا دُوِّنَ فِي الكِتابِ قبل أن يَقْتُلَنِي هذا الأسمَرُ ذو العيون العَسلِيّة؟

اِسْتَوَى على كرسِيٍّ مِن الخشبِ العَرِيقِ وفتَح الكِتاب عشوائيًّا ثم أَفْتَرَ عَن بسْمَةٍ حَانِيَةٍ وقرأ:

-"رُبَّ دعوةٍ صادِقَةٍ فُهْتَ بِها وَطَوَتْهَا الأيّامُ في سِجِلِّ النِّسيان؛ كانَت نَجَاتَكَ حين تَقَطَّعَت بِكَ السُّبُل، كانَ يَتمَنَّى لَو ينسى ما أخبَرْتَهُ بِه الأميرَةُ الكبرى، لقد تركَتْ شَرَارَةً في قلبِه تقدَحُ نارُهَا في أضلعِه؛ لم يكُن يتصوَّرُ أنَّ الظُّروفَ قد تكونُ قاهِرَةً بِتِلْكَ الطّريقة، وَربّما أصَابَه بعضُ اليأسِ فَكَانَ يُهَمِّش التّفكير في الأمر.."

تنَاهى إلى مسامِعِهِم طَرْقٌ خفيف أشعرَهُم بِالفَزَعِ فَقال مراس مُهَوِّنًا:

-سَأَرَى مَن الطَّارِق..

فَتَح البابَ ثم عَادَ بعد مُدَّةٍ وَجِيزَةٍ فَوَجَدَ العُيُونَ تَلْتَهِمُهُ بِأَسْئِلَتِها وسَمع سُؤَالا يَتَخَلَّلُ وُجُومَهُمَ:

-من هناك في هذا الوقت المتأخّر من الليل؟

-أنا ذاهِبٌ، لن أتأخَّر.. هناك أمرٌ مُهِمٌّ عَلَيَّ القِيَامُ بِه.

تَدَاول آبنوس ويقين نظرةَ فضولٍ في حين خرج مراس ثم نظر إلى تلك الفتاة المُتَّشِحَةِ بِالسَّوَادِ وسأل بِحَذَر:

-كيفَ خرجتِ من السِّجن؟

-أَتُرِيدُ حِوَارًا بِشَأْنِ ذلك؟

-ماذا تُرِيدِينَ مِنِّي يَا هيلدا؟

***

كانَت نبرمان تقِف عند الشُّرفة المُطِلَّةِ على الحديقةِ الأماميّة تُراقِب النُّجَيْمَاتِ المُتَدَلِّيَةَ من السّماء، والتي في مَنْأى عن الغَمام المُتراكِم في صَرِيمِها وَتَتَنَشَّقُ عَبَقَ المطر المُنعِش؛ وَعَنْ يمينِها تقِفُ تُقى وهِداية بِجانِب بعضِهما صَامِتَتَيْنِ وَكَأَنَّ على رَأْسَيْهِمَا الطَّير أرادَت هداية كَسْرَ طَوْقِ الخَرَسِ الذي أَصَابَهُنَّ فَسَأَلَت بِاهتِمَام:

-منذُ متى تُحِبّينَه يا نبرمان؟

شعَرت بِالخجل لكنَّها تنهَّدت وأجابت بِحياء:

-أَتُصَدِّقِين..لقد كنتُ أكرهُ مراس.

صاحَت الفَتَاتَان بِنَفسٍ واحد:

-لماذا؟

-كان ابنَ سِتَّ عشرةَ عامًا حين أتى لِلعيش في مِنْطَقَتِنَا، أظنّه كان يعيش في مكانٍ آخرَ مِن المملكةِ قبل ذلك؛ وكان يَحْظَى بِإِشَادة رئيسِ الجُند السّابق وأبي وأمي وجدّي، الجميعُ كانوا يُحِبُّونَه ويَهْتَمُّونَ بِه لأنه كان قويًّا، كان يبدُو مِثَالِيًّا جِدا آنَذَاك بِالنِّسبة لهم، حتى إنّهم كانُوا يُصَدِّقُونَه وَلَو أتى بِالأَعَاجِيبِ! كان حَيِّيًا وَلا يَزال، مُتَأَدِّبًا في لفظه وتِبْيَانِه، قويُّ الحضور طيّبُ الوُجُودِ، وقد

أَوصى رئيسُ الحرس بِأن يَخْلِفَه بعد موتِه لأنه أَقوى جنودِه وَأَسْرَعهُم تعلُّمًا.

-لكن.. كيف تغَيّر شعورك نحوه؟

-الحبّ ليس شعورًا يَنْبَثِقُ فجأةً.. ومِن العدم، إنه يُصقَل بِالزّمن وَتُحْييهِ الذاكرة أو يُمِيتُه الإهمَال؛ لَن أعرِف متى بَدَأَ وَلاَ عِندَ أيِّ مَدًى سَيَنْتَهِي، وَلَنْ أَتَمَكَّنَ مِن الإجابة أبَدًا عَن هذا السؤال.

عَتَتْ رياحٌ قويَّةٌ مَرَّتْ على خصلاتِ شُعُورِهِنَّ فَرَفْرَفَتْ كَتِلْكَ الفراشاتِ الزرقاءِ اللَّامعة كَنُجومٍ تُحِيطُهُنَّ وَكَأَنَّهَا تُنْصِتُ لِحَدِيثِهِنَّ دخَلت تقى إلى الغرفة وَأَطْفَأَت المصباح ثم اِرْتَمَتْ على سريرِ نبرمان وأخذَت تقفِزُ عليه كَفتاةٍ صغيرة وَتَصيحُ بِمَرح الطُّفولة:

-إنّه ناعِم.. أشعُر بِالنّشاط، وأُريد أن أقفِزَ حتى الصباح.

ضَحكَت الِاثْنَتَانِ فَتَزَحْلَقَتْ تقى في حَرَكَةٍ اِستِعْرَاضِيَّةٍ وَوَقَفَتْ أمامَهُما وكأنها كانت تُؤَدّي مَشْهَدا مَسْرَحِيًّا، عادَت حيث كُنَّ على الشّرفة فِانْتَظَرَت هداية سُكُونَ الرّيح لِتَقُولَ مُوَاسِية:

-"فَصَبْرٌ جميل" يَا نبرمان..

همسَت بِتأثُّرٍ وهي تُعَلِّقُ ناظِرَيْها في الفراغ:

-على كُلٍّ.. أنا أُجاهد نفسي، حين يَتَعلق الأمر بِالقلوب.. فَلَيس لَنا إلا الدعاء.

اِبتسمَت تقى وهي تُوَقِّعُ كلماتِها بِحنَان:

-التَّغلُّبُ على الهواجِس حربٌ أيضا، حياتُنا حُرُوب.. والحبّ حربُ المبادِئ، نُحاوِل أنْ نَخُوضَها دون أنْ نَخسَر قِيَمَنَا، الألمُ حربُ الذّاكرة؛ والفقْدُ حربُ النِّسيان، الأمل حربُ ظلامِ الوُجُود

وَمِيتافيزيقيّةُ أحلامِنا حربُ اليأس؛ ودِفاعٌ عن براءَةِ الطُّفولة والظُّلم.. حربُ الإنسانيَّة!

تَاهَت هداية بِعَيْنَيهَا في تفاصيلِ السماء وقالت بِشرود:

-أَتَسَائَل.. هل يَشعُرُ الرّجال بِمِثلِ هذا الشعور؟ هَل لهم نفسُ آرائِنا فِيمَا يَتَعَلَّق بِالحُبّ مثَلاً؟ أريد أن أجرّب مشاعرَهُم، أن أسْتَبْدِلَ قلبِي بِقَلْبِ رجلٍ لأعرف كيف يَشعر.

ضحكَتْ نبرمان وَتَمْتَمَتْ:

-أشعر بِالاطمِئْنانِ حين أشكو بَثّي لِشخصٍ يفهمني، فَكيف إذا كانَتَا اِثْنَتَيْن..

غَمَرَهُنَّ سُكونٌ خَفيف قُلْنَ على إِثْرِهِ مَعًا:

-فَكَيف إذا كان خالِقَهُمَا..

تبَادَلْنَ نظرةَ دهشَةٍ وَأَفْوَاهُهُنَّ تُسفِر عن اِبتسامَةٍ طَيّبَةٍ في حين قالَت تقى:

-نحنُ نفكّر بِطريقةٍ مُتَشَابِهة.

صَاحَت نبرمان وهداية بِغير تصديق:

-مُذْهِل!

-أُريد أن أعرِف كيف يَقضِي الشباب وقتَهم في بيتِ مراس.

رفعَت تقى أَحَدَ حاجِبَيْها وسألت بِفضول:

-ماذا كُنتُمَا لِتَفْعَلاَ لَو كُنْتُمَا رَجُلَيْن؟

فَكَّرَت هداية قلِيلاً وأجابَت:

-أذهبُ إلى المسجِد، إلى قِسْمِ الرّجال.

أَطْرَقَتْ نبرمان كثيرًا قبل أن تقول:

-يمكنكِ فعلُ ذلِك دون أن تُصبِحِي رَجُلاً!

هَمْهَمَت تفكّر ثم أضافت بِطموح:

-عَنِّي.. أكُونُ بادِرَة خيرٍ لِكُلِّ حَيّ.. وَشُعْلَةَ عَزْمٍ في كلِّ نفسٍ مَوْءُودَةٍ في تُرْبَةِ اليَأس، أُرِيدُ أَنْ أَجعَل مِن هذا العالم مَكَانًا أفضَل!

-يُمْكِنُكِ فِعْلُ ذلك أيضًا، ماذا عَنكِ يا تقى؟

أخذَت نَفَسًا عَمِيقًا فَوَمضَت فِي عينيها شَرارَةٌ مُلْتَهِبَةٌ وهي تَقول بِتَحَسُّر:

-أَنْتَقِم.. أقتَصُّ لِكُلِّ نفْسٍ بَشَرِيَّة قُتِلَت ظُلما، لِكلِّ طفلٍ بَريءٍ دُمِّرَت إنسانيَّتُه حَيْفًا وَجُورًا؛ لِكُلِّ مَن ذاقَ وَبَالَ الألَم.. وَعَانَى غُصَّة الفقد والحِرمان، وأَمْسَحُ عَلَى رؤوسِ هؤلاء لأُخَفِّفَ عنهم وَطْأَةَ مصائِبِهم، وأرْسُمُ البسمَةَ على وجوههم حيث حللتُ؛ لِأُعِيد إلى البراءة عُنْفُوَانَها.

لَمَعَت عَيْنَا هداية العَسليَّتَان في اِسْمِرَارِ وجهِها اللَّطيف الذي اِختَفَى مُعْظَمُهُ خلف خصلاتِها المُشَرَّبَةِ بِلَونِ القهوةِ الدَّاكن وَانْزَلَقَت مِن شَفَتَيْهَا الرَّفِيعَتَيْنِ اِبتِسَامَةٌ غامِضَةٌ وهمَسَت:

-يُمكِنُنا أن نَفْعَل ذلك، لَن نكون بِحاجةٍ إلى أن نُصْبِحَ رِجَالاً حتى نُحَقِّقَ ما نُرِيدُ وَنَعيشَه.. صحيح؟

-طَالَما رَغَبَاتُنا لا تَنْتَهِكُ حُدُودَ الله، فَلاَ ضَيْر..

تبَادَلَ الثَّلاثَة نظرَةَ حَزْمٍ وَقُلْنَ بِوَقْتٍ واحد:

-نحنُ لَها!

رَمشَتْ نبرمان وهي تسْأل هداية بِبَسمَةٍ تَعْتَلي وجهَهَا الأبيضَ الصَّافي كَالحليب:

-كيفَ يَبْدُو عالَمُك؟ أشعُرُ بِالفضول لِرُؤيَتِه، هَل هو مُختَلِفٌ عَن وَاقِعِنَا؟ هَل بِه أشياءُ لا يُمكِنُنا تَصَوُّرُهَا؟ هَلْ هُو جَميل؟

-عالمُنَا مَلِيءٌ بِالحَقَائِق، لكنَّه مع ذلك يَضِجُّ بِالأَكاذِيب، عَابِقٌ بِالحُبّ، مَع أَنَّه مُكْتَظٌّ بِالكراهية؛ هنُاك الأنْفُس الطَيِّبَةُ بِالرّغم من أن الشَرَّ يَنْضَحُ مِن كُلِّ مَكان، عالمُنا مكانٌ يَعِجُّ بِالجمال، وَالحَركةِ التي لا تسكُن بَيَاتًا ولا نَهَارًا، التَّنَقُّلُ فيه سَهْلٌ يَسِيرٌ، وَالعَيْشُ مُتَشَعِّب، إنَّه غيرُ مُنْصِفٍ أبدًا، هُناك الطَّبَقِيَّة، وَالعُنصُرِيَّة هناك بُلَهْنِيَةُ العيش والتَّرَفُ الشّديد؛ وَهُنَاكَ الفَقْرُ المُدْقِعُ وَالحَاجَةُ المُلِمَّة.

-هناك شَبَهٌ بسيط بين العالمين، وهو سهولة التّنقل؛ نستعمل قاطراتٍ تسمى بالحافلات للانتقالِ بين الممالك فقط، و غير ذلك نستخدم له الخيل، أما عن الطائراتُ المروحية فهي آلات للحراسة، وتستعمل أحيانا في الحروب؛ وللإشارة إلى خطرٍ ما.

أضافت نبرمان على كلام تقى بِحَمَاس:

-لكنّ حَيَاتَكُم تبدو مُثِيرَة.

-نعم.. هِي مُمْتِعَة، لكنّها لَيست كَهذا العَالمِ الخُرَافِيّ، أنا طالِبَةٌ فِي الإعدادِيَّةِ ويقين في الثّانويّة؛ الحياةُ هنَاك عاديَّةٌ لِدَرجَةٍ لاَ تُطَاقُ أَحْيَانًا!

سَألت الفَتَاتَانِ بِفُضُول:

-مَا هي الثّانويّة والإعداديّة؟

-إنَّها مراحِلُ دِرَاسِيَّة، هُناك مَدَارِسُ تَخْتَصُّ بِفئةٍ مُعيّنةٍ من الأعمار، وكُلَّما زَادَت سَنَواتُنَا اِجْتَزْنَا طَوْرًا ما.

صَمَتَتْ قَلِيلاً وكأنّها تفكّر قبل أن تَسْتَأْنِف:

-هُناك شيءٌ آخرُ في عالمي، اِنعِدَامُ الثِّقة!

اِنتَفَضت أمان وَقَالَت بِأسَفٍ بَعد أن زَفرَت بِحرقة:

-قَدْ تَتَنَازَلِينَ عن بعضِ قِيَمِكِ لِشخصٍ مَا حتى تَمْنَحِيهِ ثِقَتَكِ لكنَّه يَخُونُها.. إيجَادُ شخصٍ جَدِيرٍ بِالثِّقَةِ أمرٌ صعب.

سَألت تقى بِإحباط:

-تقصِدِينَ ميليا؟

-أتَذَكَّرُ حِينَ خرجْتُ مِن المنزل وَأنا أُخبِرُها أنَّنِي وضعتُ ثِقَتِي بِها مؤلِمٌ حَقًّا..

هزَّتْ تقى رأسها وقالت:

-الثِّقَةُ حَسَّاسَةٌ جِدا، مُجَرَّدُ فُقْدَانِهَا تجَاهَ شخصٍ مَا قَد يُوَلِّدُ صَدْمَةً وَعُدْوَانِيَّةً نحو الجَميع، عَليكِ أن تَخْتَارِي بِعِنَايَةٍ الأشخاصَ الذين يُمكنُكِ أن تَهَبِيهِم ثِقَتَكِ.. وَمَا أَقَلَّهُم.

سَمعَت الفَتَيَاتُ حَسِيسًا يَنْطَلِقُ من الحديقَةِ الأماميَّة، مَرَّرَت يَدَهَا فَوق الفراشاتِ فَخَمَدَ بَرِيقُها الأزرق الشَّاحِبُ ولم يَبْقَ إلاَّ ضوءُ القَمَرِ الخجولُ الذي كان يُصْغِي لِحَدِيثِهِنَّ مُسْتَأْنِسًا وَيُهَدْهِدُ النّجوم بِحُنُوّ؛ هَمَسَت نبرمان حين تَبَيَّنَتْ جَسَدَيْنِ يَخترِقانِ العُشب ويَتَجَاوَزَانِ الأشجار:

-مَنْ هَذَان؟

قال أحدُهُمَا مُخَاطِبًا الفتاةَ التي مَعَه:

(-إلى متى سَنظلّ هكذا؟

-اِصبِر.. نحن على وَشك الوُصول)

زَاغَت نظَراتُ نبرمان وَوَضعَت يَديها على فمَها لِتَمنَع صرخَةً كادَتْ تَدْوِي مِنها وَتَمْتَمَت تَعْتَصِر قلبَها بِتِلك الكلِمات:

-إنَّه مراس.. يَتَسَلَّل في جُنْحِ الليل.. مَع فتاة!

-حَاشا لله، لِماذا تَظُنّينَ أنّه قَد يكونُ لَئِيمًا نَذِلاً إلى ذلك الحَدّ؟ أَحْسِنِي الظَنَّ بِمَن تُحِبّينَ حتى الرَّمق الأخير يا نبرمان..

-ليس هناك سبَبٌ يَجعَلُه يتسلَّل في الليل إلاّ أنّه..

قاطعَتْها تقى قائِلة:

-بعضُ الأخطاءِ يُمكنُنا أن نَتَغَاضَى عَنها ونَتَجَاهَلَها، فقط لأنَّنا لا نُرِيدُ خُسْرَانَ البَشَرِ الذين اِقتَرَفُوهَا، وَلاَ نَوَدُّ أن نُسِيءَ إليهم بِالظّنون؛ فَنسكُن إليهم حين نَتَنَاسَى أخطاءهم، ونعيشُ بِصفاءٍ معهم حين نَغُضُّ الطَّرْفَ عَن زَلاَّتِهم.

انْحَدَرَت الدموع من عَيْنَي نبرمان وهي تهمِس بِتَشْوِيش:

-لكنْ ليس خطَأً كَهذا.. إنه أمرٌ شَنيع، لَم أتَوَقّع أنّ مراس يَتَوَارَى عن النّاس بِذَنبٍ فَظِيع، إنه ليس مِن شاكِلَةِ هؤلاء الحُثَالَة أبَدًا!

-لا تَتَسَرَّعِي في الحُكْمِ على الأمور، وَلاَ تَرَيْ مِن مَنظُورٍ واحِد؛ قد يكون لِفعْلَتِه تفسيرٌ آخر، وسَبَبٌ مُقْنِعٌ غَير أنّه يُوَاعِدُ فتاة..

-أيّ تفسيرٍ آخر؟ فِي الليل يا هداية؟ في الليل؟

تنهَّدت وهي تُجِيبُ:

-في الليل! لِكلِّ فَعْلَةٍ سبب.. اِسْأَلِيه، اِسمعي منه، واعرفي عنه علينا أن نمنح الثقة لمن نحب، ونمنحهم الفرص أيضا، اِسْأَلِي والِدَه؛ سَأَسْأَلُ يقين غَدًا.. لا تَسْتَبِقِي الحُكمَ على ذلك الشاب.

-٦-

بعضٌ من حياة

ابتسمَت أمان وهي تُرَاقِب الصَّغيرتين رُخاء وغيداء وَهُما تُساعِدان أُمَّهُما في العمل رغْم صِغَر سِنِّهِمَا فَقَالَت بِاسْتِلْطَاف:

-خالة نِمْرِقَة.. يبدو أنَّهُما كانتا تُؤْنِسَانِكِ حين يذهبُ آبنوس لِلعَمل.

هزَّت أم آبنوس رأسها وأجابَت بِطِيبَةٍ وهي تمسَح على رأسَيْهِمَا بِحُبّ:

-البنَاتُ عِتْقٌ من نارِ الدُّنيا مِثْلَما هُنَّ عتقٌ من نار الآخرة؛ إنَّهن كالورود اليَانِعة الفتية، يُحْيِيهِنَّ الحبّ؛ وَيُذْبِلُهُن الإهمَال.

عبَسَت أمان حين تذكَّرت كلماتِ والدتها الأخيرة "لَيتني لم أنجب إناثا"؛ تنهَّدت ثم حاولَت إعادة البَسمة إلى وجهها وقالت:

-أغْبِطكِ عليهما، إنهما وَردَتَان بِحَقّ!

-حين نُرَبّي البنات وَنُعَامِلُهِنّ على أنّهن جواهِرُ ثمينَة نَحصل عليها كَهَدِيَّةٍ لأرواحنا المُتعبَةِ في جِسرٍ مُزدَحِمٍ بِالهموم، سَنُلاَقِي مِنهُنَّ تَقْدِيرًا على ذلك، وَحِينَ نَتَوَجَّسُ مِنْهُنَّ خِيفَةً وَنَسْتَمِرُّ في مُعَامَلَتِهِنَّ على أنّهن وصمَةُ عَارٍ في حياتنا، لن نَحصل منهن إلّا على الخِزي؛ هكذا.. كلُّ إناءٍ يَنضح بِما فيه يا عزيزتي، ومُعَامَلَتُنَا مَع من نحب هي التي تُحَدِّد من سَيَكُونُونَ بِالنِّسبةِ لَنا، في النِّهاية.. أعتقِدُ أن البَناتِ أشجارٌ يافِعة تُسْقَى بِالمعاملة، الثّقة والطّيبةُ والحبُّ والتشجيعُ يُربِيهَا وَيُنَمّيها، والشعورُ بِالخِزي نحوَها والحَذر من تصرُّفاتها ومُرَاقبَتُها الدّائمة وَتَوَقُّعُ السَّيِّءِ منها والتّعامل معها على أنَّها جُرْمٌ لأنّها فقط.. فتاة، تَجْعَلُها ذابِلَةً هَيِّنَة؛ تَسْتَسْلِمُ لِلظُّنون

التي حُفِرَت فيها مُنذ صِغرها، وَتَغُوصُ في الرَّذيلة لأن الجميع يَتوقع ذلك منها!

هرولَت رخاء نحو والِدَتها وقالت بِبَراءة:

-أمي، لقد أتَتَ الآنسة هوف.

فتَحَت نِمرقة الباب الذي أطلَّت مِن خلفِه فتاةٌ تَتَّشِحُ بِالسَّواد وعلى وجهِها الواهِن بسمَةٌ خامِدَةٌ فاتِرَة؛ ابتسمَت أمان تُخفِي حُزْنَهَا على أختِها التي كَلحَ وجهُها وانطَفَأَت الحياة منْ عَيْنَيها الزَّرقاوتين المُحَاطَتَينِ بِهَالاتٍ مُسْوَدَّةٍ، أَلْقَتْ نفسها عليها تَلثمها وتُعانِقها بِشوقٍ وَتَترُكها تحمِل الصغيرتَيْن بِلطفٍ بعد ذلك وتسلِّم على أم آبنوس التي كانت عَيْنَاها تقطُران شفَقةً على تلك الفتاة التي ضَمرَتْ وَطَفَحَت ملامِحُها الفَتِيّة، ربّتَت على كتفها وقالت بِعطف:

-هل أنتِ بِخيرٍ يا اِبنتي؟

رَمَتْ نفسها عليها تَحتَضِنُها ثم انفَجَرَت باكِيَةً فَطَوَّقَتْها نمرقة بِيَديها في حنانٍ بَالِغ، وقفَت الأُخْتَانِ غيداء ورخاء حَائِرَتَين وَهُمَا تَرَيَان ذلك المنظر، اِنْقَبَضَ قلبُ أمان، شعرَتْ أن بِهَوف خطبًا ما فَتقدَّمت نحوها وكَفكَفَت دموعَها وهي تحاوِل أن تَغتَصِبَ اِبتسامَةً تُواسِيها بِها وهي تقول:

-ماذا حدَث يا هوف؟ ما هذا الذُّبولُ في عَيْنَيْكِ يا أختي؟

تنهَّدت بِأَلمٍ فأضافَت أمان:

-هل يُعامِلُكِ أحَدٌ مِن بيت عمي بِسوء؟

-أبَدًا.. إنَّهم طَيِّبُونَ معي أكثَر مِما تَتَصَوّرِين يا أمان.. ليسَ ذلك ما يَحُزُّ في نفسي.

قاطَعَتْها أم آبنوس بِتَرْحِيب:

-تفضَّلي إلى الدَّاخل يا اِبنتي.. لا يَصِحُّ أن تَبْقَيْ أمام الباب.

جلَسَتْ هوف إلى الطّاولة رفقة أمان في حين ذهبَت نمرقة لِتحضر أقداحَ قهوةٍ ساخنة يُدَفِّئْنَ بِها أوصَالَهُنّ في مِثل هذا البرد زفَرَت هوف بِوَصَبٍ وهي تقول:

-أشعُر بِالألم يا أمان، لا يُمكِنُني نِسيان ما اقْتَرَفْتُه؛ أتَعْلَمِين.. الحسْرَةُ تُقَيِّدُ أضلُعِي، والنّدمَ يَخنُقُنِي، تعِبتُ من الكوابيسِ التي تُفزِعُني كلّما أغمضتُ جفنَيّ؛ تعبتُ من التفكير؛ تعبتُ من الحياة.. أكرهُ نفسي وبِشِدّة، سَئِمْتُ وجودي، أنا أُلاحِقُ نفسي؛ ولم أتمكَّن من نِسيان ما حَصَل.. ولا مِن الاِقتصاص من روحي.

تنهَّدت أمان وربَّتَتْ على كتِفِ أختها وهمسَت تخَفِّفُ عنها:

-حين يُريد الله أن يعيدَكِ إليه.. يُرسِلُ إلى روحِكِ شُجُونًا، وحزنًا مشحونًا بِدموعٍ نقيَّة؛ إحساسًا صادِقًا بِالذَّنب.. ثم آيةً تجعَلُ النّسِيمَ يَهُبُّ على بابِكَ بِلُطفٍ؛ فَيُزَعْزِعُ كيانَك ويبَعُث إلى روحِكِ طمأنينةً مشحونَةً بِاليَقين، فَيَنتَشِرُ عَبَقُ التّوبة في ضِفافِ حياتكِ.. وتُولَدِينَ مِن جديد!

-ماذا عليَّ أَن أَفعَلَ يا أمان؟

اِبْتَسَمَت وأجابت بِبَسَاطَة:

-عُودِي إِلَيه، فَلا أحدَ غيرُهُ يُمكِنُهُ أنْ يُعِيدَ النُّورَ إلى قلبك؛ وأن يغسِل دَنَسَ خطاياكِ بِبَرَدِ التوبة.

-أشعُرُ بِالخجل.. لا أظُنُّ أنّ لي الحقَّ في دعائِه وأنا التي تجاوزْتُ حدودَهُ وَتطاوَلتُ على حُرُمَاتِه..

قاطَعَتْهَا أمان مُرَدِّدَة:

- "وإذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قريب" الله يَعلم ما تُخْفِينَهُ مِن ألم، وَهُو يَنْتَظِرُكِ لِتَعودِي إليه، إنه يَمْنَحُكِ فُرصة.. حياة! وَوَحْدَهُ يُمْكِنُهُ أن يُجْلِي الوَجَعَ عَن نبضك، وَيُبْرِئَ قلبك.

***

تَسَلَّلَت الفَتيات الثلاث حين كَشَّطَت الشمسُ آخرَ ما تبقَّى من عَتمَةِ الليل وَتَوَجّهنَ نَحْوَ مسجدٍ صغيرٍ بِناءً عَلى رَغْبَةِ هداية، وإذا بِصَوتٍ عَذْبٍ يَنْبَعِثُ مِن حولِه يَتَخَلَّل آذانَهُنَّ بِعُذُوبَةٍ لم يكُنْ لها مَثِيل، تَتَبَّعْنَ مصدَرَ التِّلاَوة الصّافية التي بَدَت وكأنَّها تصدُرُ عَن ملاكٍ يُرَتِّل القرآنَ بِصَوْتٍ لَم يَعْهَده البشر، أو أنَّه نَزَل مِنَ الجنّة على هذه الأرضِ لِيُطَمْئِنَهَا بِتِلكَ الكلمات، أَلْقَيْنَ نَظْرَةً عَبرَ نَافِذَةِ المسجِدِ المنخَفِضَةِ نحو ذلك الشابّ الجالِس في هدوءٍ واِطمِئْنَان يُهَيِّبُهُ الوَقَار وَيَحُفُّه السُّكونُ إلّا مِن صوتِ تلاوتِه الرَّخِيم وَهَسْهَسَاتٍ تُحَوِّطُهُ وكأنها الرِّياحُ تهمِس مِن حولِه بِأُنْسٍ:

-اِقْرَأ وَرَتِّلْ وَارْتَقِ.. فَإنّ مَنزِلَتَكَ عند آخر آيةٍ تقرَؤهَا.

فَيَرْتَاحُ وَيَهْدنُ جسده ويطمَئِنّ، مَكَثَت الفتياتُ على تلك الحالِ حتى تَبَيَّنَتْ هداية وجهَه عن جُنُبٍ فصاحت بِدهشة:

-هذا يقين!

رفَع رأسَه حيثُ سمع الصوت ثم أغلق المصحف وضحك مِن منظر أختِه التي شعرَتْ بِالخجل من تصرفها المُتَسَرّع، وقف بجانب النافذة وقال مُمَازحا:

-حمقاء.. لو تحدَّثْتِ بِصوتٍ مُنخفض لَكَانَ الموقِف أَرْحَم..

قَفزَ إلى الخارج وقابَلَهَا فَصاحَت مُتْزَعِجَة:

-أنتَ حَافٍ!

طَالَعَها بِاسْتِغْرَابٍ وَابتَسَم بِحَنانٍ حين رَأى ملابِسَها الجديدة تلك؛ اِتَّسعَت ثِيَابُهَا وأصبحَت أكثرَ اِحتِشَامًا وأناقة، بدَت حوراء عينٍ مكنونة، أو جوهرة مصونة؛ اِلتَفّ حجابُها الرمادي بِحياءٍ حول رأسِها وَعَلاَهُ عِقْدٌ من الورود يَستدير حوله، أَحْنَت ناظِرَيها حين رَأت بسمَةَ فَخرٍ على وجهه وقالت ناظِرَةً إلى ثوبِها:

-هل أعجبَك؟

قَرَصَ خدَّها وأجاب:

-الآن أشعرُ أنَّكِ فتاة.

لكَمَتْهُ على كتِفِهِ وَقَالت:

-لا يَغُرَّنَكَ تغَيُّر شكلي.. لا زِلتُ قويّة؛ لم يكن السّتر يوما سَبب ضعفٍ وعجز، أَتَرى؟

فكَّر قليلا وقال:

-تُشْبِهِينَ..

قاطعَته بِخجل:

-الأميرة؟

-بِالضّبط.. كيف تشعُرين؟

اختطفَتْ نظرةً نحو تقى التي هَزَّت رأسها في تحفيزٍ فقالت:

-"إحساسٌ رائع" بِالفعل، وكأنَّني أحلِّق يا يقين، نظرةُ الرّضى التي أرجُوها من الله سَتَعصمني من كل النّظرات التي حولي، أشعر أنّ جمالي محفوظٌ مِن أن يُهْدَرَ في سَقَطَاتِ الذِّئاب ونظراتِ الثعالب، أنّني أقربُ إلى الله، شعورٌ بِالحريّة.. وَالشَّفافِية، والكثيرُ من الحبّ تجاه نفسي، أحسُّ أنني إنسانَةٌ أكثر نقاء!

-أنا فخورٌ بكِ أُخَيَّتِي..

ربَّتَت نبرمان وتقى على كتِفَيها وَاخْتَطَفَتَا نظرةً إلى حجابها الرّمادي الطويل المُمَنْطَقِ بِحزامٍ من الزهور البرّاقة وقالتا مُبتَسِمَتَيْن:

-ونحن أيضا..

***

نظرَت هيلدا إلى كهمس والشَّرَرُ يَتطايَرُ من عينيها وصاحَت:

-لِمَ لَمْ ينجح الأمر وقد انفصَلَت المملكتان؟

أجاب عن سؤالها بِصوتٍ كالفحيح البغيض:

-ما دَامَت دماءُ عائلةِ كُمَاتِر تَسْرِي في العُروق فَلَن يقبل قلبُ هايدرا مُلْكَكِ، يجب أن يَختار بِنفسه، لا يُمكنك أن تُكْرِهِيه فالقُلُوبُ لاَ تَأْلَفُ بِالإِكْرَاه..

-لَكِن أَلَمْ يَمُت القَلب؟

-يجبُ أن تقتُلِي نبرمان وكماتر..

لطَمَت بابَ الغرفة بِيَدِها وهتفَتْ:

-وكيف سَأقتُل ذاك العجوز، يبدُو أنه سَيخلد.. لم أُفلِح في ذلك قطّ، أريد أن أَقْتَصَّ منه، لَقد اِحتَجَزَنِي!

-سَنُحاول اِستعمال الخنجَر مجدّدًا، لقد أخبرَتْكِ سِلاب أنّه الحل؛ علَينَا قتْلُ الأخوين أَولاً.

اِتَّقَدَت شرارةٌ بِعَيْنَيْها الرَّمَادِيَّتَيْن حين نظَرَتْ إلى انعكاسِها في المرآة وقالت وهي تَتَحَسَّس وجهَهَا بِغلّ:

-لقد خسرتُ قِسْطًا من جمالي وعنفواني، متَى سَتَنْتَهي هذِهِ المَهزَلة..

تردّد قليلًا قبل أن يذكِّرَها:

-أنتِ تعلَمِين أن هايدرا مملَكَةٌ مختلِفَة، فَكُلُّ مَن يقُومُ بِعَمَلٍ جَيِّدٍ يَزداد جَمالا، وكلُّ من يقوم بِعملٍ سيّءٍ تتحوّل ملامِحُه إلى القُبح، هأنذَا مُسِخْتُ نِهَائِيا.

-أعلم.. سَأُضَحِّي بِكلِّ شيءٍ لأجل ما أُريد، سَأحظى بِالملك مهما كلَّفَنِي الأمر!

-لَكِن.. لِماذا أخذتِ مراس إلى حدودِ الغابة لَيلا دون سبب؟ كان بِإمكانكِ الحديثُ معه أمام منزِله، أو داخِلَه!

ابتسَمَت بِمكرٍ وقالت بِحِقد:

-جعلتُهُ يعبُر القصر حين كانت نبرمان على الشُّرفةِ لِتَرَاه مَوَّهْتُ بِأخذِهِ إلى حدودِ الغابةِ لِئَلاَّ يَلْحظَ ما قُمْتُ بِه لا غير..

-وما شأنُ نبرمان بِه؟

-إنّها تُحِبُّه، أرَدْتُ إحبَاطَهَا فِيه أيضا كما فعلتُ مع ميليا.. وأخبرتُهُ أنَّه لا يَنْتَمِي لِعَالَمِنا، وأن نبرمان لَن تَعيش في سعادة بِرفقته، إذْ أنّه يُحِبُّها أيضا، لكنّ أحَدًا مِنْهُمَا لا يَعلَم بِشأنِ مَشاعِرِ الآخَرِ نحوه.

فَتح عينَيْه الغائرتين عن آخِرِهما وهو يردِّد:

-مراس ليس من عالمِنا؟!

***

اِجْتَمَعَ الشَّبَابُ الثلاثة رفقة السّيد رامان حول المِدفَئَةِ في منزل مراس بَينما اِنْهَمَكَت الفتيات بِتَحضيرِ الغداء، ثم جلَس الرجال على أريكةٍ طويلَةٍ والبنات كذلك، بَاغَتَهُم آبنوس قائِلاً:

-لقد انفصَلَت المَملكتان..

كَان قد أخْبَرَ الشباب لكن الفَتَيات لم يَعْلَمْنَ بِالأَمر بعد سألت نبرمان بِفَزع:

-متى؟

-اللّيلة الماضية..

-لكنّ، هذا يَعني أن الحِبر اِختَفَى، كيف حدَثَ ذلك؟ هَل ذَبُلَت الهيدرانجيا؟

-نَعم.. لَكِنّ الحِبرَ لَم يَخْتَفِ!

وقفَت تقى بِحَزمٍ وقلَّبَت صفحاتِ كتابٍ كان على الرَّفِّ مُرَدّدة:

-فارغ!

-الكلماتُ تختَفِي تَدْرِيجِيًّا، ليس كل الحِبر يَنْضبُ دُفعَةً واحدة، بَل يبدَأُ ذلك قبل اِنْفِصَالِ المملكة بِشُهُورٍ ربما!

حمَل آبنوس كتاب مملكة الكلمات وتصَفَّحَه بِسرعةٍ ثم قال بِاطْمِئْنَان:

-يَبْدو أنّه مُختلِفٌ عن بقِيَّةِ الكتب.

قال مراس بِحزنٍ وهو يَختطِف نظرةً إلى نبرمان حين تذكّر ما قالَتْه هيلدا بِالأمس:

-اِقْرَأ لَنا آخِر مَا اسْتَجَدَّ فيه يا آبنوس.

تنهّدت نبرمان وتحاشَت النّظر إليه، لا زَالَت تشعُر بِالأَلم مِمَّا رَأَتْهُ البَارِحة، أحَسّت بِالحِنْقِ عَلَيْهِ والغضَبِ منه؛ وكأَنَّها تَسْتَحْقِرُهُ وتكرَهُ شعُورَها نحْوَه؛ قَد يتحوَّل الحُبُّ إلى كراهيةٍ في لَحظَةٍ ما وقد يَنْجَلِي السِّتار لِنَعلَم أن ملاكَ قلوبِنَا قد يكونُ شَيْطَانًا أيضًا وربما طَلَبْنَا مِنه تفسيرًا مَا.. كأَمَلٍ أخيرٍ نَتَمَسَّكُ بِه.. لِنُدرِكَ أَنَّنَا تَسَرَّعْنَا في الحُكْمِ عليه، فَيَنْسِفُ ظُنُونَنَا حين يُخْبِرُنَا عن حقيقَةِ

تصَرُّفِه، لا ينبَغِي أن نَحْزَن على شيءٍ مَا قبلَ أن نعْرِف سَبَبَه، ولا أن نَتَأَلَّمَ مِن شخصٍ مَا دُونَ أن نُدْرِك حَقِيقَتَه؛ ولا شيء يستحق آلامنا غير ذنوبنا، و..

قَطَعَ آبنوس حَبل أفكارها حين قَرأ:

- "كانت تُعَاني أزمَةَ ثِقَة.. وَظَنَّت أنَّه قَدْ خَانَ ثِقَتَهَا كَمَا فعل الجميع؛ لكنَّه مع ذلك كان يتألَّم، كان هو الآخَرُ يظُنُّ أنَّهُمَا لَن يَجْتَمِعَا بِفِعْلِ الظُّروف القاهِرة، فَابْتَعَدَ القَلْبَانِ كَرْهًا، وأهلَكَتْهُمَا الظُّنون، لكِنَّ الدُّعاء لَمْ يَخِبْ؛ فَمَا خَابَ عبدٌ كان رَجَاؤُهُ بِالله، لم تكُن تِلكُ الفتاةُ أميرةَ المملكةِ فقط؛ بَل كانت سارِقَةً أيضا، وقد سَرَقَت قلبَه، لِذَلك عَزَم على العودة إليها؛ لِيُتَوِّجَهَا ملكةَ روحِه وملكةَ فُؤاده، وَيَسْتَعِيدَ قلبَه منها وَيُقِيمَ عليها الحَدّ، لِيَجتمِعَا إلى الأبد.."

تَمَلْمَلَ آبنوس قليلا ثم أضاف مُرْتَبِكًا:

-يَبْدُو أن فَعَّالِيةَ التَّدوين لَا تُفِيدُ خارِجَ الغابةِ السَّوداء، هذه الكلماتُ اِنْبَثَقَت بِالأمس داخِلَها.

اِقتَنصَت نبرمان نظرةً منكسِرَةً إلى وجهِ مراس؛ شعرَت لِلْمَرَّة الأولى أن بِهِ خَطْبًا ما، القُلُوبُ تَشعُر وَتُدْرِكُ فَوْقِيَّات العادة دون أن تنطِقَ بِهَا الألسنة، أرادت أن تسألَهُ عَن حالِه؛ لكنَّها لَمْ وَلَن تَجْرُؤ، فَالكلماتُ تَتَلاَشىَ قبل أن تعبُرَ حنجرتَها، تلاقَت عَينَاهُما فجأةً فَاضْطَرَبَت نَبَضَاتُها حتى كَادَ كُلٌّ مِنهُما يسْمَعُ صوتَ خَفْقِ قلبِ الآخر، وَضَاقَت الغرفةُ بِما رَحبَت، ضاق المنزلُ وضاق العالم وَتلاَشى البشر الذين فِيه؛ ضاقت الأنفَاسُ واختنَقَت الحَلاَقِيم وَشعر أن الهواء الذي يَتَنَفَّسُهُ هَباء، وكأنّه يَفقِد الحياة؛ لِمُجرَّدِ

التّفكير في أنَّه قد يَفقِدُها.. يشعُر بِالموت يَجثُم على جسَدِه.. بِقَلْبِه يبلغ حُنجرته..

أرادَت تقى كَسر الصمت الذي خَيّم عليهم فَقالت:

-فَلْنذهب إذن إلى الغابة السوداء..

ألْقَت نبرمان اِقتراحًا:

-أُريد المرور على شجرةِ الجاكرندا.. أحتاج جميع الفراشات وأظنها هناك حسب ما أخبرتني به بعضها التي علقَت هنا.

قال مراس بِحَرَجٍ مُحَاوِلاً أَن يَبْدُو طَبيعِيًّا قَدْرَ الإمكان:

-لا يُمكِن عبورُ غابَةِ الجاكرندا.. الغابةُ السوداء تَقَعُ في مملكةِ الزجاج، والغابة التي تَتَحدَّثِينَ عنها هي الفَاصِلُ بين المملكتين.

سأل يقين مُسْتَوْضِحًا:

-ما قِصَّة الهيدرانجيا تلك؟

أجابَ السّيد رامان:

-كانت أميرةُ الزجاج فتاةً مُرهَفَة، وكانت تَفهمُ لغة الحيوانات ومَنْطِقَ الطَّير والفراشات، تزوَّجَت مِن أميرِ مملكةِ الضَّبابِ الطَّيّب؛ مِمَّا أَخْمَدَ الكراهية التي نَشَبَت فِي القديمِ بَين الشَّعْبَين وَكان أَنَّ تلك الأميرة تُحِبُّ أزهار الهيدرانجيا، فَأمر زوجها بعد عَقْدِ صفقة الاِتّحاد بِزرع زهرَةِ هيدرانجيا عن كلّ شخصٍ في المملكة ليكون كل سكانها مخلصين لها، هذه الزهرة رمز للقلب المخلص أعْتَدَ لَهَا حَقْلاً عظيما، فَأَصبَحَت تلك عادَةً لِسُكَّانِها؛ كُلَّما ماتَ شخصٌ أو خان مملكته تذبُل زهرة، وَكُلَّمَا وُلِدَ آخرُ تنبتُ زهرة.

أطرَق يقين يفكّر ثم قال:

-إذن فَالأمرُ مُتَعَلِّقٌ بِالماضي؟ لكنَّ تلك الأزهار غَرِيبة.

-لقَد أصبحَت تَنْبَثِقُ من تِلْقَاءِ نفسِها كلَّما اِزْدَادَ عدَدُ السكان.. جميعُنا ورودٌ مُتَفَتِّحة؛ تنبضُ بِالحياة، وتَعْبَقُ بِالحب، وحين تموت المشاعر بِداخلنا.. تذبلُ أرواحنا.. وَتَفْنَى نُفوسنا؛ وتنْضبُ الدماء من عروقِنا.. الموتُ ليس فُقدان الحياة فقط، بل فقدان الإحساس؛ فقدان الشّعور بِالجمال الذي يُحيطُنا.

هَمْهَمَ مراس مُحاوِلاً تجاهُلَ ألمِه:

-أَمَا مِن طريقةٍ لِعُبورِ الغابة؟

أطبَق عليهم صمتٌ رهيبٌ وَهم في انتظار رَدِّ نبرمان، قال آبنوس فجأَةً:

-عليَّ الذَّهاب إلى الغابة السوداء.. حيثُ تتحرَّرُ الكلمات!

-يجبُ أن نَتصرَّف، لدَيَّ فكرَةٌ أرجو أن تَنْجَح..

أَصْغَى مراس بِاهْتِمَامٍ إلى نبرمان وهي تُضِيف:

-سَنُحَاوِلُ عُبُورَ الغابة جَوًّا..

انتفض الجميع وصاحوا:

-كيفَ ذلك؟

تجَاهَلتْ نظرَاتِهم الحَائِرَة وَقَالت بِجدِّيَّةٍ وَصَرَامَة:

-آبنوس.. سَنُحضِرُ زوجتك إلى هنا.. إن أردتَ العودَة فَلاَ مانِع..

خفَقَ قلبُ مراس وهو يقول بِغَير تصديق:

-ماذا تقولين؟

رَشَقَتْهُ بِنظرةٍ جادّة بَدَت خاليةً من المشاعر، جافيَةً حادَّة.. أجفَل حين وَاصَلت بِجُمُودٍ وكأَنَّها تُلقِي عليهم الأَوَامِر:

-يقين.. نَحتاجُ تجربَةً لِلعُبُور في سماءِ الغابة نحوَ مملكةِ الضَّباب؛ وأنتَ الوحيد الذي يُمكِنه مُسَاعَدَتُنَا، هداية.. أنتِ وتقى

سَتَذهَبَانِ إلى القصر، أخبِرَا جدِّي عن انفصال المملكتين؛ أما أنتَ..

نظرتْ نحو مراس وتنهَّدت ثم قبضَت يدها وهي تُحاوِل تجاهُل إحساسِها وتقول:

-مراس.. عليك أن تَبقى مع يقين إلى حين نَجتمع مجدَّدًا، في حدود الغابة، في تمامِ الساعة الثّالثةِ مساءً.. آبنوس، عليكَ أن تذهَبَ إلى الغابة السوداء إلى حين نُتِمُّ مُهِمَّاتِنَا، يجِبُ أنْ نَعْرِفَ ما عَلَيْنا فِعلُه، الكتاب سَيُلَمّحُ لَنا لِيُخبرنا عن الصواب.

قال مراس خائِبًا:

-لن نَتَمكّن مِن معرفةِ فَحْوَى الكتابِ إلّا في الغابةِ السوداء وآبنوس سَيكون بعيدا عنَّا..

صاح يقين وهداية بِنَفَسٍ واحد وكأنّهما تذكّرا:

-الهاتف!

-وما ذاك؟

أخرجَا مِن جَيبَيْهِما هاتِفَيْهِمَا فَقال يقين مُعَقِّبًا:

-يُمكِنُنا أن نَتَوَاصَل عبر الهاتف.

رَفع آبنوس حَاجِبَيْه وقال مُنْدَهِشًا:

-كيفَ سَنَتَوَاصَلُ بِهذا الشيء؟

-سَأُرِيكُم كَيف يعملُ لاَحِقًا.. علينا أن نَتَّفِق أولا.

اِلْتَزَم الجميع الصَّمت وَوَجَّهُوا أعينَهُم نحو نبرمان التي اِسْتَرْسَلَت في الحديثِ بِصرامة:

-أنا سَأَتَرَقَّبُ نجاحَ يقين في العُبور جَوًّا إلى خارج الغابة، إذَا أَفْلَحَ في ذلك سَأُرْسِل إشارَةً خضراء، وعليكُم أن تجتمِعُوا فَوْرَ رُؤْيَتِها.

أغمَضَت عَينيها تَسْتَلْهِم فكرَةً ثم صَوَّبَتْهُمَا نحو والِدِ مِرَاس وقالت بِامْتِنَان:

-سيّد رامان، أظنّ أن الوقت قد حَان، ربما سَيَنْجَحُ الأمر هَذِهِ المرة!

انتَفَض فَوَقَفَت مِن مَكانِها وتقَدَّمت نحوه ثم وضَعَت يَدَها على رأسِه فَتَسَمَّرَ وَكَأَنَّه أُصِيبَ بِمَسٍّ مَا، طَالَعَهَا الجميعُ بِاسْتِغْرَابٍ تَحَوَّلَ إلى دهشَةٍ حين رَأَوْا نُورًا أزرقَ يَمُرُّ مِن حلقِهِ وَيَخْتَرِقُه وَيَنْبَعِثُ خارجَ شَفَتَيْهِ وَيَنْفَجِرُ مِن مُقْلَتَيْه مُتَخَلِّلاً جَوَارِحَه جَميعها، اِجتَمَعَت بعض الفراشاتُ حولَ جسدِه بينما نبرمان مُتَخَشِّبَةٌ في مكانها مَكَث الجميع على تلك الحال وكأن على رؤوسهم الطير حتى شَهق السيد رامان بِفَزَعٍ وَفَقَدَ الوعي.

هَرْوَل مراس نحو والِده فَقالت نبرمان مُطَمْئِنَةً وَهِي تَتَحَاشَى اِلْتِقَاءَ نظراتهما:

-سَيَكُونُ عَلَى مَا يُرَام، يحتَاجُ بعض الوقتِ لِيُبْصِر!

-مَاذا فَعَلْتِ؟

***

(يقين)

أستعيدُ كل ما مررْتُ به هنا.. في هذا المكان الذي لا أعرف موقعه على الخريطة بالتّحديد، إن كان قد وُقِّعَ عليها من الأساس هل هو عالمٌ آخرُ بِالفعل؟

كلُّ الأفكارِ تَهوِي فِي مَقْتَل، تَصْدِمُنِي بِنِهَايَةٍ مَسْدُودَة؛ هَلْ مَا أعيشُه حَقِيقَة؟ أَوَيُمكِن لِلحَقِيقةِ أن تكون كَذلك لِمجرَّد أنّها مَلمُوسَة؟ لا أظُنّ.. الكثيرُ مِن الحقائق لا يُمكننا رُؤيَتُها بِأَعْيُنِنَا نحن نَراها بِقُلُوبِنَا؛ وَنُؤْمِنُ بها.. نحن فقط نُؤمن بها.. كَالمشاعر.. كَالودِّ الذي يُكِنُّه الآخرون لَنا أو نُكِنُّه لهم، كَالحنين، كالأمل.. الكثيرُ من الأشياء لا نراها مع أنّنا نعلم يقينًا أنها موجودة، أنها حقيقيّة.. لكنّني أرى هذا العالم بِوضوح، وأشعرُ به أيضا.. إنّه شيءٌ مَلمُوس؛ مكان شعرتُ فيه بِالحزن والألم، وَالسعادة والحنين إلى مَن أمضيتُ بَينَهم سِتَّ عشرَةَ عَامًا، وهل لنا غيرُ المشاعر نَخْتَبِرُ بها وجودَ الحياة في أوصالِنا مِن عَدَمِه؟

كنتُ أتوجَّهُ مع نبرمان ومراس نحو الغابة في حين انْطَلَق آبنوس إلى الغابة السّوداء لِتَتَمَكَّن الكلماتُ من الظّهور، كتُبٌ فارِغة وهيدرانجيا تَنْبَثِقُ من الأرض كَالخُضار، فراشاتٌ لامِعة.. والكثِيرُ مِن الأشياءِ الغريبَة.. وماذا بعد؟

لاَحَ في البعيدِ على الأرض لَونٌ أبيض، شعرتُ فجأةً بِالبَرد الشّديد، يَبدو أنَّنا وَصَلْنَا إلى الغابة، هتفَت نبرمان في دهشة:

-ثلج!

لم أستغرِب لِذلك أبَدًا.. يُمكنني الآن تَوَقُّع أيّ شيء، ولا شيء يستحقُّ الدهشة هنا، لأنّه كان كذلك أول الأمر، هو الاِعتيادُ القاتِلُ إذن، لماذا نَعتَبِرُ حياتَنا المُمِلَّة حقيقة، ونَقْذِف التّغيير بِأنه أسطورةٌ تَلَقَّفَتْهَا الأفواهُ في القديم، لِماذا نَرفضُ تغيير حياتِنا لأننا عهِدنا رُوتِينَها المُتَرَدِّد، أَوَكان عهدًا على البشر أن يعيشوا تلك الرَّتابَة إلى الأبد؟ هل الرّوتين القاتلُ لِزامٌ سَرمديّ؟ في عالمِي.. حيثُ

كنتُ أعيش؛ لِلبشرِ هَمٌّ وحيد، كانوا يَنْكَبُّون بِنَهَمٍ على الشهوات؛ ويُقاتِلون من أجلها، ثم يَترُكون كل شيء ويَرْحَلُون.. هكذا بِبَسَاطة.. ودون سبب، يُغَادِرون لأن أجَلَهُم قد حَان؛ لا أُرِيدُ أن أموتُ ميتةً عادية، سَأكونُ بِذلك إنسانًا عاديا، أو أقلّ من العادي.. ولا شيء غير ذلك، لكنّني لا أريدُ أن أموت هنا أيضا.. لكن.. متى كُنّا مُخَيَّرِين في موتِنا؟

تذكّرتُ فجأةً وأنا أفكّر فسألتُ مباشرة:

-أين ساناز؟

اِلتَفَتَ مراس نحو نبرمان التي بدَتَ لا تُطيقُ النظر إليه فَأجابت:

-أودعْتُها عند مُرَبّيةٍ بِالأمس..

نَدف الثلج الأبيض يسحرُ العيونَ بِلونه البارد، اِسترقتُ نظرةً إلى الأغصان المُمْتَدَّةِ في السّماء، تقدمتُ قليلا وحاولتُ استِطلاع الفالِقِ الذي تَنْبتُ من شقّه تلك الأشواك، انتَظَرَتْنِي نبرمان حتى تراجعتُ حيث كانت تقِفُ قريبةً من مراس ثم رفعَتْ يدها وهَوَت بها صائِحة:

-الآن يا يقين!

أخذتُ نفسًا عميقا قبل أن أفعل ذلك، كنتُ متردِّدًا وبِشِدَّة أَيُمكِنني أن أثِقَ أن هذه الأجنحة لن تُسقِطني؟ وما الذي يضمن لي؟ اِصْطَفقتُ بهما بغتةً فَعلوتُ عن الأرض وَارتفعتُ نحو السماء بِسرعة، شعرتُ بِذلك النسيم يلفحُ وجهي فَابتسمتُ؛ كان شَعري يتطايَرُ بِفعل الرياح الباردة التي تَهُبُّ بِعشوائيّة، وكأن قلبي يكادُ

يقفز مِن بينِ أضلعي بِسبب الحماس، كَم هو رائعٌ الطيرانُ في السماء!

أغبِطُ الطيور على تلك النعمة.. وكأن روحي تهوي من مكانٍ مرتفع، لفحاتٌ باردة تُداعب بشرتي وأنا أحرِّك أجنحتي بِحرّية، كم أحبُّ هذه الأجنحةَ السوداء!

استمْرَرْتُ في التَّعالي حتى خِلْتُ أنني أَوْشَكتُ أن أناطحَ السحاب، لاَمَسَ المطرُ العذب وجهي فَفتحتُ عينيّ بِحُبورٍ وكأنني أرى الحياة للمرة الأولى، التفاصيلُ التي نُهمِلُها هي ما يُتَمِّمُ نِعَمَنا التَّعميمُ والاِهتمامُ المُفرِط بِالمظاهرِ فقط يُنَغِّصُ عَيشَنَا وَيَحُدُّ نَظَرَنا، شطرُ الجمالِ يقبَع بين التفاصيل التي لم نَلْتَفِت لها ونحن الذين نَظُنُّ حياتَنا ضنْكًا!

صاح مراس وكأنه يُنَبِّهُني:

-أنت الآن في سماء مملكةِ الزجاج.. والغابة لها سماءٌ أخرى.

لمحتُ سماء الغابة بِطرف عينِي فإذا بها مُكْفَهِرَّةٌ مُسْوَدّة، نظرتُ إلى مراس وأَجَبْت:

-أنتَ مُحِقّ، سَأُحَاول الآن..

تقَدَّمت بِسرعة وكأنّني أُسَابِقُ الرّيح عَدْوًا في الجوّ لكنّني ارتطمتُ بِجدار غيرِ مَرْئِيٍّ فَأَجْفَلْت، حاولتُ مجدّدا فَتكرّر الأمر شعرتُ بِالإحباط.. لا أعلم لِمَ كنتُ أدرك بِطريقةٍ ما أن ذلك لن ينجح، جلسَتْ نبرمان على الأرضِ وكأنها انْهَارَتْ فجأةً وهي تردِّد:

-لقد فات الأوان!

***

(تُقى)

بهوٌ هائِلٌ ذو جدرانٍ مُتمازِجَة اللون بين البنفسجي والرّمادي يُفضِي إلى غرفةٍ لِبَابِها الأزرقِ السَّماوي مقبَضٌ من الزّمرد الأخضر، طرقَتْهُ هداية بِخِفَّة ونظرتْ إليّ فابتسمتُ بِتَرَقُّب، فتح رجلٌ أربعينيٌّ البابَ وقال:

-بِماذا يُمكنني أن أساعد الآنِسَتَين؟

همَّت هداية بِالحديث لكنّني قُلت:

-هل السّيد كماتر هنا؟

لمعَت عيناهُ وطالع ثِياب هداية الرّمادية ثم تفرَّس في وجهي قَبل أن يقول بِحذر:

-من أنتُما؟

قُلْنَا بِنَفَسٍ واحد:

-مَرْسُولاَ نبرمان.

-الأميرةُ الصغيرة؟ ما الذي تُرِيدَانِه من المَلِك؟

أجابَت هداية بِهدوء:

-لَدينا رسالةٍ له..

اِنطلقَ صوتٌ دافِئٌ من داخِل الغرفة صائِحًا:

-دعهُمَا يدخُلان.

فتَح ذلك الرجل الباب على مِصرَاعَيه فَأمسكتُ بِيَدِ هداية ودَخَلْنَا بِتَرَدُّدٍ وكأنّنا لِصَّانِ مُتَسَلِّلاَن، هَالَنِي منظرُ الغرفةِ اللّامتناهي في الجمال؛ كانَت على روعَتِها بسيطة، تَتَدَلّى من سقفِها أحْجارٌ مُضِيئَةٌ كَالثُّرَيّا، وأحَدُ جدرانِها من الزجاج؛ وَكأنّه نافذةٌ كبيرة، يُطِلُّ على حديقةٍ بَهيجة مُرَصَّعَةٍ بِالفراشات اللاّمعة، وعلى

جانِبِه سريرٌ يَضْطَجِعُ عليه شيخٌ تِسْعِينِيٌّ ذو سحنَةٍ طيّبة، عينُه اليمنى بنفسجية، واليسرى رمادية؛ اِبتسَم مُرَحِّبًا وهو يقف من فراشه وَانْتَظَرَنا لِنَبدَأ الحديث فَاسْتَجْمَعْت قوَايَ وقُلت:

-تُريد نبرمان إِخبارَكَ أن المملكتين اِنْفَصَلَتَا مُجدّدا..

اِصفر وجهه وَبَدَا ضامِرًا وشاحِبا وهو يَهزّ رأسه لِتضيف هداية:

-وهيلدا هي السّبب..

قال مُرْتَابًا:

-هل خرجتْ من السجن؟

-نعم، وَيبدو أن كهمس ساعَدَها على الفرَار.

-هل ذَبلتْ الهيدرانجيا؟

أومَأْتُ بِرأسي وأَجَبت:

-الرَّاجِحُ أن ذلك حصل بِالفعل، لقد تَرَكنَاهُم يُحاوِلون العبورَ إلى الجانبِ الآخر.

قاطَعَتْنِي هداية مُوَضِّحة:

-إلى مملكةِ الضباب!

مسَح ذلك الشيخ على لحْيَتِه الكثيفة وقال بِغَضب:

-ما الذي تَنْوِيهِ هيلدا بِفعلتِها تلك؟

جلسَ على كرسيٍّ قريب وأَخذ يَسعل وكأن حالَتَهُ الصِّحيَّة تدهورَت فجأة ثم رفع رأسه نَحونا وقال:

-خُذَانِي إلى حيثُ نبرمان، المملكةُ في خطر!

***

جلسَت هيلدا داخلَ الدائرة الحمراءِ ونظرَتْ بِرَهبَةٍ إلى عينِ سِلاب المَطْمُوسَة وهي تقول بِحقد:

-لم أَتَمَكَّن من فعل ذلك، ذلك العجوز يشعُر أنّ هناك من يَتَرَبَّصُ به، لقد وَكَّل حارسا لِغرفته!

فَارَ مَكنونُ القِدرِ الذي كانت تَضَعُهُ تلك السّاحرة على الموقِد الحَطَبِيّ فَهَمَسَت بِصَوتٍ كَالفحيح:

-أُقتُلِي الأَخوينِ وَسَيَنْتَهِي كلُّ شيء..

طالَعَت صفحةَ السائل الذي في القِدر ثم قَرَّبَتْهُ نحو هيلدا وأَضَافَت:

-أَرَأَيْتِ تلكَ الفتاةَ من قبل؟

-نعم.. ذاتُ الثِّيابِ البنفسجية.

-إنها تُدْعَى تقى.

اِرْتَعَدَت فرائِصُها حين اِلْتَقَتْ عَيْنَاهَا بِنَظْرَةِ تلك السّاحرة اللَّئِيمَةِ التي أَرْدَفَت بِازْدِرَاء:

-إنّهم يَثِقُونَ بِها كثيرا.. أَحْضِرِي إِلَيَّ شيئًا يَخُصُّهَا وَسَأَجْعَلُهَا تَهْتَمُّ بِهذا الأمر.

-هَل سَتَقْتُلُهُما؟ وَجَدِّي؟

-إن فعلتِ ما آمُرُكِ به..

-أيَّ شيءٍ إذن!

***

نزَل يقين على الأرض حين شَعر بِالإحباطِ وقال لاَهِثًا:

-هناكَ جِدارٌ عازل!

-سَتَبقى مملكةُ الزجاج مُنْفَصِلَةً عن مملكةِ الضّباب إذن!

سَأل بِفُضُولٍ وكأنه تَذكّر لِلتَّو:

-ما الذي يَعنيه ذلك الاسم؟ أقصِد.. لا توجَد علاقَةٌ بَينَ الزّجاج وهذا المكانِ بَتَاتًا..

تَمْتَمَت نبرمان بِتَوَجُّس:

-ليسَ بعد..

دَوّى وقعُ حوافِرِ العَادِيَاتِ في البعِيد؛ اِلْتَفَتَ الثلاثة نحو مصدرِ الصّوت فَصَاح مراس:

-السّيد كماتر!

هَرْوَلَت نبرمان نَحوه وَقَالت:

-جدّي، أنتَ بِالكادِ تَسْتَطِيعُ الوقوفَ على قَدَمَيْك! لِماذَا أَتَيْتَ؟

-لا بَأس يا اِبْنَتِي.. لا تَشْغَلِي بَالَكِ بِي كثيرًا.

نظَر إلى يقين وقال مُشِيرًا إليه:

-أيُّها الفتى المُجَنَّح، تعَالَ إلى هنا..

أَجَالَ بَصرَهُ بِأجنِحَتِهِ السوداء فَنزلتْ هداية عَنِ الفرسِ وهي تَنْتَظِرُ مَا سَيُضِيفُه الجَدُّ إلى كلامِه، تلاَقتَ عَينَاهُمَا فَابْتَسَم بِتَوَتُّرٍ في حين أَرْدَفَ كماتر:

-يُمكنُكَ العبور.. حاوِل مرَّةً أخرى.

أَرْخَى كَتِفَيْهِ بِسَأْمٍ وَقَالَ آسِفًا:

-لقد جرَّبْتُ يا جدّي ولم أَنْجَح.

اِبتسم بِقِلَّةِ حِيلةٍ وتقدّم مثبتا عَيْنَيْهِ على الشَّقّ الهائلِ الفاصلِ بين المملكة والغابة ثم رشَقَ صَوْلَجَانه على الأرض بِقوّة فَنَفَدَ إلى داخِلِها مُرْسِلاً نورا يَسْلِبُ الألباب، عَادَ أدراجَه تَارِكًا الصّولجان مَدْفُونًا وَنَفَضَ يَدَيْهِ وهو يردّد بِثِقة:

-يُمكنكَ فِعلُها الآن.. حاوِل فقط.

اِرتفَع في الهواءِ مجدّدًا ونظر بِرهبةٍ إلى سماءِ الغابة المُتَجَهّمَة ثم أَغْمَضَ عَيْنَيْه وَانطلقَ كَقَذِيفَةِ مِدفَعٍ فَاقْتَحَمَهَا، صاح بِسَعَادَةٍ وَهُوَ يَرى الضّباب الذي يَلُفُّهُ مِنْ كُلِّ نَاحية:

-لقَد نجَح الأمر!

هَمَسَت نبرمان بِهدوء:

-ماذا فعلتَ يا جدي؟

-لا شيء!

هتفَت بِغير تصديق:

-ماذا؟

-كان في قَرَارةِ نفسِه مُقْتَنِعًا أنّه لن يَنجح في ذلك، لم يَمْتَلِك الثّقة التي تُؤَهّلُه لاِختِرَاق الحاجِز أوَّلَ الأمر، لكنّني حين زرعتُ الصولجان أقنَعْتُهُ بِطريقةٍ حَمقَاءَ أنني فعلتُ شيئًا يُمَكّنُهُ من الدُّخول إلى الغابة، فَأصبح يظُنُّ أنَّه سَيَنْجَح، لَا لِشَيءٍ إلاَّ لأن الصولجان سَيُعِينُه عَلى ذلك!

قال مراس فَجأةً حين عادَ يقين أدراجَه وعلى وجهِه ابتسامةُ نَصرٍ بريئَةٌ بَلْهَاء:

-إذَن.. ما نَزْرَعُهُ فِي الآخَرِينَ مِن قَنَاعَاتٍ هُو شيءٌ يَعتَبِرُونَهُ حقيقة، وَيُصَدّقُونَه..

-بِالضبط.. الصولجان لم يفْعَل شيئًا، ثِقَتُهُ بِنفسه هي التي فَعَلَت.

تبادَلَتْ هداية وتُقى بَسْمَةً لَطيفةً وهما تَقُولاَن مَعًا:

-الثِّقةُ إذن..

وضَع كماتر يَدَهُ على كتِفِ حَفِيدَتِهِ وتَمْتَم:

-الآن يا نبرمان.. هَا قد نَجح الأمر!

حَطَّ يقين على الأرض وقال مُنَبِّهًا:

-علينا أن نُحْضِر آبنوس أوّلاً، إنّه في الغابة السوداء.

اِتَّصلَ على هاتفِ هداية الذي أعطته لآبنوس حتى يتمكَّنُوا مِن التَّواصل وَشَغَّل المُكَبِّر، أتَى الردُّ على الطَّرفِ الآخر:

-لقد تَمَكَّنَّا مِن ذلك يا آبنوس!

-تَعَقَّد الأمرُ يا يقين، أعرِفُ أنّك نجحتَ في العُبور؛ لكنّ القادِمَ لا يُنَبِّئُ بِخَير.

-أَيُمْكِنُكَ أن تقرأ لنا؟

زَفر ثم اسْتَرْسَل في الكلام:

- "عَبَرَا الغابَة نحوَ مملكةِ الضباب رفقة الجميعِ لكنّهما اخْتَفَيَا فجأَةً.. هتفَت الأميرة بِحُزن: هل عَادَا إلى عالمِهما؟ لكنّ سؤالَها بَقِيَ مُعَلَّقًا في الهواء.. وَقَعَا في قَبْضَةِ السّاحر الذي تَمكَّن من الإِطاحَةِ بِهما.."

قاطعَتْهُ هداية قائلة:

-سَنَقْطَع الاِتصال الآن.. نحن ننتَظِرُك!

سأَلت تقى بِفضول:

-لماذا؟

-لَقد حانَ الوقتُ لِنُغَيِّر بعضَ الأحداثِ يا صديقتي.

اِخْتَرَق صوتُ آبنوس الهاتِف وهو يقُول مُحَذِّرًا:

-لَن تَفْعَلا، أنتُمَا مُجَرَّدُ شَخْصِيَّتَين؛ أنتُما حِبْرٌ لا غَير!

-حتّى لو كُنَّا كَذلك في هذا العالَمِ الغريب، فَنَحنُ حقيقة.. نحنُ بَشر.. وحياةُ البشر ليسَت أحداثًا مُدَوَّنَةً في كتابٍ ثابِتِ الحروف إنْ لم نَصنَع نحن التّغيير، فَسَنَبْقَى أَسرى لِسُرَادِق كَوَابِيسِنا؛ سَتَرى ذلك.. يُمكِننا بِالطبع أن نُغَيِّر الأحداث!

قطَع يقين الاِتّصال وأضاف مُخَاطِبًا نبرمان:

-ما التَّالي؟

ربَّتَت على كتِف تقى وقالت:

-أحْتَاجُ إليكِ.. سَنُنَادِي الشَّاهين يا أختي!

هَزَّت رأسها ثم أغمَضَت عينيها البُنِّيَّتَين السَّابِحَتَيْنِ في وجهِها الخمريّ كما فعلَت نبرمان وَصَفَّرَتَا بِأَقصى قوَّة اِمْتَلَكَتَاهَا بِلَحْنٍ مُطْرِبٍ مُتَزَامِن، بَينما تَبَادَل الجميعُ نظرةَ دهشةٍ وقلقً مما سَتَجْتَرُّهُ هذه الحركةُ خلفَها.

اِنْطَلَقَ سِربٌ هائِل من الطّيور غَطّى صفحةَ السّماء وهبَطَ على الأرض مُسْتَكِينًا مُلْتَفًّا حول تِينْكَ الفَتَاتَيْن؛ وقفَت هداية بِجَانِب يقين وقَالت بِشرودٍ وَانْدِهَاش:

-السُّنْقَار!

-هَل تَعْرِفِينَ هَاتِه الطيور؟

-نعم.. إنه السُّنْقَارُ أو الشَّاهين البَحْرِي، الرّمز الوَطَنِيُّ لأيْسلَنْدَا، إنَّه أضخَمُ أنواعِ الصُّقور، وهو طائرُ صَيْدٍ ثمين.

-هائلُ الحجم!

-لا أظن أن حَجْمَهُ في عالمِنا بِهَذا الكِبَر.. إنه أكْبَر مِمَّا تصَوَّرْتُه بِكَثِير.

اِخترق صَوتُ نبرمان نعيقَ تلك الطيورِ الضخمة:

-سَتَنْقُلُنا إلى الجانبِ الآخر.

اِرْتَعَدَت فرائِصُهم وهم يُطِيلُون التّأمُّل في أشكالِها المُخيفة كيف يُمكن أن يَثِقُوا بِطَيْرٍ جارِح.. كانت أجنحَتُهُم هائلةَ الحجمِ وأجسادُهم أضخم، حتى إنّهم ظَلَّلُوا السّماء بِأَكملها حين عَبَرُوها ألوانُهم القاتِمَةُ وجِبَاهُهُم المُغَضَّنَة تَبْعَثُ على الرّعب، وَنظَرَاتُهم الحادّة تُثِيرُ النُّفور؛ قَرْفَصَت نبرمان وتحدّثَتْ إلى أحدِها فحرَّك جَنَاحَيه وَكأنَّه يفهَم ما تَقُولُه، أشارَت إلى مراس بِيَدِها وهي تتحدَّث مُوَضِّحة:

-يَبدو أننا سَنَنْقَسِمُ مَجموعَتَين، الفريقُ الأول بِقيادةِ مراس والثاني بِقيادتي.

قطَّب جبينَه وقال:

-لِماذا أنا؟ ماذا سَنَفعل؟

-سَنَمْتَطِي ظُهورَ هذه الطّيورِ كَالخُيولِ تماما، وهي سَتَنْقُلُنَا فوقَ الغابة إلى حيثُ حقلُ الهيدرانجيا، وَسَتَقُودُ أنتَ المجموعةَ الأولى وأنا الثّانية لأنّنا الوَحِيدَانِ اللّذَان يَفْهَمَانِ مَنْطِقَ الطَّير، لَكِنَّنا سَنتحرّك في الليل، عَلينا أن نَتَزَوَّدَ بِالأسلحة أولا؛ قد تَطُولُ رحلتُنا إلى هناك، وقَد لا نعودُ قبل مدَّةٍ طويلة.

طَارَت السّناقِر وحطَّت على الأغصانِ الشَّائِكَةِ حولَ الغابة ثم ضَمَّت أجنِحَتَها وسَكَنَت وكأنّها تنتظِرُ حُلُولَ الليل بينما اِنتَظَر الجميعُ نبرمان لِتُتِمَّ حديثَها فَأضافت:

-سَنذهبُ إلى الغابة السوداءِ الآن، مراس.. مُرَّ على السّيد رامان ثم اِلْحَق بِنَا، رُبَّما أَفَاقَ مِن غَفوَتِه.

***

(مراس)

تركتُهم وغادرتُ نحو المنزل لأتفقَّد أبي، أَودعْتُ الفرس التي كنتُ أمتطيها عند نبرمان وشَقَقتُ طريقي ساعِيًا؛ هل سَأُغادر ذات يوم إلى العالم الذي أَنتمي إليه؟ لكنّني بِالفعل أنتمي إلى هنا.. ولماذا لا أذكُر شيئا عن طفولتي؟ هل لأنني اِجتزتُها في عالَمٍ آخر بالفعل؟ وهل سَتكون نبرمان مجرّد ذكرى يومًا ما.. هل سأذكُرها مِن الأساس؟ الأُلْفَة مؤلمةٌ حين تنتهي بِالوداع.. وأنا أَلِفْتُ كل شيء هنا، هذا العالم.. هذا الهواء، هذه الأرض.. تلك السماء؛ أَلَن أكونَ مُخَيَّرًا بين العودة والبقاء؟ وهل كنتُ لأختارَ البقاء أم العودة؟ السؤال الأهم الذي أطرحُه على نفسي هذه الأيام: لماذا تغيَّرتْ نبرمان؟ لقد أصبحَت أكثرَ تحفُّظًا وجِديَّة، وهل كانت مختلفةً عن ذلك قبل أن أعرف أنني لا أنتمي إلى هنا؟ أم أن هنالك ما طَرأ على حياتها تزامُنًا مع مَعرِفَتي لِلأمر؟ هل عرفَتْ هي الأخرى أنني لستُ من عالمِها.. وأن تَعلُّقها بي من فراغ؟ أظن أن ذلك أفضل، يجب أن نحترم حُدودنا، لا ينبغي أن أتجاوَزَها على أي حال؛ قد يساعدني جفاءها على النسيان.. ربما..

في الحب.. نحن لا نَملك أنفسَنا، لا نملك قلوبنا؛ لا نملِكُ دموعنا.. ولا اِشتياقنا المُستمر.. اللامتناهي، اللامحدود، المُتدفّقَ في كل مكان؛ وَمِن بين جروحِنا.. في الحب.. تهطل عُيونُنا كثيرا حين نخشى فراقا، أو خُذْلانًا.. وَيَتَفاقم الألم حين يَنتابنا شعورٌ أن الشخص الذي تَذوب أجسادُنا وجدًا لِمجرّد كونِه بِالقرب منّا، ربما لا يُبادِلنا نفس الإحساس؛ نفَضْتُ رأسي من تلك الأفكار وقلتُ بِسخرية:

-من أخبركَ أنها تحبّك أيها الأبلَه؟

مرَرتُ على سوق المملكة لأختصِرَ الطريق، استغربتُ لأن ذلك المكان الذي يضجُّ بِالحركة التي تُسْمَع على بعد أمتارٍ من بابِه الخشبِيّ الهائل قد سكنَتْ اليوم، دفعتُه لأتمكن من الدّخول إليه.. لكنّ المكان لم يكُن سوقَ خُضر، كان سوقَ.. دماء!

ازدردتُ ريقي وأنا أنظر إلى رُبوعه الخاليةِ على عُروشها، وقَدَمَاي تَنْزَلِقانِ في سائلٍ أحمرِ اللون، لا يوجد بشرِيٌّ على قيد الحياة هنا رُؤوس تَتدَحْرَج؛ مِقصَلةٌ تقطر دما.. سُيُوفٌ مَغرُوزة في أجسادٍ مرميَّةٍ على الأرض، الكثيرُ من الجُثَث.. المئات منها.. الألوف وجميعُها قد غادرَت الحياة، مرَّت رياحٌ ترثي تلك الأجساد حِدَادًا ذا صوتٍ مُخيف، مطرٌ.. غمام.. سيلٌ مُسْتَمِر، ندف الثلوج المخضَّلة بِذلك اللون المُرعب؛ ثم فجأة.. وفي خضَمّ تلك الفوضى أسمعُ صِياحًا ما، صرخةً تحترق؛ وبكاءً مترددا.

هُرِعتُ نحو مصدرِ الصوت فإذا بِفتى صغيرٍ يحاول التخفيفَ عن أخته الفَزِعَةِ من منظر الدّماءِ وهو يحملها على كتفه؛ لكن الصغيرة كانت تتألم، جثوتُ على ركبتيّ وحملتُها عنه فَاتَّسخَت ملابسي بالدماء؛ لا أعلم لماذا كانت تبكي بِحرقةٍ شديدة، وتصرخ بِألم عظيم، تمسَّك ذلك الفتى الصغير بثيابي وجذبَها فنظرتُ إليه وهو يقول دامِعًا:

-سيدي.. أنت تؤلمها..

-لماذا؟

-ساقها مبتورةٌ يا سيدي.

شعرتُ بِخَوَارِ قواي حين رأيتُ أشلاءَهَا المُمَزَّقة، وكادَ يُغمى عليَّ وأنا أهرول خارج السوق كَالمجنون بعد أن حملتُ الصغيرة بين يديّ والفتى على ظهري، طرقتُ أول بابٍ صادفتُه فَفتحه رجلٌ عجوز وصَرخ بِفَزَعٍ فَور رؤيتِنَا:

-ماذا حصل يا بُني؟

-إنها مريضة يا عم.. ساقُها مَبتورة، أرجوك.. نُريد بعض المياه فقط..

أدخَلَنا إلى منزِله وَهَلع لِينادي طبيبًا يخفِّف ألم جراحِها التي لم أملِكْ إلا أن أغسِلَها بِالمياه إلى حين يعود، بينما غَفا ذلك الفتى على قدمَيّ فَوَضعتُه على فراشٍ قريب وكفكفْتُ دموعَه وأنا أستمِعُ لِهذياناتِ الصغيرة وهي تردِّد:

-ليتني استطعتُ إنقاذ أمي، لقد غرقَت في الدماء.. وبُتِرَت أطرافُها قبل أن تموت، لقد غُرِزَ السيف في أحشائِها؛ وَنُتفَ شعرُها.

غاصَت في دموعِها وهي تضيف متجاهلةً ألمَ ساقِها:

-لقد نُزِعَ حجابها، اِنتُهِكَت حشمتها؛ مُزِّق حياؤها، لماذا لم أمُتْ بدلاً عنها؟ هل أستحِقُّ العيش من الأساس؟ وهل حياتي مهمَّة وأنا العاجزة حتى عن تحريرِ أمي التي قُتِلَت أمام عينيّ من بين أيدِي الوحوش؟ ما الفرقُ بين وجودِي وعدمِه؟ لماذا تركتُهُم يفعلون ذلك؟

شعرتُ بِمزيجٍ من الشفقة والحنق والألم يقودني نحو رغبةٍ جارفة في البكاء، وغضبٍ جامح تملَّكَني حين رأيتُ فتاةً بِعمر

الزهور تفقد والدتها بين أنقاضِ الحياة، تحت تربةٍ مبتلّة بالدماء دُفِنَت.. وغادرت إلى الأبد، وتحَمّل نفسَها مسؤولية ذلك..

قلتُ وأنا أنظر إلى الطبيب الذي اقتحَم الغرفة فزعًا:

-من هؤلاء الذين قَتَلوا والدتك؟

مسحَت دموعَها وأجابت:

-كانُوا رجالا بَشِعِينَ يَرتَدُون دُروعًا فِضِّيةً وخُوَذًا تغطِّي أُنُوفهم معهُم رجلٌ يستطيع الطيران، وهو الذي قتل أمي.. وَامرأةٌ ذاتُ عينَيْنِ رماديَّتَين تقودُهُم نحو الأمام على فرسٍ بُنِّيَّة.

حقَن الطبيب تلك الفتاة بِمخدرٍ فصَمَت هذيانُها وأخذ يضمِّد قدمَها المبتورَة وهو يردِّد في تأثُّر:

-المسكينةُ لم تهتمَّ لألمِها بالرغم من أنّ حالتَها خطيرةٌ بِقدر ما أثارَها قهرُ والدتِها.

***

(نبرمان)

اِستبدّ بي القلق كثيرًا، لقد مَرَّت ساعاتٌ منذ غادَر مِراس لِيَتَفَقَّد والده، تُرى.. هل أصابهُ مكروهٌ ما؟ لكن.. لِمَ أفكِّرُ في ذلك الآن وأنا في أَمَسِّ الحاجةِ للتّركيز، لماذا أهتمُّ لأمره أساسا؟ لماذا ينبضُ قلبي بِتلك القوة حين يكون بِالقرب مني، لماذا أشعر بِالاختناق، لماذا تضطربُ كلِماتي وأحسُّ بِرغبةٍ في البكاء؟ لَطَالَما بكيتُ على وِسادتي لِساعاتٍ متواصلة بالليل، الحب مؤلم.. بِالرغم من أنه الإحساس الأصدق على الإطلاق، والأجمل على الإطلاق والأكثرُ شفافيةً على الإطلاق، أخشى أن أخسَر مشاعري هَدْرًا في وهم، أخشى أن تتحوّل أفكاري في لَحظةٍ ما، أخشى أن أفقِدَه

أيضا؛ كلُّ شيءٍ يجعلُنِي أموتُ في كلِّ لحظةٍ ألفَ مَرة، يجعلني أشعر بِرَغبة مُسْتَدِيمَة في البكاء؛ وكأنني أزمن الحزن بسببه؛ لكنّني مع ذلك أشعر بِالسعادة لِمُجرد وجودِه بِالقرب مني، أشعر بِالاطمئنان، أحسُّ بِالانتماءِ إليه بِطريقةٍ ما، هل من الصّائب أن أُعامِلَه بِذاك الجفاء؟ ذلك أفضل.. ما أُريده الآن هو الاحتفاظ بِثَبَاتِي لِبعض الوقتِ حتى أتمكَّن من إعادة الاتِّحاد بين المملكتين لا أريد أن أَضعف بأيِّ حالٍ من الأحوال، كَما أنني لا أَوَدُّ لِتلكَ المشاعر أن تطغى على تصرّفاتي فَتفضحَني، لا أوَدُّ أن يرى أحدٌ ضعفي.. حتى لو كان مراس.

كان آبنوس يقرأ أحداثَ الكتاب بِحذرٍ شديد؛ أما أنا.. فقد كنتُ في مكان آخر تماما، ما مصيرُ المملكة بعد كل الذي حصل؟ هل سَيعود هذان الأخوان إلى عالمِهما في النهاية؟ لقد بدأتُ آلَفُ وجودَهُما، مَن تلك الفتاةُ التي كانت رفقة مراس تلك الليلة؟ ولماذا لم يتمكّن يقين من العُبور فوق الغابة بادِئَ ذِي بَدْء، وصلتُ إلى ذلك الحدِّ قبل أن أسمعَ شخصًا يقول:

-علينا أن نذهب إلى الغابة الآن.. لقد تأخّر مراس، وقد حلّ الليل.

نظرتُ إلى جدّي وكأنني أَسْتَجْدِي رحمتَه لِتَحلَّ بي كأمرٍ مِنه يَسْتَمْهِلُهُم حتى يعود لكن عينَيه كانتا تتأسَّفان بِشدّة؛ حمل آبنوس الكتاب في حقِيبَتِه ثم اِمتَطَيْنَا الخيلَ وانطلَقْنَا نحو الغابة وَمَضَتْ بِخاطري فكرَةٌ فَقذفتُها في مسامعِهم دون تفكير:

-لِمَ لا نذهبُ إلى منزِل مراس أولا.. لا يُمكِنُنا العبور بِدونِه فهو قائِدُ الفريق الثاني.

أرهفتُ السمع بِصعوبةٍ إلى آبنوس الذي صاح بِسببِ وقعِ قوائم الجِيَادِ الصَّاخب:

-السَّناقِر سَتغادِر عند مُنتصف الليل إن لَمْ نُوَفِّ بِوَعْدِنَا؛ كَمَا أن منزِلَ مراس بعيدٌ عن موقِعِنا كثيرا.. يَلزمُنا وقتٌ طويل حتى نتمكَّن من الوصول؛ سَيكون هناك فريقٌ واحِد.

ركّزتُ ناظرَيَّ على الطريق بِحُزْنٍ فَقالت تقى تُطَمئنني:

-سَيكونُ بِخَير.. يُمْكِنه اللّحاق بنا، ثِقي به؛ وبِالله قبل كلّ شيء.

-وما الذي يَضمن أنه سَيعود؟

-سَيفعل.. لأن القلوب المُتَيَّمَةَ تُحَارِبُ لأجل مَن تُحِبّ، وتنتصِرُ لأنها لا تُريدُ خسارته، لا تَقْلَقِي؛ سَيَحفظُه الله لِقلبِك، وسَيحفظكِ الله له، فَصَبْرٌ جميل.

-أخشَى أن كهمس قد قَام بأسره!

قالَت هداية هذه المرّة بِلطف:

-وَهَل يَخاف من تمسَّك بِحَبْلِ الله السُّقوط؟

قطَع آبنوس حَدِيثَهُنَّ الذي لم يَكُن أحدٌ من الرجال يسمعُه صائِحًا:

-لا أعلمُ ماذا دهَى مراس حتى يتأخّر هكذا.

سأل يقين بِاهتمام:

-أَلَم يذكُر الكتاب شيئًا؟

-هناك خطرٌ يقترب، لكنّه لم يذكر شيئا عن مراس!

تذكّرَت هداية فجأةً فَحاولَت أن تجعَل سُؤالها يبدو سطحيًّا ولا يحمِل أي معنى أو غرَضٍ وهي تقول:

--يقين.. من تلك الفتاةُ التي كان مراس بِرفقتها أمس؟

أرهفَت نبرمان السَّمع وشعرَت بِانقِبَاضٍ قويٍّ في قلبِها، تبادَل نظرةَ تَساؤُلٍ مع آبنوس ثم قال وكأنه تذكّر فجأة:

-تلك هيلدا..

-هل خرجَت من السجن؟

هَزّ الشابان رأسَيهما فَهَتفت الفَتَيات جَميعُهُن معًا:

-ما الذي تريدُه منه؟

-أخبَرَنا أنّها قصّت عليه طريقةَ هُرُوبِها من السجن، وكانت تسألُه عن نبرمان وساناز، وتُحاول الِاستِفْسَارَ عن آبنوس وهداية وَسَبب اِمتلاكِي لِهذه الأجنحة، إنها تظنّ أن ساناز ابنةُ مراس ونبرمان، وكانت تَتعامَلُ معهما على هذا الأساس.

قالت نبرمان بِعَدمِ اقتناع:

-فقط؟ لكنهما..

تدخّل آبنوس وقاطَعها حين فَهم ما تَرْمِي إليه:

-نعم.. ذَكَر أنه اِسْتَغْرَبَ لأنّها طلبَت إليه الحُضور إلى الحديقةِ الأماميّة لِلقصر مع أن الحِوارَ الذي دَارَ بينهما لا يَسْتَدعِي ذلك كَمَا أنه ليس مُهِمًّا لِتِلكَ الدّرجة التي تجعلُه لا ينتظر حتى الصباح ولا يَستدعِي اللقاء في الليل، ولا بِتِلك الطريقة الغريبة..

-طريقةٌ غريبة؟

-لقد طرقَت الباب في الليل وكانت ترتدِي ثِيابًا سوداءَ، طلبَت منه المَجِيءَ معها إلى الحديقةِ الأمامية لِلقصر لأمرٍ طَارِئ.

-وذهب.. هكذا بِبساطة؟

زفر يقين وقال بِحِيرة:

-مراس قوي.. وهَذا يجعله يَثِق بِنفسِه كثيرا، وربما إلى حَدِّ الغرور، لقد فَكَّر أنه يُمْكِنُهُ تدبُّر أمرِه دون اللُّجوء إلينا؛ لِذلك لم يُخبِرْنا إلاّ بعد عودَته.

ردَّد الجدُّ بِغَضبٍ عقِبَ الحوار الذي دارَ بينهم:

-هيلدا تخطِّط لِشيءٍ ما..

-٧-

هل إلى خروجٍ من سبيل؟

بعضُ أوهامِنا مجرَّد مخاوِفَ نخشَى مُوَاجَهَتَها، فَنَخْتَبِئ خلفَ سِتَارِ التَّنَاسِي وَنَتَوَارى عنها مِن سوءِ ما سَتُلْحِقُه بِنا من ألم.. لكنّنا مُجْبَرُونَ على مُجَابَهَتِهَا مهما رَاوَغنَا وَعَانَدْنَا، مُجْبَرُونَ على الوقوفِ أمامَها مهما تَنَاسَيْنَاهَا، لِذلك.. من الأفضل أن نضَع حدًّا لِهَوَاجِسِنَا قبلَ أن تؤلِمَنَا؛ ونَتصَالَح مع أجزائنا المكسورةِ قبل أن تُمَزِّقَنَا.

اِمتَطَى الجَدُّ طائِرَ شاهين حَلَّقَ بِه فَوْرَ أن اِسْتَوَى عليه فَسَبَقَه يقين بِأَجنِحَته، تردَّدَت هداية وتقى قبل أن تُقْدِمَا على ذلك لكنّهما تَحَلَّتَا بِالشّجاعة بعد رُؤيةِ كُماتر يخترِقُ طبقاتِ الهواء، اِندَفَع الطَّائران اللَّذانِ يَحْمِلاَن الفَتَاتَيْن فَرَفْرَف قَلْبَاهُمَا بِغِبْطَة.. كان شُعورًا شَبِيهًا بِالسُّقوطِ من هُوَّةٍ مُرْتَفِعَة، إِحْسَاسًا رائعا بِالقُدرةِ على الحياة، أَوَلَيسَت حياتُنا قُدُرَات؟ هِبَاتٌ يمنحها الله لَنا لِنَعِيشَهَا.. مرَّةً واحدة.

أحكَم آبنوس غلق الحقيبةِ على الكتاب وَرَدِفَ لَهم؛ بينما كَفكفتْ نبرمان دموعَها وَهَمَّت بِاللّحاق بهم هي الأخرى؛ لكنّ قائِدَ السّنقار اِستَوْقَفَها بِجناحِه وأشارَ لها لِتَدنو منه فَفَعلت، حَلَّق قليلا ثم حَطَّ على كتِفَيها فَأَجفلت، اِصطَفَق بِجناحَيه وَسَبَّب خَدْشًا بَين كتِفَيها فَشعَرَت بِحَرَارتِه تلتهِمُها، تحسّست مكانَه بِعِتابٍ فَنزل الطائر على الأرض قبل أن تَسأله عن سبب فعلتِه، بسط جناحيه وأسقَطَها فوق ظهرِه ثم اِنْطَلق يلحقُ بهم؛ شعرَت بِحرارَتِها

ترتفِعُ بالرّغم من البرد الذي غَمَر الأثير، وبدأَت تَشحب وَنظراتُها تزيغُ وتشعُر بالدّوار وهي ترتفُع في الجوّ، كان الخَدْشُ بين كتِفَيها يُؤْلِمها وكأنّه يحترق، اِقتحَم الجميعُ سماءَ الغابة فَشَعَروا بِالاختناق وكأنّ الهواء يَتضائلُ هُناك وضغط الجوّ يزداد، أخذهم ما يُشبه النعاس فجأةً وهم على ظهور الشاهين فَأُغْمِضَت أعينُهُم وَغَفَوْا دون إدراكٍ منهم، وأخَذَ الضّباب يَستولِي على نظرهِم شيئا فشيئا حتى اِنعَدَمت رؤيتهم جميعا، حاول يقين أن يتَمالك نفسَه ويَتَغَلّب على شعورِه بِالنّعاس فَنَزَل أرضًا وغسل وجهَه بِمِياهِ النهر الرّقرَاقَة، رفع عَينَيه البُنِّيَّتَين إلى الأشجارِ فَرَأى مَشْهَدًا اِقشَعَرّ له بدنُه؛ أجسادٌ معلَّقَةٌ إلى جذوعِ الأشجار التي تُناطِح السحاب، مشنوقةٌ بِحبال متينة تلتفُّ حول أعناقها؛ ودماءٌ تلطِّخ الأرض تحت قدميه، أصوات وحوشٍ تزأر وتُزمجر، ورياحٌ تزوم كأنها تطردُه من تلك الأرض؛ نظر إلى القِرْبَة التي حَمل فيها الماء فإذا به قد تحول إلى حشراتٍ تتآكل ويلتهم بعضُها بعضا بِلونها الأحمر القاني كَدماء تغلي، رماها من بين يديه في فزعٍ فَأقبل سِربٌ من العقارب الصفراء وتسلّق قدمَيه فَنفضهما بسرعةٍ وارتفَعَ عن الأرض مَذعورا، غمر الضباب تلك الأرض وهطلت أمطارٌ سوداءُ اللون ثم ظهر جسدٌ فارِعُ الطولِ من العدم، ووجّه إليه سيفًا أثيريًّا لم يرَه فَسبب له جرحًا بسيطا في وجهه، حاول تبيُّن صاحبِ السيف لكنه كان مُبْهَمًا، دون ملامحَ ولا تقاسيم واضحة؛ حتى جسدُه كان يموج في الضباب الذي تكاثف فجأةً حتى ظنّ نفسَه قد أُصيب بِالعمى صَرخ ذلك الجسد فَكأن صوتَه كان مزيجا بين الخُوار والثُّغاء والنعيق، اِصطفق بِجناحَيه بِسرعة وعاد إلى الجو حيث ترك

الجميعَ فَفقد أثرهم جرّاء الضباب وبقي يهيمُ في أبعادٍ بيضاءَ مُتَمايلةٍ لا يرى شيئا غيرَ الدخان يلُفُّه من كل حدبٍ وصوب أرهف السمع وأغمض عينَيه محاوِلاً تمييز صوتِ أجنحةِ الطيور لكنه شعرَ بِالصّمم، فتح عينيه فإذا به في مكانٍ غير مرئِيّ الأطرافِ وكأنه لُجَّةٌ بيضاءُ أو صحراءُ مُقفِرةٌ تسبح في السماء دون أن يكون لها اتّجاه أو حدود، صاح مُناديًا:

-أين أنا؟ هل مِن أحدٍ في هذا المكان؟

***

(تقى)

كنتُ أشعر بالاختناق الشديد، فتحتُ عينَيّ بعد غفوةٍ لا أعلم أَكانت قصيرةً أم دامَتْ كَنَومَةِ أصحابِ الكهف، وجدتُ نفسي مُصَفَّدَةَ اليدينِ أمام بابٍ وحيد في مكانٍ مظلمٍ جدا، كان السكون مُخَيِّمًا؛ الصمت الذي يدعو إلى النفور، دَوى صوتُ طَرْقٍ عنيفٌ على البابِ الخشبيّ المطلي بِاللون البنيّ الذي يربض أمامي فَتَبَيَّنت شمعةً مُشعَّةً بِيَدِ امرأة عجوزٍ تَحُثُّ الخطى نحوه وكأنها كانت تتوقَّع أن تسمع ذلك الطّرق في ذلك الوقت بِالتحديد، لكن يبدو أنها اِنتظرتْ ضيفًا آخرَ غيرَ الذي أتاها، أو أنها توقّعتْ مَجيئَهُ على قَيْدِ الحياة!

ظهر من خلفِ الباب ثلاثةُ رجالٍ غِلاَظِ البُنْيَةِ حامِلِينَ رأسَ شابٍّ من شعره، كان مبتورًا يقطر دما؛ قذَفوه نحو المنزل فَلطّخ الأرض السوداءَ بِلون أحمر قانٍ، ثم أَلْحَقُوا بِه كيسًا هائل الحجم مُخَضّبا بِالدماء فَتَبَعْثَرَ مُحتواه فَوْرَ أن سقط، كان إربًا مُمَزَّقَةً من

جسَدٍ يَبدو لِذاك الشاب الذي أحضَرُوا رأسَه حتى عَتَبَةِ هذا المنزل، اِرْتَمَت العجوزُ على الأرض وأخذَت تصيحُ بِألم وتبكي:

-لماذا قتلتُم ولدي.. لماذا قتلتُم سَنَدِي، أعِيدُوهُ إلى الحياة؛ إنه بَرِيء.. اليوم ليلة زفافِه.. أعيدُوه إلى الحياة وَاقْتُلُونِي مكانَه!

أمسَكتْ بِقميصِ رجلٍ منهم كان يضحك بِهستيريّةٍ وهي تقول كَالمجنونة:

-ماذا فَعَل لكم اِبْنِي حتى تقْتُلُوه، لماذا أحضرتُم جثّتَه المُمَزَّقَةَ إليّ؟ لماذا تفعلون ذلك؟ أَيُعْجِبُكُم سفكُ الدماء؟

اِنتفضتُ بِقوةٍ حين رأيتُ ملامِح ذاك الشابّ مقطوعِ الرأس كان يبتسِم.. وكانت والدتُه تحتضِن رأسَه وتردِّد:

-بَل أحياء عند ربّهم يرزقون..

شهَقْتُ بِغَضَب ولمستُ جَبِيني، كنت أتصبَّبُ عَرَقًا، بَدَوتُ غير مرئيَّةٍ أو هكذا خُيِّلَ إليّ حين لم يَلحَظْ أحدٌ وجودي، مسحتُ على وجهي وألقيتُ نظرةً على ما حولي؛ ربّما كان ذلك كابوسًا، اِختفى كلُّ شيء.. الظلام اِنقَشَع؛ الجَميع نِيَامٌ على الأرض، قد يَكونُونَ فاقِدِينَ لِلوَعي، حاولتُ إيقاظَ نبرمان فَشعرتُ بِحرارةِ جسدِهَا التي حَرَقَت يَدي، كانت تتنَفَّسُ بِسرعةٍ وكأنها مَحْمُومَة، هداية.. آبنوس.. الجدّ كماتر، نبرمان؛ لكن.. أين يقين؟

***

(نبرمان)

أراهُ بِوضوح.. إنّه مراس، كان يحمل فتاةً صغيرة ساقُها مبتورة؛ والأرضُ من خلفِه تصبح زجاجيّة كلما تقدّم خطوةً نحو الأمام،

وقفَ أمامي ووضعَها بَين يَدَيَّ مُبْتَسِمًا، دون أن ينبس بِبِنت شفة نظرتْ تلك الصغيرة إليّ وهي تردّد بِذعر:

-لَم أستطِع الثّأرَ لأمي.. لقد كنتُ ضعيفة!

دفنَتْ وجهها في حِجابي وانْخَرَطَت في بكاءٍ طويل فَحَاوَلْتُ التّخفيفَ عنها وأنا أقول بِشَفَقَة:

-ماذا حدث يا صغيرتي؟

-لقد قَتَلُوا أمي أمام عينَيّ، وقد كانَت تبكي..

-من هؤلاء؟

-إنّهاالأميرة!

جَثَوتُ على ركبتيّ واحتضنتُها ثم همستُ باكِيَةً والرغبة في الانتقام تضطَرِم في جوارِحي:

-أعدكِ أنّني سَأثأرُ لكِ يا صغيرتي، أعِدُكِ بِذلك..

سمعتُ مراس يقول حِينها بعد صمتٍ طويل:

-أَفقَدَتْها الحَرْبُ أَهلَها..

-أشعرُ بِألمها، لقد عانَيْتُ ذلك من قبل، أنا وَحيدة.. يتيمَةٌ مِثلهَا؛ لقد قُتِل والِدَاي أيضا.

اخترَق صوتٌ رقيقٌ غفوتي مُنادِيًا بِاسمِي بعد ذلك فَفتحتُ عينيَّ على وجهِ تقى وهي تُحاول إيقاظي، تصفَّحت مَلامِحَهُم جميعا، كانوا نِيَامًا مَرْمِيّينَ على الأرض، نظرتُ إلى تقى التي يبدُو أنها أوّل من صَحَتْ منهم وقلتُ بِسرعة:

-أين يقين؟ ومراس.. ألم يَأْتِ بعد؟

***

(آبنوس)

أخذَتْ أمان بِيَدِي وقدَّمتْ إليّ زهرةً زرقاءَ جميلة، جَلَسْنَا على كرسيّ ثنائِيّ نُرَاقِب التَّوْأَمَتَين اللّتين كانَتا تلعبان بِالقُرْبِ منّا في ذلك المرجِ الأخضر المُمْتَدِّ إلى حدِّ العمى، بَدَت أمان حزينة ووضعَت رأسها على كتِفي وَاستمرّت تُحَدِّقُ في الفراغ، تقدَّمَت غيدَاء نحوَنا فَتَبَيَّنْتُ وجهها المُخَضَّلَ بِالدماء، نظرَت إليّ وابتسمَت وهي تقول بِشَمَاتةٍ بريئة:

-أخبرتَنا أنّ مَلْءَ البئرِ صعبٌ يا أخي، لقد تمكَّنَّا من فعلها مع ذلك..

لَحِقَتْهَا رخاء وهي تُعَقِّبُ على كلامِها:

-لَسنا الوحيدتَين، الكثيرُ من البناتِ مَلأنَ آبار آبائِهِنّ وأمهاتهن الفارِغَة؛ من كانَتْ له بِنْتَانِ صالِحَتَانِ أدْخَلَتَاهُ الجنّة، لم يَترُكْنَا الله يَتَامى يا آبنوس، عُدْ إلى ذلك البئرِ الآن، إنّه طريقُ العودة.

-العودة؟

-نعم.. أنتَ أحضرتَهُمَا، عليكَ إعادتُهُمَا إلى حيثُ يَنْتَمِيَان.

حدَّقَت أمان فِيَّ وقالت بِدهشة:

-لكنّ البئر جافٌّ منذ زمنٍ طويل، بئرُ هايدرا لا يمكن أن يعود إلى الحياة!

قاطعَتْها غيداء نافية:

-لقد عاد.. بِفضل تلك الفتاة.

تَنَحَّتَا عن أمامِنَا فَرأينا البئر الكبير وقد جلسَت على حافّته فتاةٌ تبكي، تَبَيَّنْتُ وجهَهَا فإذا بِهَا تقى، أحاطَتْهَا زُمْرَةٌ من الفراشاتِ وهي تضَع بين يديها فتاةً في الخامسة بَدت وكأنها فقَدَت الحياةَ أو

أوشَكَت، أطلّت على البئرِ فَسَمِعْنَا اِرْتِدَادَ صَدَاهَا وهي تقول بِشَجَن:

-اللهم أنتَ تُحْيِي بعد أن تُمِيت، وتُمِيتُ بعد الحياة؛ أعِدْ هذا البئرَ إلى سابِقِ عهدِه يَنضَح بِالمياه، اِرحَم هؤلاء المُسْتَضْعَفِين يا رحيم، فلا مَلْجَأ من قضائِكَ إلا إليك.

ظهَر أمامَها فجأةً كمٌّ هائِلٌ من الأطفال يِرتدُون ثيابًا بيضاء ملطّخة بِالدماء وَتَعْبَقُ مِنهُم رائِحَةٌ زكيّة، ثم أتَت نبرمان من العدَمِ رفقة مراس وقدَّمتْ إليها فتاةً أخرى مَبتورةَ الساق وهي تَتَّقِدُ غضَبًا وتحترقُ بِدُمُوعِها، ضمَّتهَا تُقى إليها وَقَبَّلَتْهَا بِحُبٍّ ثم نظرَتْ إلى حيث تقِفُ نبرمان فإذا خلفَها وخلفَ مراس جمعٌ غَفير من النساء والرجال لَمْ أَرَ أجملَ منهم في حياتي؛ يَلبسُون ثيابًا بيضاء مُحْمَرَّةً بِالدّماء وَيَقِفُونَ في سُكونٍ وكأنهم يُشَيِّعُونَ روحَ تلكَ الفتاةِ التي بَين يَدَيْ تقى، خَطَتْ نبرمان نحوَها حين لاحَظَت تأَثُّرَهَا ورَبّتتْ على كتفِها وردّدت:

-"ولا تحسبنّ الله غافلا عَمَّا يعمَل الظالمون"

سألتُ رخاء بِتعجّب:

-من هؤلاء؟ ولماذا ثيابُهُم البيضاء مُتّسِخَةٌ بالدماء؟

-إنهم الشهداء.. ودماءُهُم مِسْك..

تفجَّرَت المياهُ داخِل البئرِ فجأةً فَرَدَّدَ الحشد المُحَلِّق حول تقى ونبرمان ومراس بِصوتٍ واحد:

-"فإنّي قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الدّاعي إذا دَعَانِ"

هَرْوَلَت غيداء وَرُخَاء نحْوَهَا وهُمَا تَصِيحَانِ بِغِبْطَة:

-لقد اُسْتُجِيبَ دعاءُهَا، لقد مُلِئَ البئرُ أخيرا..

شعرتُ بِألمٍ يَطْرُق رأسي وَطَنِينٍ عنيفٍ يَتَرَدَّدُ به فأغمضتُ عينيّ ولم أفتحْهُمَا إلا على صوتِ كُمَاتِر وهو يُنادي:

-آبنوس.. اِستيقظ يا بُنَيّ..

طالَعْتُ وجوهَ الجميع وأخذتُ أنادِي عليهم فُرَادَى:

-جدّي.. نبرمان.. تقى.. هداية..

بحثْتُ بين قَسَمَاتِهِم مجدّدا وسألتُ بِفَزع حين اتَّضَحَت الرُّؤيَة جيدا:

-لكن.. أين يقين؟ ومراس؟

بَدَا الذُّعر على وجهِ هداية وهي تَقُولُ بِخوف:

-كنّا نَظُنُّ أنَّك تعلم.. أنت الكاتِب..

***

اِقْتَحَم كهمس الغرفَةَ التي تجلِسُ بها هيلدا وسارَع نحوها مُلاَمِسًا يَدَها لِيَنْقُلَها إلى منزِلِ تلك السّاحرة العجوز على جناحِ السرعة، دائرَةٌ من الدّم المُجَفَّفِ تُحيطُها؛ لم تعلَم يومًا لِمَ تحتَمِي بها من تلك القوى التي خارِجَها، وعجوزٌ ذاتُ عَينٍ مَطْمُوسَةٍ تقِفُ أمامَها وتحرّك قِدْرًا به سائلٌ أخضَرُ زبرجَديُّ اللون وعلى وجهِهَا المَقِيتِ غَبَرَةٌ وطلاسِمُ لَم تفهم كنهها يوما، ثم.. لا شيء بعد ذلك وكأنّهما في العدم المُطلق؛ ليس هناك بصيصُ شعلةٍ غير النار التي تحت القدر، اِقشعرّ بدنُها حين سمعَتْهَا تقول بِتَلَهّف:

-مراس لِوحدِه الآن.. أَعِيدِيهِ إلى عالَمِه.

-كيف؟

رشقَتْها سِلاب بِنظرةٍ جَرِيئَةٍ وهي تكشّر عن نابِهَا الفضّيّ وَتَصِيحُ كَأَفْعَى تَنْقَضُّ على فَرِيسَتِها:

-بئر هايدرا سَيعيده مع أنّه لا يريد، عليك فعلها لِتُثَبّطِي نبرمان، اِرمِهِ في البئر وسَيُسَاعِدُك كهمس!

***

(مراس)

جَرَفَنِي إحساسٌ عارِمٌ بِالبردِ فجأة، فتحتُ عينَيَّ مُرْتَعِشًا فَوَجَدْتُ نفسِي في مكانٍ مظلم؛ مَا فَوْقِي هَبَاءٌ مُدْلَهِمّ، وما تحتِي هَبَاءٌ مُدْلَهِم، تحَسَّستُ ثيابي فإذا بِها مُبْتَلّة وكأنّني عَبَرتُ البحرَ إلى الأعماق؛ أَفزَعَنِي ذلك الهاجسُ الذي بَزَغ على أفكارِي فجأة، ماذا لو حدَث ذلك حقًّا؟ لكن.. كيفَ يكون عُمْقُ البحرِ مَكَانًا يَتَوَافَرُ على الهواء، وكيفَ يكونُ خَالِيًا من الماء؟ لا بُدّ أنني في مكانٍ آخر.. سمعتُ وقعَ قطراتِ الماء التي وقعَتْ من السّقفِ على الأرض مُتَرَدِّدَةً بِعِنادٍ فَصِحْتُ بِثَبَاتٍ يَكَادُ يَنْهَارُ بُنْيَانُه:

-أين أنا؟ هل مِن أحدٍ هنا؟

نَدّت ضحكَةٌ عالية من مكانٍ مُرتفع، صوتُ هيلدا؛ كانت تُكَلِّمُ شَخصًا ما قبل أن تقول بِتَهَكُّم:

-لقد تَرَكُوكَ هائِمًا هنا؛ بعيدًا عن الجميع، تُعَانِي وَحِيدًا.. تَسْتَلِم نصيبَك مِن العذاب، عذابُ الضمير؛ عذابُ الحب، وغَليلُ الانتقام يتأجّج داخلك، ما الذي سَتَفْعَلُه الآن؟ لن تَرَاهُم مجدّدا.. إلى الأبد!

نظرْتُ حولِي فَشعرتُ أنّني أعمى لِفرطِ الظلام المُحدقِ بي، أردتُ أن أَسْتَنْجِدَ بِشخصٍ لِيُخَلِّصَنِي مما أنا فيه؛ أبي.. يقين.. الجدّ كماتر، تقى.. هداية.. آبنوس..

-نبرمان!

صِحْتُ حين تذكّرتُ وأنا على حافّة الاِنهيار، هل هو الوَداعُ إذن؟ هل حانَ وقتُ العودةِ إلى العالمِ الذي لا أعرِفُ عنه شيئا؟ أشعُرُ بِالشّوقِ يُمَزّقُ أَضْلُعِي كَسِكّينٍ حَادّ، أنا أنتمي إلى هذا العالم، أنتمي إلى ذاك المكان، لقد تركتُ قلبي هناك!

داهَمَتْنِي رغبةٌ في الصراخ بِأَعلى صوت، لا شيءَ أَمْكَنَهُ أن يخفّفَ من حِدَّةِ هذا الشّعور؛ اِنطلَقَت هيلدا تهتِفُ لِتَجْعَلَ الألمَ يَتَفَاقَم:

-لن تسمعكَ نبرمان، لن تسمعكَ إلى الأبد؛ ولا أنتَ سَتَتَمَكَّنُ بعد الآن مِن اِستِرَاقِ نظرَةٍ وَلَو كانت خاطِفَةً إلى ملامِحِها، أَرَأَيْت.. أنتَ على جَبَرُوتِكَ ضعيف؛ على قُوَّتِك هائِمٌ في الظُّلمات.. ومَن كنتَ طول هذا الوقت؟ ذرةٌ تائِهَةٌ في السّديم؟ هباءٌ تعبَثُ بِه الرياح؟ أنتَ لا شيء في هذا المكانِ لأنك لا تنتمي إليه، أنت نَكِرَة.. رمادُ مَكْتَبَةٍ قَدِيمة، هل تظُنُّ أن حياتَك مُهمّة؟ هل تظنّ أن مغادرَتَكَ سَتُحْدِثُ فَارِقًا في حياةِ الآخرين.. مَا وَجْهُ المُقارنَةِ بين وُجودِكَ وعدمِه؛ من أنتَ حتى تَتَمَسّك بِوُجُودِكَ هنا لِتلك الدرجة؟ ماذا قدَّمتَ حتى تُصِرّ على البقاء؟ ما الفرقُ الذي سَيحصُل لو غادَرْتَ أَو متَّ؟ أَتَرَى أن حياتَك تَسْتَحِقُّ أن تعيشَها؟

قَهْقَهَت بِلُؤْم فِيما أنا مُنْهَمِكٌ في البحثِ عنها بين العَتمة التي تُحِيطُني، خَطوتُ نحو الأمامِ بِتَرَدُّدٍ محاوِلاً تَبْدِيدَ تَوَتُّري والرَّهبةِ التي تعتَرِيني وصِحْتُ مُتَحَدِّيًا:

-أنا؟ آدمِيٌّ خُلِقَ لِغَاية.. وَوُجِدَ هنا لِغرضٍ لا تعلَمِينَه، وربما لا أعلمُه أيضا؛ إنسانٌ يُقاتل المصاعب على حلبةِ الحياة لِيُتَوَّجَ بِالنّصر، وبِأَيِّ حقٍّ تحكُمينَ عليَّ بِالموت؟ بِأيِّ حقٍّ تَسلِبِينَ الرّوح

مِن أجسادِ الأبرياء؟ أنا طينٌ لازِب يا هيلدا، لكنّني لَم أُخْلَق مِن فَراغ؛ لقد وُجِدْتُ في هذا العالم لأكونَ عظِيمًا، ولا أدنى من ذلك!

-أنتَ بِأَيّ حالٍ سَتَعودُ إلى حيثُ تنتَمي.. سَتُغَادِرُ مَكلُومًا سَتَكونُ أين يجدُر أن تكون؛ وَتَترُكُ الصغيرة المُتَيَّمَة بِحُبّك تعيشُ الأمرَّين، ترشُف من شوقِ الهيام، حين تذبُل نبرمان ألما؛ سَتكونُ مملكةُ الزجاج تحتَ نُفوذي..

-"متى استعبدتُم الناسَ وقد ولدَتهُم أمّهاتهم أحرارا"، من أنتِ حتى تحكُمي عليهم بِالقتل جورًا وظلما.

كانت الأرض تبدُو مسطّحةً كلّما وَطأَتْهَا قدَمَاي؛ هرولتُ بِعصبيّة وصَوَّتُّ بِجنون:

-هل إلى خروجٍ من سبيل؟

ومَض نورٌ أبيضُ من الأعلى ورأيتُ حبلاً يمتدّ نحوي، شعرتُ أنه طوق نجاةٍ لِغريقٍ في بحرٍ مُترامي الأطراف؛ تسَلّقتُه فَشعرتُ بِشيءٍ مَا يجذِبُني نحو الأعلى، اِبتسمَ ذاك الشابّ الذي رفعَني حين وطأَتْ قَدَمَايَ الأرض وقال بِلَوعَةِ فزعٍ بادِيَةٍ على وجهِه:

-كنتَ تغرقُ يا فتى!

بِئر.. لقد كنتُ طوال الوقت داخل بئر.. لكنني لم أكن أغرق حدجتُه بِنظرةٍ هَوجاءَ وصِحْتُ مُتعَصِّبًا:

-لم أكن أغرق.. أنا لا أغرق..

رميتُ نفسي في البئر مجدّدا فَابتلعتُ كَمًّا هائِلاً من المياه ركضَ ذلك الشاب وحَمَلَنِي مرّةً أخرى فصرختُ مِلْءَ صوتي:

-دَعنِي أَعُدْ إليهم، نبرمان هناك!

توقَّفتُ فجأةً عن الهُتافِ كَالأَرعَنِ الفاقِد لِعقلِه وهَمْهَمْتُ بِشرود:

-هل نبرمان تُحِبُّني؟ هل تهتَمّ لِوجودي هناك؟

-اِهدأ يا صاح، يبدو أنّك فقدتَ وعيك حين غرقتَ في البئر ورأيتَ كابوسًا ما.

شعرتُ أن الأرض تَميدُ بي، أخذَتْ الأفكارُ تعصِف بِرأسي فَأمسكتُ بِقميصِهِ وأنا أقول مردّدًا بِتوتّر:

-لا يُعقل أن يكون ذلك كابوسًا عابِرًا.. إنها حياة، عالمٌ آخر.. هايدرا، الهيدرانجيا؛ اِنفصالُ المملكتين، هيلدا وكهمس، الأخوان يقين وهداية؛ الطيّبة تقى، أبي.. رامان، الملك كماتر؛ آبنوس.. وزوجته أمان التي يهيم فيها، وأنا.. شَظايا روحي، بل روحي كلها؛ لقد تركتُ نفسي هناك.. نبرمان، ألَن أراهُم مجددا؟

مَاشَانِي ذلك الشاب الذي بدَا راعِيَ غنمٍ في حديثِي وكأنّه يكلِّمُ مَجنونا بِهِ لُبْسٌ مِن شَياطينٍ مَريدةٍ تتلاعب بِعقله:

-تمالك أعصابكَ وأخبرني.. لماذا أنت عصبيٌّ هكذا، لماذا تصرخ..

اِرتميتُ على الأرض وتحسّستُ وجهي، شعرتُ بالضعف الشديد، هل أنا.. أبكي؟

نظرَ إلي بِشَفَقَة وقال بِهدوءٍ وتفهُّم:

-لماذا تبكي؟

أشحتُ عنه وأجبتُ بِشرودٍ وأنا أكُفُّ نفسي:

-لِذِكرى حَبيبٍ هَيَّجَت لي عبرةً

سفوحًا وَأَسْبابُ البكاء التَّذَكُّرُ

بَلَى إنَّ فُقدانَ الحبِيبِ بَلِيَّةٌ

وَكَم مِن كَرِيمٍ يُبْتَلى ثم يصبِر

ربَّتَ على كتفي وقال وكأنّه يُجاري جُنُوني:

-عليكَ أن تعتَاد الفُقدان يا صديقي، على كلِّ حال؛ حياتُك سَتَسْتَمِر، سَتَنْسَى رغمًا عنك.

-هل سَأبقى بعيدًا عنهم؟ أُريد العودةَ ولو لِمرَّةٍ أخيرة، لِيَومٍ واحِد فقط..

لَكَمْتُ البئرَ فَتَحطّم جزءٌ مِن الطُّوبِ الذي بُنِيَ منه وأضفْتُ بِغَضَب:

-أُريد أن أحتضِن أبي، أن أرى ولَو لِمرةٍ واحدة تعابيرَ وجهِ نبرمان البريئة، أن أسمع صوتَها قبل أن أُغادر، أن أطلُبَ منها تذكارًا يُعَلِّقُها بذاكرتي؛ حتى لا أَنسى.

خلعتُ قميصِي ونظرتُ نحو ذلك الشابِّ الذي كان مُنْدَهِشًا وأنا أَصِيح:

-أُنْظُر.. لقد اِخترق سَهْمٌ مِن سِهَامِهَا كتفِي، لا زَالت هناك نُدْبَةٌ باديةٌ عليه؛ أترى؟ إنه جرحٌ حقيقيّ، حقيقة.. ألمٌ حقيقي؛ إنه ليس كابوسا، ليس وهمًا، ما أنا فيه الآن هو الوهم!

-أنت مُخطِئٌ يا أخي..

قاطَعْتُهُ مُبتسِمًا وأنا أتذكّر تلك الحروف الثّلاثةَ التي جعلَتْ ذلك الشاب يَغْتَصِب ودّي فور أن اِلتَقَينا:

-أخي.. كان يقين يُنادِيني بِهاته الكلمة، اِشتقتُ إليه..

-ربما كنتَ في بلادٍ بعيدةٍ وأصابك التّعب فأصبحتَ تهذي، أنت الآن في عالمٍ حقيقيٍّ به بشرٌ حقيقيُّون؛ اِبحَث عن حياةٍ هنا اِصنع حياةً هنا.. وَانْسَ الحياة التي كنتَ تعيشُها هناك!

شعرتُ بالإنهاك فارتميتُ على حافّة البئر وارتديتُ قميصِي المُبْتَلّ مجدّدا، وقلتُ بِهدوءٍ شديدٍ وكأنّ هُدْنَةً مفاجِئَةً جرفَت سَيْلَ العَرِم الذي كان يَجْتَاحُني:

-لا يُمكن للحقيقة أن تكون مُخادِعةً هكذا، ليسَ من العدلِ أن تُظَلَّل، الحقيقةُ طوال تِلك السّنين لِتبزغ فجأةً حين أتعلّق بِالوهم السّراب هو ما أراه الآن؛ ولا شيء غير السراب يَمْثُلُ أمامي.

حدَّقتُ في اِنعِكَاسِي على صفحةِ مياهِ البئر وأردفْتُ:

-أعِدُكِ أنني سَأعودُ إليك يا نبرمان، أعِدكَ يا أبي.. أعدكِ يا هايدرا!

***

صَاح في ذعرٍ وهو يَلتَفِتُ حولَه كَالضّائِع في بحرٍ من حَليبٍ يَسْتَنْجِد، لكنّ الصمت كان يُقَابِله؛ لم يسمَعْ صَوْتًا غيرَ صَدَاه؛ ولا رَأَى بَشَرِيًّا قَطّ، أَو أيَّ أثَرٍ للحياة، حاول النُّزول على الأرض فَالْتَقَمَتْهُ وأخذتْ تَبتَلِعُهُ وكأنّها قطَعُ أوراقٍ بيضاءَ ممزّقة، اِندَفع بِقوّة إلى الأعلى وبَقِيَ كذلك حتى تَعِبَ جَنَاحَاه، بَرْبَرَ مُنَادِيًا أَيَّ كائِنٍ حَيٍّ يُمكنه التّواجُد في ذاك المكان:

-أَمَا مِن أحدٍ هنا؟

سمعَ هَمْهَمَةً فَحَاوَل التّوجُّه نحو مَصدَرِها، ظهَرتْ هداية أمامَهُ فجأةً فَتَوَقّف عن الطيران وَرَمَقَهَا بِسَعادة، كانَت تبتسِم دون أن تقولَ شيئا؛ اِقْتَرَبَ مِنْهَا فَفَتَحَت ذِرَاعَيْها وردّدت:

-فَلْنَعُدْ يا أخي؛ يجبُ أن نعود إلى عالمِنا.

شَعر بِالنُّفور فَتَراجع مسافةً قصيرة نحو الخلف؛ نظرَت إليه شزرًا وحاولَت التّحكُّم في أعصابِها وهي تقُولُ مجدّدا:

-ما بَالك يا يقين؟ أنتَ تُريد العودة، فَلِمَاذا تُرَاوغ؟

اِبتسَم مُسْتَنْكِرًا وأدخل يَده في جَيبِه وأجاب:

-أعتقدُ أنه ما مِن دَاعٍ لِتَبْقَي على هاتِه الحالِ يا "أختي"

حَملقَت فيه بِبراءةٍ واقتربَت منه وقالت:

-ماذا تقصد؟

-من أنتِ؟

-هداية..

-لستِ كذلك.. هداية عينَاها بُنِيَّتان وليسَتا سَوْدَاوَتَيْن، وليس لديها وَشْمٌ في يَدِها.. وليسَت قصيرةً أيضا!

حامَت صورةُ تلك الفتاةِ وتحوَّلت إلى جسدٍ ضبابيٍّ يحملُ سَيْفًا وَجَّهَهُ نحو جبْهَةِ يقين الذي تَراجع وصاح:

-من أنت؟

اِلتزَم الصّمت وتبدّد في الأثير مُلْتَفًّا حولَه ثم جَرح وجهَه مَّرَّة أخرى وكأنّه كان يَسْتَأْنِفُ رسمَ شيءٍ ما عليه بِالجراح؛ اِرتَفَع في الهواءِ أكثرَ وهو يلهَثُ بينما تَبِعَهُ الضّبابُ فَصرخ:

-هَل إلى خروجٍ من سبيل؟

اِمتدّ حبلٌ نحوَه من الأعلى فَأمسك بِه وَانْتَظر إلى أن رفَعَهُ ثم ألقى نظرةً حولَه فإذا بِنبرمان وَقَد أصبَحَ لَديها جناحَان أبيَضَانِ كَلَونِ الحليب تَحْمِلُ هداية التي رفَعَتْهُ مِن أرضِ الغابة، أَطَالَ النّظر إليها وقَرَصَ خدّها وهو يقول بِتَوَجُّس:

-هل أنتِ هداية الحقيقيَّة؟

اِرتَمَتْ عليه وَاحتَضَنَتْهُ فَأفلَتَتْ مِن بين يدَي نبرمان وكادَت تسقُط لكنَّه تدارك الموقف وحمَلها؛ لكَمَتْهُ على كتفه وقالت:

-لِماذا نزلتَ إلى الأرض.. أعشابُ الغابة تصبِح سامّةً حين تنفصِلُ المملكَتان، هكذا أخبرَتْنِي نبرمان.

-سَامّة؟

تدخَّلتْ نبرمان قائِلة:

-لقد لَدَغَتْكَ عقرب، أليس كذلك؟

-نَعم.. أظنّ أن كلامكِ صحيح.

-سُمُّ تلك العقاربِ يُفقِدُ الإنسانَ وَعْيَهُ ويجعلُه يرى أشياءَ غريبة، قد تُعَبِّرُ عن مخاوِفِه، لقد كنتَ تصرُخ أثناءَ إغمائِك، ولولا ذلك لما تمكَّنَّا من العثورِ عليك.

-ماذا عن السُّم؟

-لا تقلق.. أَثَرُهُ يزول بعد ساعةٍ من إصابتكَ به.

صاح مُتَفَاجِئًا حين نظرَ إلى أجنِحَتِها وكأنّه انْتَبَهَ للتَّو:

-لديكِ أجنحةٌ أيضا..

ضحكَت بِلُطفٍ فَقالت هداية:

-قائِد السّناقِر سبَّبَ جُرْحًا غريبا بين كتِفَيْهَا، وذلك سبَبُ وجودِ الأجنحة.

أضافَت نبرمان على حديثِها:

-كنتُ أشعُر بِالحرارة، وَبَدَت آثارُ الحمّى عليَّ حتى بعد عبورِ الغابة، وحين استيقظتُ وجدتُ أنّني امتلكتُ أجنحةً وأنّ الجرح قد اِخْتَفَى!

***

حمَلَت أمان الكِتاب بين يدَيْهَا في رهبَةٍ وقرأَت على غلافِه:

-مملكةُ الكلمات.

اِنطلقَ صوتُ هداية وهي تَسْتَوْقِفُ تقى التي هَمَّت بِمُغَادَرَة منزلِ آبنوس:

-تُقى.. المَكَانُ خَطِرٌ بِالخارج.

-أنَا بِالجِوار، أستَطْلِعُ المكانَ فقط.

-سَآتِي معكِ إذن.

كانَت نبرمان مَشغولَةَ البالِ، تشعُرُ بِانقِبَاضٍ غَرِيبٍ في صدرها حاولَت التّماسُكَ وهي تقول:

-سَأُرَافِقُكُمَا أيضا.

همَّتْ تقى بِقَول شيءٍ لكنّها أضافَتْ مَانِعَة:

-أُريد التّخفيفَ من حِدَّةِ قَلَقِي على.. هايدرا.

لَمَحَ الجميع ومضةً زرقاءَ تَسْتَكِينُ على حافّةِ النّافذَة التي توَجَّهَت أمان نحوها وهمسَت:

-الفراشةُ التي رأيتها يومَ احترَق المنزل!

تقدَّمَت نبرمان ومدَّت يدها لِتَحُطّ تلك الزّرقاء الشّاحبة عليها فَيَتْبَعهَا سِرْبٌ هائِلٌ اِقْتَحَمَ المنزِل وحَلَّقَ حول نبرمان التي شعَرَت بِبَعض الطمأنينة وهي تقولُ مُخاطِبَةً الفراشات التي تُغَطِّي جسدَها:

-كيف تَمَكَّنْتُنَّ من المَجيء؟

بَدَت مُنْدَمِجَةً في شيءٍ ما فَقال جدُّها بِفضول:

-هَل هي تقول شيئًا ما؟

أجابَت نبرمان بِودٍّ وهي تَبْسطُ يدها لَهُنّ لِتَقِفْنَ عليها:

-نعم.. أنا أَسْتَمِع.

اِسْتَدَارَت نحو أمان فجأةً وكأنّها انْتَبَهَت ثم أضافت:

-سيّدة أمان.. أين المرآة؟

-تقصِدِين..

قَاطَعَها آبنوس وكأنّه فهِمَ قصدَها:

-المرآةُ التي الْتَأَمَتْ شَظَايَاهَا حين احْتَرَقَ المنزل.

وَقَفَتْ أمان دونَ أن تنبِسَ بِبِنْتِ شَفَةٍ وأشَارَت إليهم لِيَتْبَعُوهُا فتَحَت إحدى الغُرَفِ وَأَدْخَلَتْهُمْ حيثُ كانت مُسْتَنِدَةً إلى جدارٍ سماويّ اللون بِحَجمِها الهائل ولَمْعَتِها الفَريدة، بَدَت مُختَلِفَةً عن كُلِّ المَرَايَا التي رَأَوْهَا مِن قبل، وَكَأَنّ حوافَّهَا صُنِعَتْ من اليَاقوت؛ تَشُوبُهَا أحجارٌ مِن الهيماتيت الأسود، أَو أنها صِيغَت مِن مياهٍ صافية، لَمَسَت نبرمان سَطْحَهَا بِهيبَةً وَتَمْتَمَت:

-مِرآةُ الانعكاسِ الثالث!

***

اِستَوَتْ هيلدا جالِسَةً على كرسيٍّ فارِهٍ مُرَصَّعٍ بِالعَقِيقِ الأحمر واللازورد، ونادَت على كهمس بِأعلى صوتٍ من فوقِ العرش الذي كانت تَعْتَلِيه فَدخل مُسْرِعًا إلى الدِّيوان وقال مُستغرِبًا:

-عرشُ كماتر!

قهقَهَتْ بِسَماجةٍ فَأضاف حين نظَر إلى وجهِهَا:

-لقد فَقَدْتِ نَصيبًا هائلا من جمالِ شكلك، فَلْنَتَّفِقْ على أن الإنسان يفقِدُ عُنْفُوَانَه حين يُحِيطُ نَفْسَهُ بِالشّر.

-وها قَد بَاءَت مُهِمّتي بِالنجاح.

تَمَلْمَلَتْ قليلا قبل أن تستدرك بِحقد:

-ما أُريدُه منكَ الآن هو.. تلك الفتاة!

اِزْدَرَدَ رِيقه وسأل:

-أَيُّهُن؟

-تِلك التي تُسَمَّى تقى، أحضِر إليَّ شَيئًا يَخُصُّهَا، أو أحضِرْهَا إليّ.

تلَوَّى جَسَدُهُ ضَبَابًا في الهواءِ دون أن ينطِق بِحرف وغادَر الدّيوان بِسرعة مُنَفِّذًا ذاك الأمر، بينما جلَسَت في وُجومٍ لا يُسمَع لها صوتٌ غير تصادمِ الحُليّ المُثقّلة حول مِعْصمَيها وعنقِها وقدمَيها.

اِنتفضَت فجأةً وتيبَّسَت وَعلَتْ وجهَها قَسَماتُ البغض وهي تصرُخ بِحقد:

-سَأقتلُهم دون تردّد.

***

(تقى)

شعرتُ بِالضّجر، شيءٌ ما يَسْتَهْوِينِي لِلخروج؛ اِنقِبَاضٌ ما في صدري يجعلُني أَوَدّ الاِنفِرادَ بعضَ الوقت، على عَتَبَاتِ أرواحِنا تجثم كثيرٌ من فضلاتِ الذاكرة؛ تُنَظّفُها خلوتُنَا مع فِكْرِنا وتصحيحُ أخطائِنَا بِدَعْوَةٍ صادِقة، في لحظةِ صدقٍ شفّافة؛ ثمّ طمسُها بِعملٍ صالِح.

تَسلّلتُ من بينِهم وتركتُهُم مُنْشَغِلِينَ بِتِلكَ المِرآة؛ أغلقتُ البابَ وجلستُ على عَتَبَتِهِ لِبَعضِ الوقتِ فَفُتِحَ من خلفي وخرجَت منه فتاةٌ تُشبه زوجة آبنوس لكنها أكثر لَوعَة، يبدو حزنٌ عميق بِعَينَيها الزرقاوَتين، إضافةً إلى سَوَادٍ ما يُخبِر بِألمٍ ما يُطِلُّ مِن بين جفونِها؛

وشحوبٍ يُنذِرُ بِقُربِ الانهيار والبكاء، بِالضعف والعجز.. وَلِمَ قد تكونُ كذلك؟

اِبتسَمَت في وجهي فَوَقفتُ وبادلتُها بسمَةً وَدُودَة، بَاغَتَتْنِي بِسؤالٍ دون مقدّمات:

-أتُرِيدِين أن نتمشّى قليلا؟

أخَذَت بِيَدِي دون أن تنتظِرَ إجابةً فَتبعتُها بِتَسليم، على بُعْدِ خطواتٍ من منزِلِ آبنوس توقَّفْنَا عند بيتٍ مُتَهَدِّم، لا شيء غير بَقَايا رمادٍ منثورٍ على الأرض، لكنّه يُنَبِّأُ بِفُتَاتِ حياة، بِمَوْتٍ ما؛ بِأَلَمٍ شُعِرَ به هنا بِالذات، قَلَّبَتْ كفًّا بِكَفٍّ وهمسَت تخاطِبُني:

-هَذا منزِلي الذي احْتَرق.

شعرتُ بالأسَف نحوهَا فَقُلتُ دون وعيٍ مِنّي:

-آسفةٌ على ما حصَل لكِ!

تنهّدَت وَوَلَّتْ عنه مُتَقَدِّمَةً نحو الأمام، أحيانًا نحتاجُ تجاوزَ نَكَبَاتِنَا حتى نَسْتَأنِفَ الحياة؛ حتى نَسْتَنبِطَ من الضّنك بسمةً ومن القَحط زهرة، وَنَسْتَمِر.. جميعُ البشر الذين حولَنا يَمْلِكُونَ داخلَهُم فَرَاغًا، هُوَّةً ما.. جميعُهُم مُتَعَلِّقُونَ بِأملٍ ما.. جميعُهم لدَيهم شرخٌ ما في أرواحِهِم، لكنّهم يَتَمَاسَكُون، وذلك يجعلُهُم يَبْدُونَ على الشّكلِ الذي نَرَاهُم بِه؛ لذلك جُبِلْنَا على التّناسِي، ولِذَلك خُلِقْنَا رحمَةً لِغَيرِنا، نَلْتَمِسُ لهم الأعذارَ حين يُخْطِئُون، وَلِذلك نَجبرُ كسورَنا بهم، وكُسورَهُم بنا؛ لِنُكمِلَ نقصنا بِنقصهم، ونقصهم بِنقصِنا.

كانَت تُبَاغِتُنِي بِكَلاَمِها دون سابقِ إيحَاء:

-أتعلَمِين كمْ أنّ الذنبَ مُؤلم؟

-الذُّنوب فوضى الروح، وسِجن الحواس.

طالعتُ بِخَطفةِ عَينٍ ثيابَها السّوداء وكأنها تُقِيمُ حِدَادًا وَهَزَزْتُ رأسي فَقَالَت بِانْكِسار:

-فَكَيف إذا كان مُقترِنًا بِفقدانٍ ما..

شعرتُ أنها في حاجةٍ لِلمُوَاساةِ فَرَبَّتُّ على كتفِها وقُلت:

-لعله خير.. ما سَلَبكِ الله إلا لِيُعَوِّضَك يا هوف!

-بَل هو عِقَابٌ صغيرتِي، أردتُ التّخلص من خطيئَتِي فَعُوقِبْتُ بِالضّميرِ إلى الأبد، والآن.. هل سَأُمضِي عمري أَعَضُّ على يَدَيَّ حَسْرَةً؟

زفرَتْ وأجابَت عن سؤالها بِبَساطة:

-لا أعلم.

لم أكُن أفهَمُ عَمّا تتحدّثُ لكنني أردتُ مُوَاسَاتَها، جبرُ الخواطرِ يُلْهِمُنَا السّلوَانَ والتّمَاسُكَ لأرواحِنا، في النهاية.. قد تكونُ سعادتُنَا مُقْتَرِنَةً بِسَعَادَةِ الآخرين، تَنْتَقِلُ إِلَيْنَا عَدْوَاهَا حِينَ ننشُرُهَا بينَهُم، لا يُشْتَرَطُ أن نكون بِخَيرٍ من الداخل حتى نَصْنَعَ السّعادة، نحنُ فقط نحتاج نِيَّةٍ صادِقَةٍ لِذَلك..

اِختَطَفْتُ نظرةً إلى السّماء وقلتُ مبتسِمَة:

-وهل سَتُضَيّعينَ ما تَبَقّى من حياتِكِ في التفكير بِمَا مَضى؟ أَيَرُوعُكِ زمنٌ انْقَضَى وَوَلّى، وَيأسِرُكِ بين جدرانِ التفكير والتّحسُّر والندم؟ نحن مَفْطُورُونَ على الخطأ؛ لِذلك مُنِحْنَا فرصَةَ التّوبة.

تنهَّدَت وظلّت تردّدُ في غَرَابة:

-ومن قال أن كثيرًا سَيَضِيع؟ مَن قال أن كثِيرًا قد تَبَقّى حتى أُضَيّعَه؟ من قالَ أنّني سأمكُثُ أطولَ مِما فعلت؟ نحن لاَ نملِكُ حياتَنَا؛ ولاَ نعلَمُ متى نغادِرُها.

بدت مُبْلِسَةً قانِطَة؛ حَاقَ بِها الألمُ والنّدم، عَاوَدَت الكَلامَ بعدَ لحظاتٍ من الصّمت وكأنّها تُحاوِلُ إعادَةَ نفسِهَا إلى سابِقِ عهدِها:

-يا رَبِّ إنْ عَظُمَتْ ذُنُوبي كَثْرَةً

فَلَقَد عَلِمتُ بِأنَّ عَفوَكَ أعظمُ

تنهّدَت وأضافَت بِارْتِيَاح:

-كانَت أمان تردّد ذلك الكلام كثيرا، وكنتُ أشعر بِالرّاحة حين أسمعُه.

أضفتُ على كلامِهَا بَعْدَئِذٍ:

-إن كان لا يرجوكَ إلاّ مُحْسِن

فَبِمَن يَلوذُ وَيَستَجيرُ المجرم

***

أسنَدَ مِراس ظهرَه إلى جِدَار منزِلِ ذلك الشاب وقال بِيأس:

-أنتَ لا تصدّقُنِي يا إياد.. أعلمُ ذلك!

-لا أُخْفِي عنكَ أنّ ما تقولُه عَصِيٌّ على الفهمِ والتّصدِيق أخبِرْنِي.. كيف يبدُو المكانُ الذي كنتَ فيه؟

-إنّه اتحادُ مَمْلَكَتَي الزّجاج والضّباب، تَفْصِلُ بينَهُمَا غابةٌ ذاتُ أشجارٍ باسقَةِ الطول؛ ولَهُ مَلِكٌ عجوز قد جَاوَزَ التِّسْعِينَ من عُمرِه، يَمْتَلِكُ حفيدَتَينِ إحدَاهُما في الخامِسَةِ والعِشرين؛ والأخرى في الثَامِنَةَ عَشَرَ مِن عمرها.

قاطَعَهُ إياد صائِحًا:

-ما تقولُه يُشبِهُ كلامَ امرأة عجوزٍ تُسَمَّى ساناز!

لم يُلْقِ مراس لِحَدِيثِه بَالاً، لمَع في ذِهنِه أنها أمه لكنه ابْتَسَم ساخِرًا من نفسِه وهو يُحَدِّثُهَا:

-"لقد دفَنْتَهَا بِيَدَيْكَ أيّها الأحمق، هذه ليسَت أمّك حتى لو كانَت من عالمِك!"

تنهّد وقال حائِرًا:

-ما الذي سَأفعلُه الآن.. أخبِرْنِي يا إياد؟

-هل تحِبُّ تلك الأميرة؟

أشَاحَ عنه بِحَيَاءٍ ثم قال مُسْتَجْمِعًا قواه الخائِرَة:

-وَمَاهِيَ إلاَّ أَنْ أراهَا فجأةً

فَأبْهتُ حتى مَا أَكَاد أُجيبُ

وَأصْرِف عَن رَأْي كُنْتُ أرْتَإِي

وَ أنْسى الذي أعْدَدْتُ حِينَ تَغيبُ

اِبتَسَمَ إياد وحاوَل مُوَاسَاةَ مراس قائلا:

-مسكينٌ عروة بن حزام..

-ماتَ بِسبب عفراء التي رفَض عمه تزويجها به!

رشَقَ إياد مراس بِنظرَةٍ حادّةٍ وقال:

-ما أحسبُ أن هناك حُبًّا أصدَقَ مِن حبّ عروة لِابنة عمّه.

تنهّد مجددا وقَبَض يدَيه خلفَ رأسِه ثم همَس:

-لا أعرِفُ يا إياد.. أنا حائِر!

وقفَ ذلك الشاب من مكانِه وقال وكأنّه ينقُل كلامًا مأثُورا:

-"اِسْتَفْتِ قلبَك.. فَالبِرُّ ما اطمأَنّ إليه القلب، والإثمُ ما حَاك في النّفسِ وتردّد فِي الصّدر؛ وإن أفتَاكَ النّاسُ وأفتوك"

-كَلامُ رسولِ الله مُريحٌ حقًا.

-ماذا قَرَّرتَ إذن؟

مكث مِراس يفكّر برهةً من الزمن ثم تَمْتَمَ بِإصرَار:

-سَأَعُودُ بِالتأكيد..

ذَبلَت عينَاه وشَعر بِالإحباطِ فجأةً وهو يُضِيف:

-ولكن.. ما السبيل؟

-"إذَا كان لكَ نَصِيبٌ في شيء، سَيَقلِبُ الله كل المَوَازِينِ لِتَحْصُلَ علَيه" ثِقْ بِه يا أخي!

-أنتَ تقولُ كَلاَمًا مُطَمْئِنًا.

ابتسمَ وقَال بِفَخر:

-قرأتُ ذلِك في إحدى الكُتُب.

رَبّت على كتِفِه وأردَف:

-فَلْنَذهب إلى منزِلِ العجوزِ أوّلاً.. لعلّها تخبِرُكَ بِما عليكَ فِعْلُه.

نادَى إياد على والِدَتِه فَأَقبَلَت رفقة ثلاثةِ أطفالٍ مُتَفَاوِتِي الأعمارِ وَبِيَد كلّ واحِد مِنهم شيءٌ يحمِلُهُ بين يدَيه؛ قدَّم طِفْلاَنِ مِنْهُم كَأسًا بِه عصيرٌ وصَحنٌ به حلوى إلى مِراس فَابتسم وشَكَرَهُمَا بِلُطف؛ مسَحَت أم إياد على وجهِه بِحنانٍ وقالت:

-اِحذر على نفسِكَ يا بُنَيّ، وأحسِن مَثْوَى صديقِك؛ مُرَّ على والِدِك في طريقِ عَوْدَتِكَ لِربما اِحتَاجَ منكَ شيئًا ما.

شعَر مراس بِالحنينِ إلى والدتِه فَهَمس بِاسمِها وهو يَتَذَكَّرُ كيفَ كانَت تُدَرّبُه بِنَفسِها على القِتال، كيف كانَت قويّةً كادِحَة تُبَارِزُهُ بِالسيف وهو في رَيعانِ الشباب، غادَر مع إياد المنزلَ فَشَيَّعَتْهُما أمّه وهي تُنادِي على مراس قائلة:

-عليكَ أن تأتِي لِلمَبِيتِ عندنَا أيها الشابُّ الطّيّب، تُسعِدنا ضيافتُك.

-لَن أرفُضَ طلبَكِ يا أمي.

اِبتَسَمَتْ على وقعِ كَلِمَتِهِ الأخيرَةِ بِاستِلْطَافٍ وَلَوَّحَت بِيَدِهَا مُوَدِّعَةً ثم عادَت إلى الداخل رفقة أبنائِها الثلاثة.

***

طرَقَت نبرمان على المِرآة بِرفق فَاهتزّت صفحتُها وكأنّها مياهٌ لَكِنّها لَم تَسِلْ؛ بَقِيَت تَتَمَاوَجُ بِشَكْلٍ عموديٍّ فَاخترقَتْهَا وخَرَجَتْ مِن المرآةِ التي في غرفتِها ثم عادَت وَهِي تصيحُ بِسعَادَةٍ مخاطِبَةً الجميع:

-لقد نجَحَ الأمر.. يُمْكِنُنَا التّنقُّلُ عَبْرَ المِرْآةِ بين المَمْلَكَتَيْن؛ ودون عُبُورِ الغابة.

اِلْتَفَتَت هداية يُمْنَةً وَيُسْرَةً ثم قالَتْ بِلَوْعَة:

-لقد اخْتَفَتْ تقى!

أضَافَت أمان على كلامِها:

-وهوف أيضًا.

صَفَع يقين البابَ وَاندفَع يَبْحَثُ عنهُما بينَما فتَحَتْ أمَان الكتابَ الذي شعَرَت به يَمُورُ بَينَ يدَيْهَا وصاحَت:

-الكَلماتُ تسقطُ على الأرض، والأحداثُ تُطْمَس!

-كيفَ ذلك؟ الكتابُ ليسَ في الغابةِ السوداء.

توقَّفت الكلماتُ عن السُّقوطِ فَقَرَأَتْ أمان عندَ آخرِ ما بَقِيَ منها:

-"وَعَادَ إلى عالمِهِ الذي لا يعرِفُ عنهُ شيئًا، كانَت الأميرةُ تبحثُ عنه.. ولَمْ تُصَدِّقْ ما قِيلَ لها مع أنّها سمعت عَنْهُ كثيرا؛ أمّا عن الأَخَوَين.."

اِرْتَفَع الكِتابُ في الهواءِ وظهَرَت عليه جُمْلَةٌ أخيرة:

-"فقَد تَمَكّنَا من صُنْعِ حياةٍ خارجَ كِتاب، لأنهما لَم يُؤْمِنَا بِالتّقليد، ولَم يَخْضَعَا لِوهمِ الانقِيَادِ خلفَ ما يَجْدُرُ بِهما أن يَفعلا بل صَنَعَا طريقَتَهُمَا الخاصّة في العيشِ هناك، ولِذَلك.. كانَا كِتابًا فَريدا من نوعه، لأنهما آمَنَا أن: (في التّقليد إبطال لِمَنفَعَة العقل لأنه إنّما خُلِق لِلتّأمُّلِ والتّدبّر، وقبيحٌ بِمن أُعْطِيَ شمعةً يستضِيءُ بها أن يُطْفِئَها ويَعيش في الظُّلمة) فَأَضاءَا شُموعَ مَن حولَهُما بِوَمْضَةٍ صغيرةٍ مِنْ نَفْسَيْهِمَا، نحو السّماءِ السّابعةِ اِنتشَر نورُهُما كَنُجُومٍ مَطْمُورَةٍ في جهنَةِ الليل"

اِبْتَسَمَت هداية وقالت:

-لَقد تغيّرَت الأحداثُ خارجَ الغابة!

***

ظَهَرَ كهمس مِن العدمِ فجأةً فَانْتَفَضَت هوف وهي تَنْظُرُ لِقُبْحِ مَلاَمِحِهِ بينما تَرَاجَعَتْ تقى خُطوةً نحو الخَلف وَاسْتَلَّتْ ثلاثَ سِهَامٍ مِن خلفِ ظهرِهَا وَرَتَّبَتْهَا في أصَابِعِهَا عَلى القوسِ في تَحَفُّزٍ وهي تقول:

-مَا الذي تريدُه؟

تَقَهْقَرَ نحو الخلف وأجابَ فِي سُخريةٍ وهو يَطَأُ بِقَدَمَيْهِ الأرض:

-لا دَاعِي لِلعُدوانيّة يا صغيرتي.. جِئْتُ مُسَالِمًا هاته المرة.

قالت هوف مُحَذِّرَة:

-إنّه يُريد اخْتِطَافَك..

اِسْتَرَقَتْ نظرةَ استغرابٍ إليها وقالت:

-أعلمُ ذلك.. أَتَرَيْنَ الأعلامَ أيضا؟

هزَّت رأسها فَصَوَّبَت تقى السِّهامَ نحوَ صدرِهِ وَأَطْلَقَتْهَا بِسُرْعَةٍ وهي تَصِيح:

-يُمكنكَ الاحتفاظ بِها إن أرَدت!

اِخْتَرَقَتْهُ السّهام ثم تلاشَت وكأنّها ذرَّاتُ رِمالٍ تمَّ تَصلِيبُها فَسَالَت الدّماء مِن جِرَاحِه وَقَال بِغَضبٍ شديدٍ حين شَعَر أنّه عاجِزٌ عن الحركة:

-لِمَ لا يُمْكِنُنِي الحراك، لِمَ لا أستطيعُ التَّقدُّمَ نحوها؟ إنَّها مُحَصَّنَةٌ بِطَرِيقَةٍ ما..

تَيَبَّسَت أطرافُه وزَاغَت نَظَرَاتُه فَاقْتَرَبَت تقى منه بِتحفّز، تهَاوى بُنْيَانه في شكلِ ضَبابٍ مُحْمَرّ اللون ثم غادَرَ وهو يَصِيح مُتَوَعِّدًا:

-لَن تتمكّني من حَبْسِي عنكِ طويلا مهما فعلت، ستنهار حصونك في النهاية أيتها الصغيرة، وسَتَنصَاعِين رغمًا عنكِ!

همسَت وكأنها تُجيبُه بِغل:

-أعِدُكَ أنَّ لِقَائَنَا حينَها سَيكُون حافِلاً بِالثَّأرِ أيُّها المَسْخ.. سَتُعَوِّضُ دماءَ جميعِ الأبرياءِ بِحياتِك، جميعِ من قمعتَ دون اسْتِثْنَاء..

وَكَزَتْهَا هوف بِفَزَعٍ وقالت:

-تقى.. أَتَرَين ما أرى؟

-الأطياف..

***

-هداية.. سَأذهب لِتفقُّد الأوضاعِ داخلَ القصر، لَن أتأخّر أخبِرِهِم حين يعُودُون.

عَبَرَت نبرمان المِرآة إلى الأخرى التي في غرفتها ونادَت بِسرعة:

-ناجود.. نارنج، أَتَعْلَمَانِ أين مراس؟

ظهرَت ناجود وقالت مُتَأَسِّفة:

-اِسْأَلِي هيلدا..

خَرَجَت مُسْرِعَةً نحوَ منزِل السيد رامان فَلَمَحَت أختَها جالِسَةً على عرشِ جدِّها، تَضَعُ على رأسِها تاجًا فِضِّيَّ اللون مَرْشُوقًا بِاللؤلؤ، اِنتفَضَت بِغضَبٍ وَصَاحَت:

-أَهَذَا ما تُرِيدِينَه؟ الحُكم؟ مِن أجلِ ذلك تَقْتُلِينَ كلَّ أولئِكَ الأبرياء، وَتَسْفِكِينَ الدِّماء؟

-كيفَ اِستطَعتِ العَودَةَ أيتها الصغيرة؟

تجاهَلَتْ كلامَهَا وغادَرَت مُسرِعَةً نحو منزِلِ رامان الذي يقَعُ على حافّةِ الحديقة العظيمة؛ طرقَتْ البابَ بِرفقٍ وَحِينَ لَمْ تَلْقَ إجابةً دخلتْ وهرولتْ نحو سريرِهِ فَوَجَدَتْهُ مُمَدَّدًا غائِبًا عن الوعي؛ كانَت تشعُرُ بِالانقِبَاض، يُنَبِّئُها إحساسُها أن مراس قد أُصِيبَ بِخَطْبٍ ما.. عادَت أدراجَها نحوَ القصرِ هائِمَةً كَالمَجْنُونةِ وصاحَت في هيلدا:

-أين مراس؟

نَدّت منها ضحكةٌ لئيمة وهي تُجيب بِشر:

-لا أعلمُ يا حُلوَتي.

غادَرَت الديوان إلى غرفتِها وَاقتحمَت المرآةَ مجدّدا فَوَجَدَت الجميع يجلِسُون في مَنزِل آبنوس وعلى وجوهِهِم وجُومٌ لا يُبَشِّر بِخير، نظر آبنوس إليها وقال مُتَأسِّفًا:

-لقد عادَ مراس إلى عالمِه!

شعرتْ بِصدمةٍ كبيرة، وكأنّ مكعّبًا من الثلج أُذِيبَ على مَفَاصِلِها، اِغْتَصَبَت بسمةً سَاذَجَةً وهي تقول بِتَهَكُّم:

-لكنّ هذا هو عالمُه.. لقد وُلِد هنا، وعاشَ هنا عِشرين عاما؛ فَمَا الذي تقولُه؟

-لِلأسف، مراس من عالمٍ آخر، لقد أعادَتْهُ هيلدا، ولا يُمكِنُه المَجِيءُ إلينا مجدّدا!

-بَعدَ الآن؟ لن أراهُ إذن؟ ولا مَرَّةً واحدةً أخرى؟

طغَت العَصبِيَّةُ على حديثِها وَانْهَمَرَت دموعُها وهي تُلْقِي بِنَفسِها على الكرسيّ وتردّد:

-أرجُوكَ أيها الكاتِب، أعِدْهُ إلى هنا.. لاَ بُدّ من وسيلةٍ تُعِيدُه.

هَزّ رأسه نافِيًا وقال بِأَسَف:

-نحنُ لا نكتُبُ أقدارَ الآخرين، الله فقط يفعل، قدَرُ اللهِ لا يُرَدُّ وإن اِجْتَمَع على ذلك العُصْبَةُ أُولُوا القُوّة!

أخذَت نبرمان بِيَدِ تقى وَاخْتَرَقَت معَها المرآةَ ثم توجَّهَت نحو الدّيوانِ وصاحَت:

-أَعِيدِيه!

اِبتَسَمَت هيلدا وقَالت بِمكر:

-لن أَسْتطيَع يا أختي.. لِلأسف.

حَدَّقَت نبرمان في تقى التي قالت مِن فَوْرِها:

-إنّها صادِقَةٌ هذه المرة!

هَوَتْ عَلى الأرضِ فاقِدَةً لِوَعيها فَوَقَفَت هيلدا مِنَ العرشِ وتَقدَّمتْ نحو تقى التي اسْتَلَّتْ سيفَها ووقفَت في وجهِها مُتَصَدِّية:

-إيّاكِ وَالاقتِرابَ أكثر.

-تُهَدِّدِينَني أيّتها البنفسجية الجميلة؟

تَراجَعَت نحو الخلفِ مُذْعِنَةً لأمرِها بينما تُضِيفُ قائِلَة:

-أَتعلَمِين؟ أغبطُكِ على ثباتِكِ ذاك، لِمَ تَبْدِينَ بِهذا التّماسُكِ بِالرّغم من كلّ شيء؟ لِمَ تضحَكِين بِصِدْقٍ مع أنَّكِ هَشَّةٌ من الدّاخل.. لِمَ تَبْدِينَ قويّةً مَعَ أنّكِ ضعيفة؟ أعلمُ أنَّكِ غَضَّة، لا يمكِنُكِ الإنكار!

تجاهلَتْ تقى كلامَها؛ كانتْ أقوَى من أن تُجْرَحَ كرامتُهَا بِتِلْك الكلمات، هَدَّأَت رَوْعَهَا حينَ لَمَحَت آبنوس يُهَرولِ نحوهُما وخلفَهُ البقيَّة، لكن كهمس ظَهَرَ بَغْتَةً وأَلْقَى نَظْرَةَ حِقْدٍ عليهم جميعًا ثم الْتَفَتَ إلى هيلدا وقال مُنْصَاعًا:

-مَوْلاتِي.. أَأَفْعَلُها؟

-لَكَ ذلك.

اِنْبَعَث لَظًى مِنَ النّيران نحوَهُم بِسُرْعَةٍ فَصَدَّتْهُ تقى عنهم بِطريقةٍ ما..

***

(تقى)

أغلقَ الجميعُ أعينَهم بِفزع فَأَردتُ التّصرُّفَ بِسُرْعَة قبل أن تَلتَهِمَنا تلك النيران، تصدَّيتُ بِالسّيفِ الذي كنتُ أحمِلُه بين يَدَيّ فَتَكَوَّنَتْ حولَنا هالَةٌ بنفسجيةٌ داخلَها رائحةٌ عِطْرِيَّةٌ عَبِقَة

استغرَبْتُ لِما حدث، بَدت وكأنها مُعجزةٌ ما.. كان يجب أن أتَّخذ موقِفًا حتى لا أخسَر هؤلاء البشر مجدّدا، كنتُ قد اِعْتَدْتُهُم وشعرتُ بينَهُم بِالأُلفة وَمَعَهُم بِالأمان؛ وَرَبَطَت المواقِف على أَوَاصِر الودِّ بَينَنا، وهل علاقتُنا بِالآخرينَ إلاّ مَواقف؟

صَاحت هداية وعلى وجهِها الأسمرِ اللّطيف علاماتُ الدّهشة:

-دِرْعٌ وَاقٍ يا تقى.. أنتِ رائِعة!

قَهْقَهَ كهمس وَسَلَّ سيفه مِن غِمدِهِ متقدّمًا نحوَنَا وهو يردّد بِمَقْت:

-لقد أزعجَني وجودُكُم أيّها المُراهِقون المُتَهَوّرُون، سَأُنهِي أمرَكُم هذه المَرّة؛ أنتُم تُنَازِعُونَني نجاحي وسَيطرتي!

رشَق السيفَ في الدِّرعِ الذي شكَّلْتُهُ حولَنا فَتكهرب، شعرتُ حينها بِألمٍ خفيفٍ في قَفَصِي الصدريّ ثم تَسرَّب نحو عمودِي الفقريّ وبدَوْتُ وكأنّ قلبِي يكادُ يَخْتَرِق عِظَامي نَحو الخارج، ثم أظلمَت الدّنيا في عَيْنَيّ فجأةً وكأنّما أُصِبْتُ بِالعمى ولكنّني سُرعَان ما اسْتَعَدتُ نظرةً بنفسجيةَ اللون لِكلِّ شيء؛ لم يَكُنْ كلُّ شيءٍ في الديوان جميلاً وهو بنفسجي، الألوانُ كَأذواقِ الأطعِمة، لولا الرّديءُ لَمَا شَعرنَا بِالطّيّب؛ وحين تتَحوّل جميعُهَا إلى طعمٍ واحد تُصبِح محضَ هُرَاءٍ نَخْدَعُ به أذواقَنا، شعرتُ أنني أَرتفِع عن الأرضِ وأرفَعُ مَعِي ذَلك الدِّرع بِمَن فيه؛ ثم أَحْسَستُ بِشيءٍ هائل يخترق ظهري، حَرَّكتُه فَصاح الجميعُ مُندهِشِينَ من خلفي:

-أجنحةٌ بنفسجية!

اللون البنفسجي حالِمٌ كَسَحَابَةٍ تطُوفُ في سماءٍ صافية وَتُقْحِمُ نفسَها في زُرْقتِها اللّامُتَنَاهِية، وَبَينَ سُطورِ صَفحَتِها

المُسَطَّحَة متى مَرَّت أعينُنا عليها، لونُ الطيران فِي سماءِ الأحلامِ المُستمِرّة، لونٌ يَتجاوزُ الطّبيعةَ إلى الخيالِ الذي يُهَوّن علينَا تَعَبَ الحياة، لونُ اللامَعقولات، والمَاوَرَائِيات، والفَانتَازيا السّاحرة! وغادرتُ الدِّيوان إلى حينِ تستفيقُ نبرمان.

***

(مراس)

نفضتُ يديَّ وقلتُ بِحسرة:

-يَا لِلرِّجالِ وَصَرْفِ الدَّهرِ والقدر

مَا لِشَيءٍ قَضَـاهُ اللهُ مِن غير

نظرَ إياد إليَّ بِشَفَقَةٍ وردّد مُوَاسِيًا:

-وَلاَ تَأْمَن الأَظْلاَمَ فَالفجرُ طالِعُ

وَلاَتَلْتَبِسْ بِالضّوء فالشمس تغرب

وَاصَلْنَا الطّريق إلى منزِلِ العجوزِ الذي أخبرَنِي إياد أنّه أَعلى الجبلِ ثم قال:

-تَبْدُو ذابِلاً يا صاح، هل أنتَ بِخير؟ هَل هذا الذُّبولُ بِسببِ الأميرة؟

-فَتَاةٌ عَدِمْتُ العَيْشَ إلاَّ بِقُرْبِهَا

فَهَلْ فِي ابتِغَاءِ العَيشِ وَيحَكَ مِن حرَج.

اِسترقتُ نظرةً إلى ملامِحه الشّقراء وأضفت:

-أَتَلُومُني على ما لاَ أستطيع عليه صَبرا؟ مشاعِرُنا جُبْلةٌ فينا والله فقط يُقَلِّبُها كيفما شاء، كما أنني.. تعبتُ يا إياد، أشعرُ أنني مريضٌ بها؛ ولا دواءَ لي منها غيرها!

زفَر وكأنّه يحمِلُ هُمُومِي مَعِي وقال:

-لا بأْس.. طهورٌ لِقَلبِك يا صاح، "قَد يَنْفَعُ الصّبرُ في المكروهِ أحيانا" ثم، ربّما كان ذلك حُلما عابِرًا..

بَدأتُ أستسلِم لِتِلك الفكرة، وأُعجِبْتُ بِشَخْصِيَّةِ إياد الأدبيّة لكنني كنتُ أشعرُ بِالألم يَنهَش روحي، همستُ حين قَطَفْتُ وردةً من شُجَيْرَةٍ قريبة:

-أَظُنُّهُ العَقْلُ أَبداهُ تَدَبُّرُهُ

أَوْ صورَةَ الروحِ أَبْدَتْهَا لِيَ الفِكَرُ

نَفَضتُ رأسِي وكأنّني أَفَقْتُ مِن غَفْوَةٍ وقلتُ فجأةً:

-لكِنّكَ أخبرتَنِي أنّ تلكَ العجوزَ كانَت تتَحَدَّثُ بِكَلامٍ مُشابِه ربما يُمكنني العودة؛ ليسَ من المُمكِن أن يكونَ ذلك حُلما وقد عِشْتُهُ يا إياد، لقد كنتُ أشعر؛ شعرتُ بالألم حين اختَرَق سهمُ نبرمان جسدِي، وَبِوَجِيبٍ غريبٍ حين نظرَتْ إِلَيَّ بِبَراءَةٍ والدموع تَتَلألأ في مُقلَتَيها، وبِالخوف حين رأيتُ أبي يَفقِد وَعيَه، وبِالحنينِ حين التَقَيْتُ يقين أول مرةٍ وسَمعْتُه يُنَادِيني: أخي، وبِالفَخر حين طلبَتْ منّي هداية قَوسًا وسِهَامًا لأنها كانت تُشبِه نبرمان في استِعْمَالِها لهُما، وبِالحزن الشّديد حينَ وَارَيتُ أمّي بِيَدَيّ تحتَ التراب، الكثيرُ من المَشاعِر الصّادقةِ ساوَرَتْني هناك؛ لا يُمكن أن يكون كل ذلك.. مُجرّد حلم!

-أعلَم يا مراس.. الأمرُ صعب، لكنّ الحقيقةَ أحيانا تَلتَبِسُ علينا، والأحلامُ تقارِبُ الواقعَ حتى لَتَبْدُو مطابِقَةً له حَذْوَ النّعل بِالنعل، لا أعرِف تَماما ما إذا كانَ حدِيثُكَ حقيقةً أم محضَ خيالٍ تمثّل لك، لكنني على يقين أنّك سَتعرف عَمّا قريب.. اِطْمَئن!

على قِمَّة الجبلِ كان هنالِك كوخٌ صغيرٌ مَطْلِيٌّ بِلَونٍ أزرقَ سماويّ، يُحيطُه سياجٌ بُنّيٌ فَاتِحُ اللون تَنْتَصِبُ بِجَانِبِهِ شجيراتٌ بِطُولِه تقريبًا، وعلَيها أزهار بنفسجيةٌ وزرقاءُ وبيضاء، فتَح إياد الباب الخارجيّ ونادى:

-سيدتي.. هناك زائرٌ يَوَدُّ مُقابلتَكِ..

قطَفتُ زهرةً وقلَّبتُها بين يديّ وقلتُ في حنين:

-هيدرانجيا!

اِنفرَج البابُ وتقدّمتْ تلك العجوزُ بخطوَاتٍ ثابتةٍ بينما كنتُ منشغِلاً بِتِلك الزّهرات، كَانَت تحمِل جَرَّةَ مياهٍ سقطَت منها وسَال مُحْتَوَاهَا، نظرتُ إلى الماءِ المَدلوقِ فَسَمعتُها تصِيح بَعد أن اِرْتَمَت على الأرض:

-مراس.. بُنَيّ!

***

فَتح رامان عَينَيه وَالتَفَتَ حولَه فزِعًا فَوَجَدَ الجميعَ يجلِسُونَ حولَه مُنْتَظِرينَ بعد أن غَادَرُوا القصر؛ نظَر إلى نبرمان بِحِيرة وعيناهُ تَدْمَعان بِشِدَّة وهو يُرَدِّد:

-أنا أرَى.. أخيرًا!

اِختطَفَ نظرةً عبر النافذةِ وهو يهتِف كَطفلٍ صغير:

-هكذا يَبدو اللون الأزرق، هكَذا تبدو السماء إذن، هكذا تبدو الأشجار.. إذن؛ هذا العالم ليس سَوَادًا مُسْتَمِرًا، ليس ظَلَامًا مُدْلَهِمًا.. إنّه نُور؛ أرى نورًا يَنْبَثِقُ من الثُّرَيَّا.

اِلتفَتَ نحو نبرمان التي كانَت واجِمَةً وأضاف:

-لا بُدَّ أنكِ نبرمان يا ابْنَتِي؛ مِراس يُخبِرُنِي عنكِ دوما.. أنت تُشْبِهِينَ الوردةَ البيضاء بِالفعل، تَبْدِينَ قمَرًا يطل من خُدرِه في حياء، تمامًا كما يقُولُ مراس..

اِنتفضَتْ على ذِكْر اسمِهِ وراوَدَتْهَا رغبةٌ في البكاء مِمّا جعل رامان يسألُ بِتوجُّس حينَ لاحَظَ ذلك على الجميع:

-مَاذا حدثَ يا أبنَائِي؟

أَحْنَوا رُؤوسَهم وَاكتَفَوا بِالصّمت، لم يجرُؤ أحدٌ على الحديث لكن نبرمان وقَفَت بِقُوَّةٍ وقالت بِصوتٍ يكادُ يَنْهَار:

-سَأَذهَبُ إلى القصرِ الآن..

-سَآتي معكِ.

عَقّبَت تقى بِعزمٍ فَهَزّت هداية رأسَها وهي تقول:

-وأنا.

اِهتزّت الأرض تحتَ أقدامِهِم وبَدَا المنزِلُ وكأنه يتهدَّم، لكنَّ زُرقَةً شفّافةً مرَّت بِه كما لو كان يتجمّد تدريجيًّا؛ أُستُبْدِلَ المنزلُ بِآخرَ زُجَاجِي، وَاخْتَفَت الجُدْرَانُ وكأنها لم تَكُن، ثم تَحَوَّلَ كلُّ ما يُحِيطُهُم وأصبح زجاجًا.

-العيشُ في مملكة الزجاج مستحيل.. لا يُمكن أن يكون العالم شفافًا لِتلك الدّرجة، نَحتاجُ بعضَ التَّظلِيل؛ نحتاجُ إلى الضّباب إلى القليلِ من الظُّلمة.. نحتاجُ سِتْرًا لِمَنَازِلنَا عَنِ البشر؛ البُيُوتُ عُلَبٌ تَحْوِي الكثيرَ مِن الأسْرَار، لِذلك.. يَنْبَغي سِتْرُها وَمُوَارَاتُهَا عن الأعيُن، وكذلِكَ أرواحُنَا هي بُيُوتٌ لِمشاعِرِنا، لا يَنْبَغِي لَها أن تكون شَفّافةً فَاضِحَةً لِمَا في قلوبِنا؛ نحتاجُ أن نغلِقَ على أنفسِنا لِبَعض الوقت أحيانا، أن نُمَوِّهَ على مشاعِرِنا تارَةً، ونُظْهِرَها تارةً أخرى

نحتاجُ لأن نَعرِفَ الوقتَ المُناسِبَ لِكلِّ شيء؛ لأن نكون شفافِينَ للقَدرِ المَسموحِ لَا غير، لِذَلك.. لا يُمكِن لِمَلكةِ الزجاج أن تَسْتَمِر لأنها لَيست كذلك!

غادرَت الفتياتُ الثلاث المنزلَ رفقةَ أمان بعدَ أن أصرَرْنَ على الذّهابِ بِمُفْرَدِهِن؛ خَطَتْ نبرمان بِوَهنٍ وهي تَجُرُّ قَدَمَيْها بِفِكرٍ يبتعدُ عنها إلى حيثُ يقبَعُ مِراس الآن، حاولتْ التركيز بِشِدّةٍ وهي تقول:

-إنها الزيارة الأخيرةُ للقصر، سَأغادرُ المملكة!

لمَحَتْ ميليا تخطُو نحوَها فَأَشَاحَت عنها بِبُرود؛ هَرولَتْ إليها ذَلِيلَةً مُنْكَسِرَةً وصاحَت بِتَرَجٍّ:

-نبرمان.. أرجوكِ، هيلدا أصبحَت فتاةً أخرى تماما؛ لقد طَرَدَتْنِي من القصر، أنتِ أملي الوحيدُ المُتَبَقّي.

توقَّفْتْ عن التّقدُّم وهي تقولُ بِهدوءٍ وتحاول أن تَبدُو مُتَمَاسِكَةً بِالرّغم مِن كلِّ شيء:

-لَن يكونَ أحدٌ من البشرِ أَمَلَكِ يوما، الله هو الأملُ الوحيد وبِالله خلاصُكِ وعِتْقُكِ.. وَخلاصِي وَعِتقِي.. أنا لم أكن نَافِعَةً لكِ يوما؛ الله وحدَه تدبّر أمركِ، وهو لن يتخلّى عنكِ.

رفعَت طرفها إليها وقالت بِاستِرضَاء:

-أَلستِ غاضبةً منّي؟

أشاحَت بِوجهِها وتنهّدَتْ ثم أجابَت بِبُرُودٍ شديد:

-مَن تمنَحِينَهُ ثقةً عمياءَ قَد يَخونُها، لقد تعلَّمتُ منكِ ألاّ أثِقَ في شخصٍ لا أعرِفُ عنهُ شيئًا غير علاقَتِي المحدودَةِ به.. شُكرًا على درسِكِ القاسِي يا ميليا؛ لقد علِمتُ أن "الصّدماتَ هي التي

تَصْنَعُنَا"، لكنّني متأكدةٌ أن بِهَذَا العالمِ أُنَاسًا يَسْتَحِقُّونَ الثِّقة والحُب.. وَالوِدَادَ، وَيَسْتَأْهِلُون حسنَ المُعاملَة، بعيدًا عن الخيانَةِ وَالاستِغْفَال؛ نَسْتَحِقُّ أن نمنَحَ الثِّقة لِمَن نشعُر معهُم بِالأمان لكن.. عليها أن تكونَ محدودَة؛ على الأقلِّ حتى نَتَبَيَّنَ نَوَايَاهُم.

-أَتَمْنَحِينَنِي فرصةً إذن؟

-الثّقة لا تُبْنَى إن تهدَّمَت، آسفة.. لا يُمكِنُني بناءُ علاقتِي بِكِ مجدّدًا على ثقةٍ زائفة، لا أريدُ أن أمنَحَ أحَدًا مِمنْ حولي مشاعِرَ زائِفَة، مِنَ الأفضلِ أن أنسَى.. أنسَى لا غير!

تقدَّمَت ميليا لِتَحتَضِنَ نبرمان فَصَاحَتْ تقى بعد أن صَدَّتهَا عَنْهَا بِجَنَاحِها:

-إنها تُرِيدُ اغتيَالَكِ يا نبرمان.. العَلَمُ على رأسِها.

بدَت وكأنها توقّعَت ذلك منها وهي تردِّد:

-لَن تَستطِيع، كانِ الله لِيُنجيني منها.. فَالله يُعتِقُنا من الشُّرورِ حين نُؤمِنُ بِالخير.

حمَلَت نبرمانُ أمانَ بين يدَيها فَفَعَلَت تقى مثلَها مع هداية وَارتفعَتا في الجوّ بِأَجْنِحَتِهِما، لم تشعُرْ أي واحدةٍ منهُنّ أن الطّيَرَانَ شيءٌ مُمَيَّزٌ يَفْعَلْنَهُ حينَها، الهُمومُ تجعلُنا نغفَل عن الجمالِ الذي يُحيطُنا، لِذلك نحنُ مُطَالَبُونَ بِفَضِّ ضُنُوكِنا جَانِبًا؛ وَتَصفِيَةِ أذهانِنَا لِنَتَمكَّن مِن الابتسام، مِن الحُب؛ من الشّعورِ بِالجمال.. مِن الحياة، وَإلا فَنحن مَوتى يَتَنَفَّسُون، أَليس الموتُ فقدانَ الإحساس أيضًا؟ أَوَلَيسَ توقُّفُ بَصِيرَةِ الجَمالِ المُحيطِ بِالعالمِ مَوتًا أيضا؟

-٨-

هل يمكنني العودة؟

(بعد عامٍ ونصف)

شَحُب وجه نبرمان وضَمرَت ملامِحُهَا الجميلةُ على عتباتِ الزّمن، خُصُوصًا بعد وَفَاةِ جَدّهَا؛ لكن قسماتِها المُتْعَبَةَ لا زالَتْ تُطِلُّ على شرفةِ البهاء الفَتِيّ وهي الشابةُ التي في ريعانِها، الكثيرُ من الألمِ يُلحِق بِأَروَاحِنا موتًا بطيئا، لكنّ بَسَمَات مَنْ حولَنَا بَردٍ وسلامٌ على لظى قلوبِنا، تجعلُنا نعود إلى الحياة كلما فقدنَاها، وتخفّفُ العناءَ كلما أَضرَمَتْهُ فِينا الأيام.

جمعَت جنودَ مراس في غرفتِها وأمَرَتْهُم بِالعبور مِن خلالِ المرآةِ فَالتَأَمَ شملُهُم مجدّدا في غرفةٍ مِنَ المنزلِ الذي وَجَدَ فيه الأخوَانِ نفسَيْهِما أوّلَ مجيئِهما، دخلَت هِي الأخرى ثم مَدَّت يدَهَا عبرَ المرآةِ التي نقلَتها إلى منزلِ الأخوَين وأمسكَتْ بِحوَافّ المرآةِ التّي في غُرْفَتِها وَجَذَبَتْهَا بِقُوّةٍ فَدَخَلَت عبرَ الأخرى، سَوَّتْهُمَا بِجَانِب بَعْضِهِما ثم قالتْ بِحذرٍ حين صوَّبَ الجميعُ نَظَرَاتِهم إليها:

-ناجود.. نارنج، يُمْكِنُكُما الظّهور الآن!

ظَهَرَت إِحداهُن على المرآةِ التي كانَت في بيتِ أمان والأخرى على مرآةِ نبرمان ونظرَتَا إلى الحَشَد المُبَعْثَر في تلكَ الغرفةِ ثم ابتَسَمَتَا معًا، قالت تقى بِاسْتِغراب:

-إنهما تُشبِهانِكِ تماما..

عقّبتْ هداية بِحماس:

-لكنّ ثيابَهُمَا مختلفة!

همسَت نبرمان مُتَأَهّبة:

-هل أنتُما مستعِدَّتَان؟

أَومَأَتا معًا فَجَرَّتْ إحدى المرآتَين وقابَلَتْهَا لِلأخرى على بُعْدٍ صغير، وَمَضَ نورٌ أبيض تَدَاخَل مع النارنجيّ والأزرقِ الذي سَبَّبَتْهُ فراشاتُ نبرمان التي بِالقُربِ منها، اِخْتَرَقَت يَدَانِ صفحَتَي المرآتَيْنِ ثم تمَسَّكَتا بِبعضِهِمَا وظهَر جسَدَانِ ضَئيلاَن لِفَتاتَين تُشبِهَان نبرمان، أَحْنَت رأسها حيث وَقفَتَا معًا وقالت:

-لَم أتوقّع أن يكونَ حجمُكُمَا بِهذا الصِّغَر!

اِبتسَمَتْ ناجود وأجابَت:

-مَخَاوِفُنَا أصغَرُ مِمَّا نعتقِد.. نحنُ فقط نُضَخِّمُ الأمورَ بِتَصَوُّرَاتِنَا.. أَتذْكُرِين أَنَّنَا مخاوِفُك؟

-لكن.. لماذا لم أتمكَّن من تَحريرِكُما حين كُنّا في القصر؟

-اِستعمالُ مرآة الانعكاسِ الثالثِ شيءٌ ضروري، فهي تُحَوِّل الصُورَ المُسَطَّحَة إلى أجسادٍ ثُلاثيّة الأبعاد!

تَشَظَّت المِرآتان فجأةً وَانْهَارَتَا على الأرض كَقِطَعٍ ثلجيّة أخذَت تَذُوبُ وكأنّها لم تُوجَد أسَاسًا، جلَسَت نبرمان على الأرضِ وَاتَّكَأَتْ على الجِدَارِ تارِكَةً المجال لِلحَاضِرِين الذين تَحَلَّقُوا حول ناجود ونارنج وأحَاطُوهُما بِالأسئلة، زفرَت فَأَلْقَت تقى نفسَها بِقُربِها وسألتْ حين لاحظَت انشِغَالَ بَالِها:

-أَلَم يَخِفَّ ذاك الشُّعورُ بعد؟

رَنَت إليها وأَسْنَدَت رأسَها على كتفِهَا ثم تنهَّدَت وأجابَت:

-أبدًا.. لا يُمْكِنُنِي أن أَنْسَى، لكنّني أخاف!

-مِمَّ؟

-أخَاف أن أكونَ مُخطِئَةً مُذْنِبة، أخافُ أن تكونَ نَزوَةً عابِرة أخافُ أن أقَع في الذُّنوب، أن يكونَ كلُّ هذا العذابِ هَدْرًا لِلمَشَاعِر لا غير، أخافُ على مراس من الوقوعِ في شَرَكِ الشّهوات؛ لكنّه مع ذلك.. قد غادَرَ إلى الأبد!

اِحْتَضَنَت تقى كتِفَهَا وقالت:

-سَيُعِيدُهُ الله لأجلك في الوقتِ المُناسِب، ثِقِي بِالله حتى يكونَ عند حُسْنِ ظَنّكِ؛ أَوَلَيسَ هو القائل: "أنا عِند ظنّ عبدي بي فَليظنّ بي عبدي ما شاء" ؟ في النهاية.. إن تَصْدُقِي اللهَ يَصْدُقْكِ.

اِقتربَت أمان رفقة هداية وقالت:

-أُطلبي من الله الصّوابَ يا نبرمان، دَعِي عنكِ زَيْفَ المشاعِر دَعِي عنكِ قُيودَ النفس، وَاطلِبي من الله ألاّ يُعَلِّقَ قلبَكِ إلاّ بما هو لكِ.

أضافَت هداية على كلامها وهي تُهَدْهِد ساناز لِتنام:

-"الأمورُ التّعبُّدِيَّةُ كلها إيحاءاتٌ بِالخير في القلوب، وهمَسَاتٌ بِالطُّهرِ في الضمائر"

تقدّمَت هوف حين سمعتْ طَرْقًا على البابِ فَأَعْطَتْهَا هداية ساناز وذهبَت لِتَفتحه، نظرَت إلى وجهِها البَرِيءِ وملامحِها السّاكنة وهي نائِمَةٌ ثم جلسَت على الأرضِ فَسَقَطَ عنها غطاءُهَا؛ لمحَت أثَرَ حرقٍ في مِعْصَمِها فَصَاحَت في غيرِ تَصْدِيق:

-أمان.. هذهِ ابْنَتي!

فتَحَت الصغيرةُ عينَيها فَرَأَت هوف زُرقَتَهُمَا الصّافية، وَازَتْ وجهَ ساناز مع وجهِها وهي تردد:

-هناك شبهٌ بيني وبينَها، عينَاها.. شكلُها، شُقْرَتُها، وشعرُها الكستنائيّ.. أنا متأكِّدَةٌ مِن أنّها ابنتِي؛ لقد اِحتَرَقَت يدُها ذلك اليوم!

اِبتَسَمت أمان بِتأثُّرٍ وهمسَت:

-يَا بارِئَ الأكوان..

أُصِيبَ الجميعُ بِعدوى الاِبتسامَةِ التي تحوَّلَت إلى ضحكاتِ سرورٍ تَقَاذَفُوهَا فِيما بينَهُم، اِجْتَمَعُوا حولَ الصّغيرةِ التي تَحمِلُها والدتُها وأَخَذُوا يَتَهَاتَفونَ بِحُبورٍ بينما انْشَغَلَت نبرمان عنهُم بِحديثِها مع هداية التي قالِت:

-لَعلَّهُ خير..

بَهتتْ نظراتُها وكأنَّها شعرَت بِالرّاحةِ فَأَضَافت تقى:

-إِنَّ رَبَّ الخيرِ لا يأتِي إلاَّ بِخَير..

اِبتسمَت نبرمان وهزَّت رأسَها وهي تردّد:

-اللهم جَبرًا لِكُلِّ كَسر، وشفاءً مِن كلِّ سَقم.

***

(هداية)

أُريد العودة، لكنني أحببتُ البقاء أيضا؛ هل يُمكنني أن أعود؟ اِشتقتُ لأمي وأبي؛ أشعُر بِالوحشَة الشديدة بعيدًا عن إخوتي يأخُذُنا الحنينُ إلى الأشخاصِ الذين نُحِبُّهُم حينَ نَبتَعِدُ عنهم وَيَتفاقَم حين نعلمُ أن العودةَ إليهِم شِبهُ مُستحيلة.

شارَفَت المُدّة التي مَكَثْنَاهَا هنا على العامَيْنِ ولا جديدَ يُذكَر الغريبُ أنّ حجمي لم يتغيّر؛ لَمْ أشعُر أنني كَبرْتُ ولا أيّ أحدٍ مِمَّن هنا؛ أو على الأقلِّ مِمن نحنُ معَهُم قد تغيَّر أو ظهرَت عليهِ علامَةٌ

تُوحِي أنَّ عُمرَهُ قَد ازدَادَ عامَينِ كَرِيتِيْنِ؛ هيلدا فقط كانَت تَهتُ كلَّ مَرَّة، ملامِحُها تَذبلُ وتظهرُ على وجهِهَا تَجاعِيد تُوحِي بِالكِبَر الشّديد فِي عُمر مُتَقَدِّم؛ الزمنُ هنا مُختَلِف؛ النهار أطولُ مِما عهدتُ من قبل، والليل راحَةٌ تامّة.. سكونٌ مُطبِق؛ لا حركَة تُرى ولا همسَ يُسمع، وكَأنّ هناك قانونًا يُطبَّق على الجميع.. سَأَلتُ تقى عن أعمارِنَا فَاسْتَوضَحَت أكثر؛ قُلْتُ حينَها بِاسْتِغْرَاب:

-لا أرَى أحَدًا غير هيلدا قد تغيّر شكلُه لِلحَدِّ الذي يُوحِي أنَّه قد ازْدَادَ في العمر عامَيْنِ كامِلَيْن.

-الأعمارُ هنَا لا تحدِّد الأشكال، أعمالُنَا هي التي تفعَل، نحنُ نكبر فقط بِالشّكل الذي يَجعلُنا نبدو شبَابًا أو أطفالاً أو عَجَزَة أمَّا عن نِسَبِ جمالِنا وعُنفوانِنا فَنَحن من نحدِّدُها.

-وضِّحِي؟

-نحن نَتَقَدَّمُ في العمرِ شَكلاً كلما قُمْنَا بِعملٍ سَيء، تَهتُ ملامحُنا وتصبح قَبيحة تُثِيرُ الاشمئزاز، حتى ألوان بشراتنا تتغير أحيانا؛ وَيَتَفَاقَمُ الأمرُ كلما اسْتَمْرَرْنا في ذلك، وحين نَعود.. وَنَتُوب وَنَتَعافَى مِن أسقامِ قلوبِنا؛ يعودُ الجمالُ الذي فَقَدْنَاهُ بِذنبٍ ما.. ونعودُ إلى سابِق عهدِنَا بِأَشْكَالِنَا، وأحيانًا أكثرَ عُنفوانًا وإِزْهَارًا لِذلك كان شكلُ هيلدا يتغيّر بعدَ كلِّ لِقاءٍ لنا بها؛ لكنها لم تكنْ تهتَم.

اِقشعَرَّ بَدَنِي حين سمعتُ كلامَها وحمدْتُ الله على السِّتْرِ الذي نَنْعمُ به في عَالَمِنا، هناكَ نقترِفُ الذُّنوبَ غفلَةً مِنا دونَ أن نُكْشَفَ أو نُفْضَح، هناك.. نحنُ عُلَبٌ مغلقة، حتى مشاعِرُنَا لا تظهرُ إلا إن أفصَحْنَا عنها.

قال آبنوس بعدَ صمتٍ لطيف:

-سَنذهبُ اليوم!

-حملةٌ اسْتِطْلاَعِيَّةٌ مجدّدا؟

أجابَ عن سؤالِ أمان بِجِدّية:

-هذه المرّة يُمكن أن يحدثَ شيءٌ ما.. أشعرُ بِذلك.

أحسَسْتُ بِالخوفِ مِما يوحِي إليهِ كلامُهُ وأنا أسَتِمُع إلى ما سَيُضِيفُه:

-عليكُنّ أن تَبْقَيْنَ هنا، سَنُحَاوِل أن نَعُودَ قبلَ حُلولِ الظلام.

قالَت تقى بِانفِعَال:

-لكنّ الوقتَ مُبَكِّر.

همَس السّيد رامان شارِدًا:

-حمايةُ المنطقة واجِبة، لا تنسَي أن مملكةَ الزجاج أصبحَت أخطَر بعد أن تَزوَّجَت هِيلدا مِن كهمس!

***

لطمَت هيلدا الطاولَة وصاحَت في غَضب:

-يجب أن نَستولِي على مملكةِ الضباب أيضا، أشعُر أنّني كنتُ مغفَّلَةً حين غَفلتُ عن فكرةِ تجمِيدِ قلبِ هايدرا حتى أقتُلَه مُؤَقَّتا.

قال كهمس مُهَدِّئًا:

-تعلَمِين أن جنودَ مراس تَصدَّوا لِذلك بعدَ أن نقلَتْهُم نبرمان إلى مملكةِ الضباب، لَقد كانوا مُستعِدّينَ لِحمايةِ تلك المنطقة بِكلّ ما أُوتُوا مِن قوّة؛ لا أعرِف كيف تَمَكَّنَت من التّنَقُّلِ بينَ المملكتين دون عبورِ الغابة.

شردَت وهي تردّد بِشرَرٍ يقدحُ مِن عينَيها الرماديتَين ووجهِها المكفهِرّ القبيح:

-هي الحربُ إذن؟

-لكن.. لماذا أردتِ فصل المملكتَين منذُ البدءِ إن كنتِ تَسْعَينَ لِلحصُول عليهِما معًا؟

-كان الأمرُ مختلِفًا، أردتُ قتلَ القلب حينَها، وأخبرَتْنِي سِلاب أن السّبيلَ الوحيدَ هو فصلُ المملكتَين؛ لكنّني الآن قمتُ بِتَجمِيدِه إلى حين أتمكَّنُ من قتلِ نبرمان والأخوَين!

اِسْتَطَارَ الخبثُ من مُقلتَي كهمس وهو يقول:

-هِي الحرب لأجل السّيطَرَةِ على مملكةِ الضباب.

***

اِنشَقَّت الأرضُ وزُلزِلَت، اِبْتَلَعَت الغابةَ وكأنها لم تكن ثم التَأَمَت الفجوةُ الهائلَةُ التي تَركَتها؛ نَظَر الرّجالُ حولَهُم وعلى رأسِهِم يقين وآبنوس والسَّيّد رامان يَقُودُونَهم فَإذا بِالأرضِ تبسُطُ حَدًّا بينَ المملكتَين؛ حدٌّ مِن نار، تراجَعَ الجنودُ قليلا بِأحصنَتِهِم حينَ رَأَوا فَيلَقًا مِنَ الفُرسَانِ يَتَقَدَّمُونَ نحوَهُم وَيُوقِفُونَ جيادهم عن السَّيرَ حينَ يَقْتَرِبُون مِن النّيران المُضْطَرِمَةِ فِي العَدَمِ فَتَصْهلُ بِقوَّةٍ وَتَهتَزُّ أجسادُها فَيُسْمَعُ ضَبْحُهَا المُتَسَارِع.

***

اِرْتَدَت تقى عباءَةً سوداءَ ذات طرطورٍ أَهَالَتْهُ على رأسِها وَلَفَّت وجهَها بِلِثَامٍ أسود ثم فتحَت الباب فَانتفضَت الفتياتُ الثلاثةُ وسَأَلْنَ بِاستغراب:

-إلى أين يا تقى؟

-أَشْتَمُّ رائحةَ معركَة.. أنا ذاهِبَة.

وَقَفَت نبرمان بِعزمٍ وقالت:

-سَآتِي أيضا..

قَاطَعَتْها بِفزع:

-أنتِ لا تَزَالِين مُتْعَبة!

-عَلَيَّ أن أَتَجَاوَزَ مشاعِري أحيانًا، وَأَن أَدُوسَ على مخاوِفِي وآلامِي، إلى متى سَأظَلُّ ضَعِيفَةً يا تقى؟ حين يَتَعَلَّقُ الأمرُ بِالمواقِفِ التي علَينا أن نبدُو فيها أقويَاء؛ علينا الضَّربُ بِضعفنَا عرضَ الحائِط، ولو لِوَقْتٍ وَجيز.

اِرْتَدَت مِثْلَمَا فعلتْ تقى بِحيثُ غَطَّت بَياضَ ثيابِها أجمع اِلتفَتَت نَحو هداية التي فَعلَت مِثلَهُمَا وكذلك أمان وقالت بِاضطراب:

-هداية.. سَيُشكِّلُ ذلك خَطَرًا عليكِ، لستِ مُجْبَرَةً على المَجِيء.

-أظنُّها حَربًا، وأخي هناك؛ يجِبُ أن أُقَاتِلَ حتى لا تَمُوتَ نفسٌ بشريَّةٌ ظُلْمًا مَرَّةً أخرى، حتى لا تُقْمَعَ البراءةُ مجدّدا؛ ولا تَسْبَحَ في دمائِها الطاهرة.. علينَا أن نُعيد الاتِّحاد!

ربَّتَت تقى على كتَفِها بِفَخرٍ فَقَالَت نبرمان مجدّدا:

-أنتِ رائعة..

-إنْ كان لا بُدَّ مِن الموت، فَأَنَا أُفَضِّلُ أن أُقْتَل في مكانِ شرف فِي موضِع شرف؛ وَدِفاعًا عن الشرف، وعن البَراءةِ التي تَنْقَرِضُ تحت خِضَمٍّ أحمر.

-وأنتِ يا أمان.. هل سَتَأْتِين؟

اِبتَسَمَت وأجابَت بِرضى:

-نعم.. مع أنَّني أُفَضِّل مِيتَةَ الجاحِظ، أَظُنُّها لَطيفة!

ضحكَت تقى ونبرمان في حينِ سألتْ هداية:

-كيف كانَت؟

أجابَت تقى:

-كان الجاحِظ شيخًا كبيرا يقرأ في مَكتَبَتِه حين سقطَت عليهِ المئاتُ من الكُتبِ التي كانَت مَصْفُوفَةً على الرُّفوفِ فَأَرْدَتْهُ ميتًا.

-أظنُّه مات على ما يُحبّ.. وقد يُبعَثُ كذلك، فَالمرءُ يُبعَث على ما مَات عليه.

اِمتَطَت جميعُهُنّ خُيُولاً وغادَرْنَ نحو الحَدِّ الذي يفصِل بين المملكتَينِ حَامِلاَتٍ معهنّ بعضَ السُّيوفِ والسهام.. وبعض الأمل وبعض الحياة..

***

(مراس)

لَم أصادِف شيئا مُقارِبًا لِمَا في عالَمِي منذ مَجِيئِي إلى هنا غيرَ الهيدرانجيا التي زَرَعَتْها أمي في حَدِيقَتِها، أخبرَتْنِي أنَّ هيلدا دبَّرَت مَكِيدَةً وَأَوْهَمَتْنَا أنها ماتَت، وَوضعَت في كفَنِها جسدًا لِجنديٍّ قتلَتْهُ بينما أعادَتْها إلى هنا، لم أتمكَّنْ مِن تَقَبُّلِ الأمرِ بِسهولة، إذ أنني أذكُر أنّني وَارَيْتُها تحتَ التراب بِيَديّ، بكيتُ على قبرِها حتى ابْيَضَّت عَينايَ حُزنًا، سألْتُها ما إذا كانت هناك وسيلةٌ لِلعودةِ فَتَأَسَّفَت وقالت:

-لا أعرف بَعد.. لقد خرجتُ من البئر حين عُدت؛ لكنني لم أجِد طريقًا تُعيدُني من خلالِه.

شعرتُ بِالأُنسِ لأنّني على الأقلِ لا زِلْتُ أحتفِظُ بِمِيزَةِ فهمِ لغَةِ الحيوانات وَمَنْطِقِ الطَّير؛ كنتُ أخطُو مع إياد مُتَّجِهَيْنِ نحو البئرِ الذي اعْتَدْنَا على زِيَارَتِه كلَّ صباح؛ حين هَسْهَسَتْ الرّياحُ فَمرَّ بِأسمَاعِنا حفيفُ الأشجارِ المُنعِشُ وَزَقْزَقَةُ بعضِ العصافير تَنَشَّق الهواءَ وقال:

-أَتعلمُ يا مراس.. أشعرُ أن كلَّ صوتٍ في هذا العالمِ له معنى حتى الأشجار.. لا بُدَّ وَأنَّ لَفَحَاتِ الهواءِ تحمِلُ همسًا ما؛ بِشْرًا يجعلُها تَتراقَصُ تَنَاغُمًا مع السعادةِ التي تُصِيبُنَا بِعَدوَاهَا في أرواحِنا المُتْعَبَة، أشعرُ أنها تَقُولُ شَيئًا لا نفهمُه نحن البشر.

-إنها تُسَبِّح..

-هل تَفْهَمُ ما تقولُه؟

نَظرَ إليَّ بِاستِغرابً فَحاوَلْتُ إبعَادَ شَكِّهِ عنّي قائِلاً:

-وَمَنْ ذا الذي يُمكِنُه أن يَفعل؟

صَمَتُّ قليلا ثم قلتُ مُوضِّحًا:

-"ولكن لا تَفْقهُون تسبيحَهم"

جَلَسْنَا إلى حافَّةِ البئرِ فَانْتَفَضَت شِرْذمَةٌ من اليرقانات المُضيئةِ من الأرضِ وَطارت في الجوّ مُحِيطَةً بِنا تَزامُنًا مَع انْبِعَاثِ هَمْسٍ رَفيقٍ وكأنه صوتُ ملاكٍ يردِّدُ بِطمَأْنِينَةٍ وَهدوء: "اِقرَأ ورتِّل وَارْتَقِ فَإن منزلتَك عِندَ آخرِ آيةٍ تقرؤها.." شعرتُ بِاطْمِئنانٍ غريبٍ وأنا أَتلو وكأنّني أستجيبُ لأمر ذلك الهَمس في سكونٍ عَمَّ على قلبي وَرُوحِي، وظهَر على جسدِي المُرْهَق:

-"قُلْ يا عبادِي الذين أَسْرَفُوا على أنفسِهِم لا تقنَطُوا مِن رحمةِ الله.."

أَضاف صوتٌ من داخِل البئر لم أسمَع أعذَب مِنه في حياتي حتى خِلْتُ أنَّه داوود وَقد عاد إلى الحياة؛ لم أكُن مُتأكِّدا من ذلك.. لكن ما أنا متأكدٌ منه هو أن صاحب الصوتِ قد أُوتِيَ مِزمارًا مِن مَزامِيرِ آل داوود، قرَأ وكأنه يعقِّبُ على ما قَرأتُ:

-"إنّ الله يغفرُ الذنوب جميعا إنّه هو الغفور الرحيم"

قرفَصْتُ أمامَه وصِحْتُ بِلَوعة:

-يقين.. إنّه صوتُه، أعرِفُهُ جيّدًا.

اِلتَفَتُّ نحوَ إياد وهتَفْتُ مجدّدا:

-أَيمكنكَ مُناداةُ أمي؟ سَنعودُ أخيرا.. أسمَعُ الصَّوتَ بِوضُوحٍ، وهذا يَعني أنّ هناك مَمَرًّا يُفضِي إلى العالمِ الذي كنتُ أعيشُ فيه!

نظرَ إليَّ بِبَلاهَةٍ وقال:

-لاَ زِلتُ أستغرِبُ وجودَ عالمٍ آخرَ غيرِ هذا الذي نَعِيشُ فيه؛ وكيفَ يُمكن أن يكونَ سُكَّانُه مثلَنا؟

-مَن يدرِي.. ربما هناك عَوَالِمُ أخرى أيضا، "وَيَخلقُ مَا لاَ تَعْلَمون" لاَ تَنْسَ ذلك؛ هناك مَخْلُوقاتٌ أخرى لا نَعرِف عنها شيئًا وربما لن نَفْعَل أيضا!

***

عَلى ضِفافِ الخُذْلاَن كثيرٌ من قواربِ الألم تَنْقلُنَا إلى جُزُرٍ مُوحِشَةٍ بِالوحدة والتَّردُّد، تُرهِقُنا الأيام؛ وتصدِمُنا بعضُ المواقِف.. يَمُرُّ بِجِسر حياتِنا بَشَرٌ يُغرِقُونَنَا في بحرٍ مُفعَمٍ بِالخِيانة فَيُفقِدُونَنا الثِّقَة في الآخرين؛ مُجَرَّدُ موقفٍ صغيرٍ قد يقلِبُ المَعَايير، مُجَرَّد أسلوبِ معاملةٍ قد يُغَيِّر المَفَاهِيم، وعلَينا أن نَخْتَارَ إنْ كنَّا لِنَكُونَ ومضةَ خَيْرٍ أَيْنَما حَلَلْنَا؛ وَنُضيفَ إلى القواميسِ

بَوَادِرَ حُبٍّ، وحروفَ حَيَاة؛ أَو نكونَ قَهْرًا لِكُلِّ نَفس، ونَافِخَ كيرٍ على كلِّ لَظى يَلتَهِبُ في الأرواحِ، ويَضطَرِم في الأفئِدَة؛ إنْ كنَّا لِنَرضَى بِالذُّلِّ والظُّلمِ الذي يَخْنقُ أعناقَنا، أو لِنَطْمِسَ آثارَهُ بِأَيَادِينَا.. على كلِّ حَال.. نحن سَنعيشُ مَرَّةً لن تتكرَّر، وعلَينا أن نختَار بِعِنَايَةٍ مَن سَنَكونُ.. وماذا سَنَفعل.. ومَتى سَنَبدأ.

لا زالت تلك الحرقةُ في قلبِ نبرمان، كانَت تقودُ فَرَسَها مُسْرِعَةً نحوَ الحدودِ رفقة تقى وهداية وأمان، لَوْعةُ فؤادِها لا زالت توحي بِشيءٍ مِنَ الخواء، شيءٌ ما يَنقُصها؛ هي تبدو ذابلةً بِالرّغم من أنها لا تزالُ محتفِظَةً بِجَمالِها الذي أذبَلَهُ طولُ الاشتِياقِ والفقدان كُنَّ مُتَلَحِّفَاتٍ بِالسَّوادِ مُلَثَّمَاتٍ يُسرِعنَ نحو مكانِ الغابةِ حيثُ ذهب الرجالُ مع جنودِ مراس الذين انتَقَلوا مع عائِلاَتِهِم لِلعَيشِ في مملكةِ الضباب، دَوَّت مِن بعيدٍ صيحةٌ قوية، أَرْدَفَتها قعقعةُ سُيوفٍ مُتلاحِمَةٍ مِمّا أفزَع نبرمان التي استدارَت نَحو الأُخرياتِ وصاحَت مُتَخَلِّلَةً بِصوتِها وقعَ قوائِمِ الخَيل:

-إنّها الحرب..

لَمَعَت عَيْنَا تقى البُنِّيَّتَانِ في مساحةِ وجهِها الحَنطيّ المُغَطَّاةِ بِالسَّوَادِ الدَّامِسِ وهي تَقُولُ بِعَزم:

-لَن أَسْمَحَ لِقطرةِ دمٍ أن تُسَالَ ظلمًا بعد اليوم، ولا لِروحٍ أن تُزْهَقَ قَمْعًا؛ لَن تكون هذهِ الحربُ إلا خِتَامًا لِكلِّ مآسِي الإنسانيَّة الدَّامِيَة.

صَمَتَتْ قليلا وكأنَّها تقتنِصُ فكرةً ثم أضافَت:

-أَعِدُكِ يا سديم.

اِنطلقَ صوتٌ من بَين الجنودِ مُنَبِّهًا:

-من هؤلاء المُلَثَّمُون؟

رفعَت هيلدا طَرفها نحو الزُّمرَةِ السّوداءِ القادِمَةِ نحوَهم وَابتسَمَت بِمَكرٍ وهي ترى عَيْنَي أختِها البنفسجيَّتَين المُتَّقِدَتَين نظرَت نحو كهمس وهمَسَت:

-إنّها نبرمان..

-يَبدو أنَّ معَها الأُخْرَيَاتِ أيضا!

غُلِّقَت الأبوابُ والنوافِذ والحوانيتُ إلَّا من شقوقٍ يَتَبَيَّنُ منها بعضُ السُّكانِ ما يَحدثُ في الخارِج، لكن أحدًا لم يَجْرُؤ على التَّقدُّمِ نحوَ الجنود؛ خَلَت الشوارعُ فَلا تَسْمَعُ إلَّا همسًا خافِتًا تُصْدِرُه الرِّياح، وكأنّها تَنُوحُ على أرواحٍ دَمِيَتْ أجسادُها، وَتَرْثي حالَ الأحياءِ الذين بَلِيَتْ نُفوسُهُم فَدَعَسَتْهُم نِعَالُ الظُّلمِ دون أن تلقَى مِنهم رَفْضًا أو استِهجَانًا.. أولئك شياطينٌ خرساءُ دُفِنَتْ بَكماءَ تحتَ الأرضِ السَّابعة، في دَهاليزِ الحَيفِ التي امْتَدّت أنفاقُهَا إلى ما لا نهاية، يعيشُ هؤلاء البشرُ الذين لا يَعْبَؤونَ بِرؤيةِ البراءةِ وهي تُمَزَّقُ كلَّ يومٍ بِأيادٍ نَجِسَة.

اِختطَفت نبرمان لَمْحَةً إلى تقى وقالت:

-عليكِ بِكهمس..

-أقتُلُه؟

-مَزِّقِيه.. كلُّ الأرواحِ البريئةِ سَتَقْتَصُّ مِنه اليوم، دماؤهمم المَسفوحَةُ سَتعبَقُ في الأثِير، سَتَعودُ هايدرا دون شَكّ؛ وسَيَلقَى الظالمُ جَزَاءً كان مُلاَقِيه.

هَتَفَت أمان بعد أن أرهفَت السَّمع لِحدِيثِهما:

-ماذا عن هيلدا؟

-سَتَلحقُ بِزَوجِها.. لِيعيشَ هؤلاءِ الأبرياءُ في أمان، ولو كَلَّفَنِي ذلك حياتي.

توقَّفَت عن المَسِيرِ فجأةً فَصَهَلَت الفرَسُ التي تَمْتَطِيهَا، رفعَت سَبَّابَتَها في السماء وحرَّكَتها فَانطلَق منها نورٌ أزرقُ شاحِبٌ لَفَّ الموضِعَ الذي تقِفُ عليه بينما اسْتَدَارَت الفتياتُ بِخُيولِهن ونظَرْن إليها بِحَمَاسٍ حين غطَّى السماءَ سِرْبٌ هائل مِن الفراشات الزرقاءِ التي اسْوَدَّ لونُها فورَ أن عَلَت مكانَهُنَّ، تحوَّل لونُ السماء إلى الأسودِ بِسبب الجيشِ الطائر كَالغِربَانِ الصغيرة التي تَتَخَلَّلُهَا فَرَاشَتَانِ إحداهُما زَعفَرَانِيَّةُ اللون والأخرى نَارنجيّة، هَبَطَتا على الأرضِ وحَلَّقَتا حولَهن فَابتسمَت نبرمان بِشُحوبٍ وهي تهمِس:

-ناجود.. نارنج.. شُكرًا لكما.

فَرقَعَت بِأصابِعِها فَانطلَق صَفٌّ مِنْهُنّ مُندفِعَاتٍ كَقَذِيفَةِ مِدْفَعٍ وحَلَّقْنَ في الجوّ ثم اسْتَدَرْن وتحوَّلْنَ إلى بناتٍ مُجَنَّحَاتٍ يرتَدِينَ ثِيابًا سوداءَ يَتَلَحَّفنَ بِخُمُرٍ دامِسةٍ، وَوَجَّهْنَ سِهامَهُنّ نحو جيشِ كهمس فَاخترَقَت الجوَّ مُلْتَهِبَةً إلى أجسادِهِم دون أن تُخطِئَ إحداهنَّ الهدف، وكذلك فعلَ الصفُّ الثاني والذي بعدَه بينما استَمرت نبرمان في التَّقَدّم فُتَبعتْها الأُخرياتُ باسْتِثْنَاءِ تقى التي عَلَت عن الأرضِ بِجناحَيها وَصَوَّبَت سهمًا نحو قلبِ كهمس لكنَّ صوتًا بريئا لِفتاةٍ صغيرة اندفَعَت صارِخَةً نحو جيشِه جَعلَها تَتوقَّفُ عَمّا سَتُقدِمُ عليه، نزلَت رفقة جمعٍ من البَنات المُتَّشِحاتِ بِالسَّواد؛ واللّواتِي كُنَّ فراشاتٍ تُراقِب ما سَتفعلُه تلك الصغيرة كانت تَجُرُّ جسدَها بِعُكَّازَين طِبِّيَّينِ تحاول أن تعوّضَ بِهما قدَمها

المَبتورة، فَرَّت بِسرعةٍ مِن منزلٍ فتحتْ بابَه وَوَقَفَت أمامَ هيلدا وهي تقول:

-أنتِ.. السبب في موت أمي..

***

(هيلدا)

هَل أنا سَيِّئَةٌ لِلحَدِّ المُطلَق الذي لا ذَرَّةَ خيرٍ فيه؟ هل يوجد شَرٌّ مُطلَق في هذا العالم؟ لماذا أشعرُ بِالتَّناقُض؟ لماذا نبرمان تَبدُو أكثرَ طِيبَة؟ ولماذا كانت مَحْبُوبَةً طوالَ الوقت؟ لِمَ أشعُرُ بِالجَفاء تجاهَها؟ ولماذا قتلتُ والدَيّ؟ لأجلِ الحُكم؟ أو لِشيءٍ آخرَ لَمْ أُدْرِكْهُ بعد؟ لِشيءٍ لم تُفْصِح عنهُ نفسي لِنَفسي، كيف أصبحتُ أُفَكِّر هكذا فجأةً؟ بِلَحظةٍ خاطِفَةٍ مرَّت بِذِهني أُلوفُ الهَذَيانَات، أشعرُ أن أَجَلِي اقتَرب، نحن نَدنُو إلى الموتِ كلما مَرَّ يومٌ من حياتِنا؛ ونَمُرُّ على تاريخِه سَنَوِيًّا دون أنْ نعلَمَه، لقد هَجَرَنِي جمالُ شكلي وَبَلِيَ شبابي وَفُتُوَّتي؛ ولَربما رضيتُ بِذلك بِطريقةٍ ما؛ لا أريدُ المُلكَ الآن يَا لِلطَّبائِعِ البشريَّة، كيف نزهدُ في شيءٍ أَرَدْنَاهُ طَوِيلاً لِمجرَّدِ الحصولِ عليه، لأننا فقط لم نُرِدْ ذلك حقًّا؛ كلُّ ما أردتُه هو بعضُ الاهتمام بادِئَ ذي بَدْءٍ، هل كنتُ حَقُودَةً منذ البداية؟ لماذا كنتُ السبب في موتِ هؤلاء جميعا؟ لا أستطيعُ التراجع الآن.. لا أعلم لماذا، يَتَمَلّكُني إحساسٌ بِالخزي يَخرمُ لحمِي وينخرُ عِظامِي؛ نظرتُ في عينَيْ كهمس فَفَهمتُ ما ترمِيَانِ إليه، تَردَّدتُ قليلا.. حَملقتُ في وجوهِ بعضِ الجنود المَرْمِيّينَ على الأرضِ هامِدِي الجثث، وآخرينَ لا زالوا يُحارِبون بِبَسالَةٍ ظنًّا منهم أنهم يُدافِعون عن الحق؛ هل سَيكون النصر حَلِيفَنا؟ هل هناك نصرٌ في الحرب؟ وهل أنا أُدافِع

عن حقّ؟ في حالَتي.. لا أظن، لكن.. في الحرب؛ ليس هناك طرفٌ منتصر.. الجميع سَيغادر بِخسائر، البعض سَيخسر أهلًا، وآخر أعضاءً؛ وآخر روحًا، والكثير سَيخسر إنسانيته.. وكلٌّ يظنُّ أنه يُدافِع عن حقّ، أو يَدفع ظُلما.. الجميعُ خاسِرون في نهايةِ الحروب حتى المُنتصِرون، لأنهم بِدَورِهم خسروا الكثير؛ وعادوا خَالِي الوفاضِ مِن بعضِ البشر، فَخابَت أمٌّ تنتظِر ابنَها لِتعانِقَه بِشوق وعروسٌ تنتظر زوجَها لِتطمئن وتسكن إليه، وأولادٌ ينتظِرون أبَاهُم لِيتأَرجَحوا على كتِفِه ويَتَحَلَّقوا حوله وَيَتَصَايَحُوا بِالقُربِ منه وإخوةٌ ينتظرون أخاهم لِيَضُمُّوه إليهم مجدّدا، وشابٌ ينتظِر عودتَه لِيَستَأنِف حلمًا كان يقضُّ مَضجعَه أمرُ تحقيقِه، فَنَسَفَت الحربُ كلّ ما راوَدَه مِن أمانِي الفُتُوّة؛ نَسفَت الحرب كلَّ شيء.. نسفَت الحربُ كل البشر!

تقدمتُ نحو تلك الصغيرة ونظرتُ إليها بِقسوة، لا أعلم لِمَ أكرهُهَا.. لَمْ أملِك أن أتَراجَع كَالعادة؛ كنتُ مُجبَرَةً على الانتصار حتى لو خسرْتُ كلَّ ما بَقِيَ فِيَّ من ذرَّاتِ إنسانية!

***

(أمان)

وَصَلنا حيثُ جيش مراس فَتَنَاقَل الفُرْسَانُ نظرةً بينَهُم وهم يَتَهامَسُون:

-من هؤلاءِ الفُرسانُ المُلَثَّمُون؟

تقدَّمتُ نحو آبنوس، كان ينظُر إليَّ وكأنَه عَرَفَني؛ أنزلتُ لِثَام وجهي الأسود فَمَدَّ يُمنَاه نحوي وَابتَسَم بِلطفٍ، كأنّما كان يُوَدِّعُني

بِطريقةٍ ما؛ أمسكتُ يَدَه وقَلَّبْتُهَا بين كفَّيَّ فَاقترَبَ مِنِّي بِحصانِه وهمَس في أذني:

-أحبُّكِ يا أمان..

شعرتُ بِرغبةٍ في البكاءِ حين سمعتُ تلك الكلمات القليلة؛ بعضُ الحروفِ شفاءٌ لأسقامِنَا.. تَهَبُنا الطّمأنينَة؛ وتمسَحُ على جروحِنا بِلِين، اِغْرَوْرَقَت عينَايَ بِالدموع وأنا أضع يدَه على جانِب قلبِي وأقول:

-أحبُّكَ حبًّا، لو وُضِعَ على الجِرَاحِ لأَشفَى حَرِيقَها؛ ولو وُزِّعَ بين القُلُوبِ لاخْتَفَت أحقادُها.. ولو تَمَشّى في البلدان لماتت الحروب.

اِبتسَم ولاقى عينَيَّ بِعَيْنَيه ثم قال بِمَرَحٍ يحاوِل أن يُخْفِيَ به قَلقَهُ واضطِرابَه:

-لقد احْمَرَّت وجنتاكِ.. أنتِ خَجِلة!

شَرد في يدِي قليلا ثم أضافَ:

-أخشَى أن نَفترِق يا أمان، أخشَى أن أشتَاق إليكِ؛ أخشى الفراقَ بِشِدَّة.. لِذلِكَ أكرهُ الحُروب!

اِنتفضتُ على صوته فَاستَطْرَدَ مُطَمْئِنًا:

-حتى لو حدَث ذلك يا أمان، سَنَلتَقِي مجدّدًا.. "فَلِقاءُ الخُلدِ في تلك الرِّحاب"

مسَح دُموعِي بِظَاهِر كَفّه فَهَمَمْتُ بِالمغادرة نحو الفتياتِ لكنه استَوقَفَنِي حين قال مِن جديد:

-لا تَموتِي يا أمان.. رَجاءً!

اِنهَرْتُ باكِيةً وأنا أردّدُ شاخِصَة:

-أرجوكَ، لا تَمُتْ يا آبنوس!

***

(تقى)

عادَت أمان نحو الأُخرَيَات وعمَّ الوُجُومُ حين توجَّهَت الأعناقُ حيثُ كانت هيلدا تقِفُ مُمْسَكَةً تلكَ الصغيرةَ ذاتَ السَّاقِ المَبتورة رفعَتها في الهواءِ بِيَدَيْها وقَذَفَتها بِقسوةٍ فَارتطَمَت بِالأرض، داسَ كهمس جسدَها الهزيلَ فَكَتَمَت صرخةَ ألمٍ جَلْجَلَت في أحشائِها دونَ أن تخرُج مِن بينِ شَفَتَيها، بعضُ البشرِ يَكُونُونَ مِن القوّةِ حتى نَظُنَّهُم قد خُلِقُوا مِنَ الحَدِيد؛ حتى الأطفالُ يَمْتَلِكُونَ أرواحًا قَويَّة.. وَأَنْفُسًا تَرْفُض الذُّلَّ مهما عانَت مِن ألم، الأطفالُ يُعَلِّمُونَنا أحيانًا مَا لَم نَكْتَسِبْهُ بِطُولِ مُكوثِنا في الحياة، شدَّت هيلدا شعرَها الأسودَ ورَفَعَتها من خلالِه نحوَ كهمس الذي صَفَعَها؛ تفلَت بِوَجهِه وقالت بِكُرْه:

أَتَظُنُّ أَنَّكَ حِيــنَما أَحْرَقْتَني

وَرَقَصْتَ كَالشَيْطَانِ فَوقَ رُفَاتِي

وَتَرَكْتَنِي للذَّارِيــات تَذُرُّني

كَحْلاً لِعَيْنِ الشمسِ فِي الفَلَوَاتِ

أَتَظُنُّ أنَّك قَد طَمَستَ هويَّتي

وَمَحَـوتَ تارِيخِي وَمُعتَقَداتي

شعرتُ أنني قرأتُ تلكَ الأبيات مِن قبل، لا أدرِي تَماما أين ومتى حدَث ذلك، لكنّني أظنُّها لِشاعرٍ اسمهُ مهذل الصقور، لا أعرِف عنهُ كثيرا غير أنّي صادفتُ أبياتَه في كتابٍ قرأتُه فَأعجبَتني، لَطَمها كهمس فَتقدَّمْتُ نحوَه وكفَفتُ يدَه عنها وأنا أضغط عليها وأُضيف:

عَبَثًا تُحَاوِلُ، لا فَناءَ لِثائرٍ

أَنَا كَالقِيامَةِ؛ ذَاتَ يَومٍ آت

ضحكَت هيلدا بِصوتٍ مرتفع فَاستَقْبَحتُ ذلك منها، رمَت الصغيرةَ أرضًا فَهُرِعتُ نحوَها وحملتُها فَخَطَت نحوي بِفَرسِها الحمراءِ وَحَدَجَت ثيابِي وأجنِحَتِي البنفسجيّة بِازدِرَاءٍ وقالَت عندمَا لاحظَت انْفِعَالِي:

-آلَمَكِ ألمُها يا صغيرتي؟ ما رأيُكِ أن أخلِّصَكِ من ذلك الآن؟

صَفَّقَت بِيدها فَتهاوى جسدُ كهمس وَاستحَالَ ضَبَابًا اكتَنَفَنَا ثم رفعَهَا في الهواءِ وسَوَّاهَا مُقَابِلَةً لِهيلدا وَجهًا لِوجه، نظَرَت تلك الصغيرةُ إليها بِحنقٍ وهي تردِّد:

-الله يعلمُ ما حصَل، لم يكنْ لِيخذُلَنِي؛ سَأُخبِرُه عن الظُّلمِ الذي انتَشَرَ في هاتِه الأرض، وبِكلِّ شيء..

اِستلَّت هيلدا سيفًا من غِمدِه وَوجَّهَتهُ نحو الفتاةِ فَصِحتُ بِتهدِيد:

-إيَّاكِ وَفِعلَها..

-ولو قمتُ بِذلك؟

اِزدَرَدتُ ريقي وصَرَرْتُ على أسنانِي مُجِيبَة:

-لأُمَزِّقَنَّكِ..

نَدّت منها ضحكةٌ عالية ثم بَاغَتَت تلك الصغيرةَ بِطعنةٍ جعلَت الخنجرَ يَنفذُ عبر جسدِها إلى خارجِ عمودِها الفقريّ، ثم انتَشَلَتْهُ من جسمِها فَتَهَاوَت على الأرضِ مُضَرَّجَةً بِدِمَائِها، اِختَلَطَت دموعُها مع السائلِ الأحمر الذي أحاطَها على الأرضِ حين صِحْتُ بِفزَعٍ وجَثَوتُ على ركبتَيَّ أمامَها، حملتُها وارتفعتُ في الجوِّ أستنجِدُ بِأحدِ

الأطبَّاءِ الذين في بُيُوتِهم، لكنها تَمْتَمَتْ قبلَ أن يسيلَ خَيْطٌ مُستمرٌّ مِنَ الدِّماءِ مِنْ بين شفَتَيها:

-هذا أقلُّ ما أستطيعُ تقديمَه لِروح أمي.. حياتي!

سَكَنَت نبضاتُها وهمَدت أنفاسُها، هروَل أحدُ الفُرسَانِ نحوي وأخذَها من بين يَدَيّ ثم قدَّمهَا إلى شيخٍ طَفِقَ يمسَح على وجهِها بِمياهٍ باردة؛ أدخَلَها إلى منزلِه وتَوارَى عن أنظارِنا، دمعَت عينَاي فَطِرتُ مجدّدا وصَوَّبْتُ ثلاثةَ سِهَامٍ دُفعةً واحدة نحوَ قلب هيلدا أطلقتُهَا فَاتَّقَدَت بِلونٍ بَنَفسَجِيٍّ وَاندَفَعَت بِسرعةٍ نحوها لكنَّها صَدَّتْها بِدِرعٍ فولاذيّ، نزلتُ مباشرةً نحو هداية؛ عرفتُها مِن بينِ الأُخرياتِ في وَهَجِ عَينَيها المُمَيَّز، سطعَت الشمس بِقوَّةٍ فَلاَمَسَتْ وَجهَها الأسمرَ المُطِلَّ من مساحَةٍ لا بَأسَ بها خلفَ اللِّثام؛ صادفَ أن تلاقَى ذلك الكوكبُ الأصفَرُ المُشِعُّ مع مُقلَتَيها فَشكَّلاَ معًا جَرَمًا سماويًّا مُنفصلا، يسبَح في مجرَّةِ وجهِها السّمراء؛ ويطُوفُ بِعمقٍ بين الحُسنِ والبَهاء مُكَوِّنًا كوكبا بُنِّيًّا فاتِنًا؛ يجسِّد بِصدقٍ قُدرةَ الإله في إتقانِ الخَلق.

سَمعتُها تهمِس وأنا في أوجِّ غضَبي أكادُ أَبِينُ دبيبَ نَملَةٍ تخطُو بين شُقُوقِ الأرض:

-أرجوكِ.. لا تَمُوتِي!

هَزَزْتُ رأسِي وقلتُ في حَزْم:

-الآن يا هداية.

اِنتَظَرْتُ قليلا مِن الوقتِ قبل أن أُضيف:

-اِهْدِ هاتِه الأرواحَ إلى نورِ الحُرِّيَّة، اِهْدِهَا إلى سواءِ السّبيل.

ظهَرت ابتسامَةُ عَينَيها فَبَادَلْتُها بسمةً مُهْتَرِئة، كنتُ مُنْفَعِلَةً جدًّا؛ تقدَّمتْ نحو يقين وقالت:

-أرجوك.. لا تَمُتْ يا أخي..

اِنتَفَض جسدُها فجأةً وسقطَت سَرَابِيلُها السّوداءُ فَظَهَر من خلفِها لِباسُها الرّماديُّ بينَما أخذَ الجميعُ يَتَهَامَسُونَ مجدّدا:

-فتاةٌ أخرى.. لا بُدَّ أن جميعَ هؤلاءِ المُلَثَّمِينَ فَتيات!

علَت في الهواءِ وَانبثَق مِن ظهرِها جَناحَان رَصَاصِيًّا اللونِ بِهِمَا بَريقٌ ولَمَعَانُ نجومٍ مَرصوصةٍ في السماء، أو كوكبٍ دُرّيّ يكادُ نورُه يُصيبُ الأبصارَ بِالعمى؛ مدّت يدها نحوِي فَأمسكتُها، اِسْتَلَّت سَهمًا وَوَضَعَتْهُ على القوسِ وكذلك فعَلتُ، وَجَّهْنَاهُما نحو هيلدا فَاندَفَعا بِقوَّةٍ وتلاحَما مُمْتَزجَين بِلَونَيهِما البنفسجيّ والرماديّ البرَّاق؛ ثم اخْتَرقَتا الدّرعَ الذي كانت تَقِي به نفسَها وَرُشِقَا في قلبِها مباشَرةً فَشَهقَت شهقةً تقلَّبَت لها عيناها الرماديَّتان، وذَرَفَتا دمعتَي فراقٍ يَتِيمَتَينِ قبلَ أن تعبُرَ روحُها إلى خارجِ جسدِها وتبردَ الدّماءُ في عروقِها، صاح كهمس وهو يُحيطُنا بِجسدِه الأثيريّ حانِقًا:

-سَتَلقَيانِ جزاءَكُما عاجِلاً غيرَ آجل!

حاولتُ تشكيلَ دِرعٍ حولَنَا لكنّني عجزتُ، تَأَبَّطتُ ذراعَ هداية فَتَخَلَّل سيفٌ ما جسدَ كهمس الضّبابيّ، تبدَّد دخانُه وَالتَأَم فَبَاغَتَتهُ مَوجَةُ هُجومٍ أَدْمَتْهُ وَطَرَحَتْهُ أرضًا؛ نظرَت هداية إلى يقين الذي اسْتَعَدَّ لِيُوَجّه إليه ضربةً أخيرة وقالت:

-أُترُك الأميرةَ تفعلُ ذلك..

اِختَرَقَت نبرمان الحُشُودَ وَرَصَّت سَهْمَينِ بِقَوسِهَا ثم أطلقَتْهُما نحوَه فَخَرَّ مَيتًا مِن فورِه، كفكفَت عَبَراتِهَا وهي تَرْقُبُ جثَّةَ أختِها الهامدَةَ ثم اتَّجَهَت نحو أمان.

عَمَّ الهرجُ والمَرج، والكَرُّ والفرّ؛ وهاجَ الجُنودُ وتقدَّمُوا طالِبِينَ الثأر لِمَلِكِهِم، كشَفَت نبرمان عن وجهِها فَتَوَقَّف زحفُ بعضِ الفُرسانِ وهم يَتَهَامَسُون:

-الأميرة..

جَاءَتهَا ضربةٌ مُبَاغِتَةٌ صَدَّتها ثم صاحَت بِأَلم:

-مَن كان يُريد لِهذِه الأرضِ أن تكونَ فَلاَةً مُقْفِرَةً فَلْيُحارِبني الآن مَن يَوَدُّ لو تتحوَّل هايدرا إلى مَرْفَإٍ لِلحُرُوبِ ومُستَقَرٍّ لِلجُثثِ والضّحايَا فَلْيَتَقَدَّم الآن.. فَإِنّ سبيلَهُ الوحيد هو تَقْطِيعي في مَوضِعي هذا.

تَراجَعوا نحوَ الخلف فأَضَافَت:

-إِن جَنَحْتُم لِلسِّلْمِ جَنَحْنَا، وإن عُدْتُم عُدْنا؛ أخمِدُوا نارَ الحدودِ لِتَعودَ الغابَةُ إلى سابِق عهدِها.

اِبتَلَعَت الأرضُ ألسِنَة النّيرانِ وكأنّما أَصْغَت وَأذعَنَت لِما قالت نبرمان، زُلزِلَت ثم انْشَقّت ولفظَت الغابةَ وكأنها كانت هناك منذُ زمنٍ طويل، اِجتَمَع آبنوس ورامان ويقين وهداية وتقى وأمان حولَها وقالوا معًا بِوهنٍ وحزن:

-لقد كان ذلك سَرِيعًا.. لَمْ تَدُم المعْرَكَةُ طويلاً.

تنهّدَت نبرمان وهمسَت:

-آسَفُ علَيها؛ هِي أُختِي على كلِّ حال.

قالَت هداية مَشْدُوهَة:

-كنتِ فتاةً أخرى تماما حينَ تحدَّثْتِ إلى الجُنود، وحين حاربتِ أيضا!

اِبتَسَمَت بِشُحُوبٍ وَتَمْتَمَت:

-علينا أن نَتَخَلَّى عن شفافيَّتِنَا لِبَعضِ الوقت، لا يجدُرُ أن نضعف أمامَ الجميع؛ قد نحتاجُ لِلتَّجَلُّدِ أحيانا حتى نَبدُو بِذاك التَّماسُكِ وتلك القوّة، ونترُكَ هَشَاشَتَنا؛ وَلَو إلى حِين.

صَمتَت وكأنها تَستَلهِم فكرةً ثم أضافت:

-هناك مشكلةٌ عَويصة.

وجَّهَ الجميعُ نَظَرَاتِهم إليها فِيمَا هي تَسْتَطْرِد:

-لقد أُحْرِقَ حقلُ الهيدرانجيا، علينا اللُّجُوءُ إلى قلبِ هايدرا.

صَوَّتَ الجميعُ بِنَفسٍ واحد:

-وَما ذاك؟

-سَتَعرِفُونَ عَمَّا قَريب، لكن.. أَحتاجُ زهرةَ هيدرانجيا على الأقل، ولِلأسف؛ لَن تُجدِيَ الأزهارُ المُحتَرِقة..

قاطَعَتْهَا هداية وكأنّها تذكَّرَت فجأةً وهي تُقَدِّم إليها تلك الزهرة:

-لقد قَطف يقين هذه أوَّل مجيئِنا إلى هنا، وَاحتفظتُ بها كلَّ ذلكَ الوقتِ لأنني لاحظتُ أنها لا تَذبل؛ كما أنّها أنارَت عتَمة السِّجنِ يوم اخْتَطَفَنِي كهمس.

اِبتَهَجَ وجهُ نبرمان حين رَأَت الهيدرانجيا وَإنْ كان بعضُ الحزن لا يَزالُ عالِقًا به، اِرْتَمَت على هداية تَحْتَضِنُهَا وقالت:

-ماذا كُنَّا لِنَفعَل لولا تصرُّفُكِ الأحمقُ يا عزيزتي؟

-لماذا؟

ضَيّقتْ عينَيها وأضافَت:

-لَو رآكِ أحدُ سكّانِ هايدرا تَحْمِلِينَ زهرةَ هيدرانجيا مِن حقلِهِم لَنَفَوْكِ بَعيدًا، أو لأَعْدَمُوكِ؛ إنَّها مَحْظُورَةُ القَطْف!

نَظر يقين إلى أختِه وقال فَجأةً:

-على ذِكْرِ مَجِيئِنَا، أَلاَ يمكِن أن نَعُودَ بعدَ الآن؟

تجَهَّم وجهُ نبرمان وقالَت بِحزن، وقد ذَكَّرَها حديثُ يقين بِاختِفَاءِ مراس:

-أَتُرِيدَانِ العَودَة؟

-بِصراحة.. أَحْبَبنَا هذا المكانَ كثِيرًا، لكنَّ لَنا أهلاً هناك؛ وَفراقُ الأهلِ مُؤلِم.

حَطَّت الفراشاتُ السّوداءُ على كتِف نبرمان وعادَ لونُها أزرقَ بَرَّاقًا بينما قالت نبرمان بِتَفَهُّم:

-سَنَرَى لاحِقًا طريقةً ما..

-شيءٌ آخر.. لِمَن ذلكَ المنزِلُ الذي اسْتَيْقَظْنَا فيه؟

تدخَّلَ آبنوس مُجِيبًا:

-كُلُّ الشُّخُوصِ الذينَ ينتقِلون إلى هايدرا يُمْنَحونَ بُيوتًا بَدَلَ بُيوتِهِم حتَى يَتَأَقْلَموا مَعَ طبيعةِ الحياةِ هنا.

***

دخَلَت القصرَ رفقة أولئك الرّهطِ وهي تُجِيلُ ناظِرَيها بِأَسفٍ في أرجائِه وتَخْطُو نحو غُرْفَة جدِّهَا ثم تقتَحِمُها وتُصَوِّب عينَيها مباشرةً نحو بابٍ جانبيٍّ صغيرٍ فيها، تَوَجَّهَت نحوَه وفَتَحَتْه فَأَطَلّ الجميعُ على أَوداجٍ تمتَدُّ من الجِدارِ وتَتَلاَقَى جميعها عِند قلبٍ زجاجيٍّ مُتَجَمِّد، كانَتْ جُدرَانُ تلكَ الغرفةِ مَرِنَةً وكأنها جِلدٌ بشريّ وتلك الأورِدَةُ متجمِّدةً بِما احتَوَت مِن سائلٍ بنفسجيٍّ ورمادي يَمُرُّ

إلى القلبِ الأزرق الشّاحب، خلعَت حذائَها وخطَت على الأرضِ البارِدَة وهي تُكَرّرُ والدموع تُغْدَقُ على وجهِها:

-علينا إعادةُ القلبِ إلى الحياة.. قد يعودُ مراس أيضا حِينئذٍ.

-إنه مُتجمّد..

-سَأَتَدَبَّر أمرَه.

لمسَت القلبَ وَفَرَكَتْهُ بِيَدَيهَا فَانطَلَقَت شرارَةٌ لَطيفَةٌ، أَغمَضَت عَينَيها وَتَنَفَّسَت بِعمق، أخذَ الجليدُ يَنْصَهِر شيئًا فَشَيئًا حتى عادَ القلبُ ينبِضُ مفعَمًا بِالحياة، رَشَقَت نبرمان زهرةَ هيدرانجيا في إِحدى الثُّقوبِ التي كانَت بِه فَوَمَضَ نورٌ يعمِي الأَعيُن حَدَّ مِن نَظْرَتِهِم لِبَعضِ الوقت، ثمّ ما لَبِثَ أن خَمد وَابْتَلَع القلبُ تلك الوردةَ البيضاء، تحوَّل لونُ القلبِ إلى البنفسجي فَقَالت نبرمان فِي رِضى:

-لقَد اختارَني..

تقدَّمَت تقى ولَمَسَته فَشَعَرت بِحرارَةِ نَبضِهِ وهَمَسَت:

-في البنفسجِي أحلام..

اِبتسَمَت نبرمان ونطقَت فجأةً:

-أريدُ هدمَ السّجن..

-لماذا؟

-لن تُزهَق روحٌ بَريئَةٌ مجدّدا.. هايدرا مملكةٌ مسالِمَة، لا تَحتاجُ سُجونا!

***

على أعلى قمَّةٍ في هايدرا، وحيثُ يُرى حقلُ الهيدرانجيا الذي عاَد مُمتَلِئًا بها ومُفْعَمًا بِالحياة، وقفَت نبرمان بعدَ أن أغلقَت

السِّجن وأمرَت بِهَدمِه، نظرَت إلى المملكةِ بِرمتِها عندما انطَلَقت أعمالُ التّرميمِ لِكلِّ مَا بَلِيَ منها بِسبَبِ الحرب، تَرَقْرَقَت الدُّموع من عينَيها حين تذكّرت مراس، وَدَّت لو كان هُنا لِيرَى كيف عادَ الاتِّحاد إلى سابقِ عهدِه؛ كيفَ عادَت الحياةُ إلى المملكةِ الواهنةِ المُتعَبَة تنهَّدَت ثم همَسَت بِحروفٍ تقطُرُ شَوقا:

-هايدرا..

-نجيا..

جمعَت الجُزأين قائِلة:

-هيدرانجيا.

أطلقت زفرة عميقة وأردفَت:

-القلب المخلص..

اِلتفتَت حيثُ ذاك الصّوت فَدَاهَمَهَا دوارٌ جَثَتْ على إثرِه وهي تنظُرُ إلى صاحِبِه الذي يحمِل زهرةَ هيدرانجيا بِيَده بِغَير تَصدِيقٍ وَتُرَدِّد بِهيام:

-مراس..

أخذَت تلكَ الزهرةَ مِنه وكأنّها تُريد أن تَتَحَقَّقَ من أنّه حقيقيٌّ بالفعل، أنّه ليسَ وَهْمًا رسمَتْه لها خيالاَتُها؛ أو وَليدَ هاجِسٍ جعل أفكارَها تَتَمخَّضُ عن شكلِهِ لِيَمْثُل أمامَها، أرادَ التّخفيفَ من حدَّةِ الموقِف فَقالَ مُبتَسِمًا:

-هل أصبحتُ قبيحًا لِهذه الدَّرجةِ التي جعلَتكِ تبقينَ مُندَهِشَةً لِثلاثِ ساعات؟

اِبتسَمَت وانهمرَت الدموع مِن مُقلَتَيهَا بينَما هي تهمِس ناظِرَةً إلى تلك الزهرة التي بين يديهَا بِتَسَرُّعٍ وخجل:

-اِشتَقتُ إليك..

وضعَت يدها على فمِها بِحَياءٍ فَتَغَافَل مراس عَمَّا سَمع وقال مع أنَّه يريد سَمَاع تلك الكلمةِ مِرَارًا:

-لم أسمَع كلامَكِ.. آسف، يبدُو أنني تقدَّمتُ في السِّن.

أجابَت بصوتٍ بِالكادِ يخرُج مِن بينِ شَفَتَيها بعد أن طمَست دموعَها:

-إنّه مراس لا رَيب، ذاتُ البَلاَدةِ والدَّمِ الثّقيل.

ضَيَّقَ عينَيه وَجَلَسَ على الأرضِ مُتَصَنِّعًا الانزعاجَ وصاح:

-سَأعودُ إذن، لقد أعجَبَتْنِي الحياةُ في العالمِ الآخر.. هذا إن لم يَطْرُدْني إياد هاتِه المَرّة.

ضحكَت نبرمان وهي تَرَاهُ يعودُ أدراجَه مَازِحًا وقالت:

-لا بأس.. يُمكنك أن تَعيشَ هنا، لكن على شَرط.. أَلاَ يمكنُكَ التَّخَلّي عن بعضِ البلَادَة؟

اِبتسَم وهو يُجيبُ بِسؤالٍ آخر:

-ألا يُمكنُكِ تقبُّلِي كما أنا؟

خَفق قلبُها بِشدَّةٍ فَحاولَت مُدارَاة شعورِها وقالت مُتجاهِلةً ما يُلَمّح إليه:

-يمكنُني أن أحاول، وما صَبرِي إلا بِالله.

ذَبلَت عينَاه بِحَنِينٍ وقال بِصَوتٍ دافِئٍ مُضطرب:

-أَتَتَزَوَّجِينَني؟

***

رَجع آبنوس وأمان إلى منزِلِهما فَوَجَدَا هوف هُناك رفقَة ابنَتِها التي ضَمَّت ساناز إليها، كانَ زوجُها في انتظارِهم أيضا؛ وما إن

وَطَأَت أقدامُهُمَا البابَ حتى هَاجَمَهُمَا الجميعُ بِسَيلٍ مِن الأسئلة وتَعَلَّقَت رخاء وغيداء بِيَديّ آبنوس وقال زوجُ هوف بِسعادة:

-لقد عادَت الكلماتُ إلى الكُتُب..

-عادَت المبادِئ..

-عادَت الحَيَوَات.

-وعادَت مملكةُ الهيدرانجيا!

همَست أمان في أُذنِ آبنوس:

-هل أَعدْتَ الأَخَوَيْن؟

-نعم، وَمِراس هُنا أيضا.

-كيفَ ذلك؟

-البِئرُ الذي عَاد إلى الحياةِ مُجَدّدا، لقد كانَ نَفَقًا بَين العَوَالِم.

***

فَتحَت تلك الفتاةُ عينَيها وأَجَالَتْهُما حولَها فَإذا بِها في الصَّفِّ بِجانبِ سُلَيمَة، كانتا نائمَتَين والفَوضى تَعُمُّ المكان، وَكَزَتْها بِرفقٍ لِتُوقِظَها فَصاحَت الأخرى مَشْدُوهَةً فَور رُؤيَتِها:

-هداية.. مَا الذي تَرتَدِينَه؟

بدَت وكأنّها لاَحظَت لِلتَّوِّ ملابسَها فَقَالَت بِحَنِين:

-إنه تذكار حياة.. لم يكن ذلك حلمًا إذن.

-ماذا تقصدين؟

وضعَت يدَها على الطاولةِ وأسندَت بِها رأسَها ثم قالت:

-سُلَيمَة.. أتظنِّين أن هناك عَوَالمَ أخرى غير العالَمِ الذي نَعِيشُ فيه؟

-مَا هذا الكلام؟ أصبحتِ غريبةً حقا، متى غيَّرتِ ملابسَكِ؟

-بعضُ الخبراتِ التي نكتسبُها تجعلُنا نتغيَّر يا سُليمة..

-أنتِ مَجنونة، لا رَيب؛ كيف تغيَّرَت تصرُّفاتُكِ فجأةً؟ ولماذا ثيابكِ واسعةٌ هكذا؟

-أحيانًا نعيشُ حياةً أخرى دون أن نُغَيِّرَ أماكِنَنا.. وقد نُعَمَّر سنواتٍ من الزمنِ في لحظاتٍ قصيرة؛ والكتب هي التي تجعلُنا نستمرُّ في العيش كلما وهبَتْنَا أسلوبَ حياةٍ جديد، الكتب تُضِلُّ وتَهدي يا سُليمة؛ وتنقُلُنا عبر الزمن.. وعبرَ العوالم.

-كلامكِ غريب..

نظرتْ إلى السماء فَفرَّت مِن مَدَامِعِها قطراتُ حَنينٍ وهي تهمس:

-تُرى.. هل يُمكِنُني العودة؟ ولو لِمَرَّةٍ أخيرة..

***

شَعر بِدُوَارٍ عنيفٍ حين أيقظَهُ الحارِسُ مِن غفوَتِهِ وهو يردِّد:

-أيُّها الفتى.. اِستَيْقِظ.

اِستَوَى جالِسًا بعدَ أن كانَ يُسنِد رأسَه إلى الطاولة فَسَأله الحارِسُ بِخشونة:

-هل أنتَ يقين؟

-نعم.. أنتَ مُحِقّ.

-أصدقاؤكَ يَبحَثُونَ عَنكَ يا فتى، اليوم الخميس؛ زُمَلاؤكَ في الورشةِ وأنتَ نائِمٌ هنا؟

ظهَر مِن خلفِ الحارسِ فجأةً جمْعٌ مِنَ الشّباب الذين هَرْوَلُوا نحوَهُ وصَاحوا:

-أينَ كنتَ يا صاح؟

اِسْتَرَقَ أمير نظرَةً إلى وجهِهِ قائِلاً:

-ما هذا الجرحُ على وجهِكَ؟
-وكيف استبدلتَ ملابسَك؟
أجابَ عن عَرِمِ أسئِلَتِهِم بِسؤَالٍ آخر:
-هل غِبْتُ كثيرا؟
-ربما خمس دقائِق أو أقلّ.. لقد اتّصَلنَا بِأَهلِكَ خلالَ ذلك.
ضَحك بِأُنسٍ وقال لائِمًا:
-اِتَّصَلْتُم بِأَهلِي بعدَ غِيابٍ دامَ خمسَ دقائق؟ كَم أنتُم رائِعون!
لَكَمَهُ أمير على كتِفِه وقال مُبْتَسِمًا:
-لقد الْتَهَمَتْكَ فجوةٌ زرقاءُ يا ناكِرَ المعروف.
أَلقَى نظرةً في البَعيد، حيثُ تلتَقِي السّماء بِالأَرض؛ ويَفصِلُ بَينَهما خطُّ الأفق المُلتَهِب مِن خلالِ النّافذةِ الكبيرة وقال:
-تُرى.. أَيُمكِنِني العودةُ مجدّدًا؟ ولو لِمَرَّةٍ أخيرة..

***

أطلَّت نبرمان على البئرِ وهي تَبكي ثم قالت بِحزن:
-كنتُ أَوَدُّ تَودِيعَ هداية على الأقل، أَشْتَاقُ إليها..
-منذُ الآن؟
رَمَقَتْهُ بِانزعاجٍ وقالت بِغَضب:
-مراس.. أَلا يُمكنكَ أخذُ أيَّةِ موضوعٍ على مَحمَلِ الجِدّ؟
نظرَت إلى ساناز وقَالَتْ بِضيق:
-لِبَعضِ الوقتِ فقط.. لِماذا يا سيِّدَتي؟ لماذا جعلتِهِ يَتَهَكَّم في كلِّ شيء؟
احتَضَنَت كتِفَها وهي تُجِيبُ مُبتسِمَةً وتنظُر إلى رامان:

-لأن والِدَهُ هكذا.. لا تَنْسَي أنَّه زوجُكِ الآن، عليكِ أن تَتَحمّلي كما فعلتُ حين تزوجتُ رامان.

اِستدارَت نحوَه وقالت:

-تذكّرت.. كيف جرحُ كتفكَ الآن؟

-أخبرتُكِ أن جِراحَ الجسَدِ لا تُحتَسَب مُقارنةً بِما في القلوب لقد شُفي؛ لكنّ أثَرَه كانَ خيرَ ذِكرى لِي خلالَ غِيابِي.

صمَتَ قليلا وأضافَ مُتَعَجّبًا:

-أَلَمْ تَنْسَيْ؟

هَزَّتْ رأسَها نافِيَةً وأجابت:

-"مَنْ يسكُن القلبَ كيف الرُّوحُ تَنسَاهُ"؟

رَفع رامان رأسَه نحوَ السّماء بِغِبْطَةٍ وقال:

-أخيرًا تمكَّنْتُ مِن رُؤيَتِكُم جميعا، حمدًا لِله.

شَرَد مراس في البعيدِ وهَمَس:

-الآنَ عَرفتُ يقينًا أَنّ ما يقدِّرُهُ اللّهُ لنا خيرٌ مَهمَا كان مؤلمًا في ظَاهِرِه يا نبرمان.

-كيف؟

-لو لَمْ نَفتَرِق لِتِلكَ المدَّةِ لَمَا عَرفتُ قَدْرَ حُبّي لكِ.

-وَلَمَا تمكّنْتُ مِن مَعْرِفَةِ مِقدارِ قُوَّتي، كُنتُ أظنُّني ضعيفة؛ لكنَّ التّخَلّيَ أَحيانًا يجْعَلُنَا نعرف حقًّا قدر أنفُسِنَا، وَلَو لِوقتٍ وجيز.

-و لَمَا تحرّرَت هايدرا.. ولَما اختاركِ القلب، لأنه لم يكن ليختار حاكما ضعيفا.. قَدَرُ اللهِ كلُّهُ خير.

سَألت نبرمانُ مراسَ وبالُها مشغولٌ بِذِينكَ الأخَوَين:

-أَيُمكِنُهُما العودَةُ مجدّدا؟

-لا أعلم.. ربما سَيَعُودَان مِن جَديدٍ إن أَرَادَا ذلك، وربما يُفَضِّلاَن اسْتِئْنَافَ حياتِهما في عالمِهما، على كلٍّ.. أحببْتُ ذاك الفتى؛ وسَيُسْعِدُني كثيرا أن أَلْتَقِيَهُ مجدّدا، ماذا لو كتَب عنهُما كاتِبٌ آخر مثلًا، ربما سَيَعُودَان..

-يَقُولُ آبنوس أنّهما الوَحِيدَانِ اللّذان تمَكَّنا مِن تَغييرِ الأحداثِ منذ عهدِهِ بِالكُتب.

-يَكثر أن نَنشُدَ الحرِّيَّةَ المُطْلَقَةَ بين سطورِ دفاترِنا، وعتمَة الحبرِ التي تقبَع فيها كُتُبُنا؛ فَتُكَبّلنا الحروفُ مَانِعَةً حُلمَنا مِن أن يتحَقَّق، وتُسدِل على وجهِها الفاتِنِ نِقابَ الغموضِ؛ تَارِكةً لنا المجالَ لِنَتَخَيَّل ما أرادَتهُ هي فقط.. دون زيادةٍ أو مُغَالاَة، لكنّنا مع ذلك نُصِرُّ على اختراقِها وكِتابةِ ما أَرَدْنَا، لِنُثبِتَ أننا نستطيعُ تغييرَ الكثير؛ هناك شريعةٌ في الكُتُبِ أيضا، تغفِرُ جميع زَلاّتِنا، غيرَ الشِّركِ والكفرِ بِشَفَافِيّتِها.. وَقَابِلِيَّتِها على التَّغَيُّرِ بِمُرونة.

***

(تقى)

عادَت هايدرا إلى سابِقِ عهدِها، وَانتَهَت الحربُ التي أضنَت الأنفُس؛ غادَر الظالم هذا العالم إلى مكانٍ آخرَ بعيدًا عن الأحياء.

جلسْتُ أقرأُ كتابًا على حافّةِ البئر، وحين أخذَني الشّوق إلى الأيامِ الخالية؛ دفنتُ وجهي في يَدَيّ واسْتَغرَقْتُ في دوَّامةٍ مِن البكاء، تذكَّرتُ بَيتًا طَالَما كانَ أخي رحمَه الله يغنّيهِ لي فأخذتُ أردّدُه:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسلَكَ الرُّوحِ مني

وَبِذَا سُمِّيَ الخَليلُ خَلِيلاً

أَشتاقُ لِعائلتي، الموتُ أشد أنواعِ الفراق، كل البَلاَيَا تَتَضَائَل وتتلاشى أمامَ الموت، حتى لَتَظْهَرُ غَيْضًا مِنْ فَيْض؛ الموتُ هو الطَّامَّةُ العُظمَى التي تُصِيبُنَا، والبلاءُ الأشدُّ الذي يَطَالُ مَن نُحِبّ.

أصدرَت مياهُ البئرِ صوتًا ثم رَبَّتَ أحدٌ على كتِفِي فَنَظرتُ نحوَه فَإذا بِهداية رفقة يقين يَمْثُلاَن أمامي، أردتُ التَّأكُّدَ من واقعيَّة ما أرى؛ في زمَنِ اللاَّمعْقُولات، يمكن لأيِّ شيءٍ أن يكون حقيقة، ولأي شيء أن يكون خَيالاً..

اِرتَميتُ عليها واحْتَضَنْتُها قائِلَة:

-اِشتقتُ إليكِ صديقتي..

قَفَزْنَا معًا كَطِفلَتَين صغيرتَين بينما سَأل يقين مُبْتَسِمًا:

-تقى.. أين مراس؟

-في القصرِ مع زوجَته..

قاطعَتنِي هداية بِفرح:

-هل تزوَّج مراس ونبرمان؟

-نعم، إنهما في القصر.. سَيسَرَّانِ بِعَودَتِكُما.

-كيف هي هوف؟

-إنهم بِخيرٍ جميعا، لقد كانَت نبرمان تبكي هذا الصباح اِشتَاقَت إليكِ، يبدو أنها تعلَّقَت بكِ كثيرا.

ضرَب يقين على كتف هداية بِقوَّةٍ مُمَازحًا وقال:

-مِنَ النّادِرِ أن تَنْسَجِمِي مع شخصٍ ما، يبدُو أنَّكِ حظيتِ بِصديقاتٍ هنا.

أمسكْتُ بِيَدَيها وأنا أقولُ بِحُبّ:

-أنتِ أختٌ لِي، ونحنُ جميعًا عائلة!

عانَقْنَا بعضَنا فجأةً وقُلنَا بِنَفَسٍ واحد:

-اِشتقتُ إليكِ.. يا أُختي.

-هل عادَ كلُّ شيءٍ كما كان مِن قبل؟

اِنْتَبَهْتُ إلى يقين الذي سَأَل فَأَجَبْتُ بعد أن تَنَهَّدت:

-لن يعود كل شيء كما كان أبدًا بعد الحُروب والمَعَارِكِ والهُجومَات، كل شيءٍ سَيَتَغَيّر؛ حتى نحنُ لن نبقى كما كُنّا، شيءٌ ما فِينا سَيُؤلِمُنا؛ الكثيرُ مِن الحنين سَيَجرِفُنا، وبعض الألمِ سَيَبقَى عاهةً في قلوبِنا.

زفرَ وأومأ بِإيجاب ثم قال:

-على الأقلّ قد عادَت هايدرا، ولن يموتَ أحدٌ ظُلمًا بعدَ اليوم.

-لَيتَني أستطيع رؤية أهلي مرة أخرى..

سمعتُ نحنحَةً من خلفي فَاستدرتُ فَإذا بأمان مع آبنوس ونبرمان ومراس، ورامان وساناز، اقتربَت نبرمان مني وقالت:

-نحن عائلة.. وسَنَبقى كذلك.

اِغرورقَت عَينَاي بالدموع واحتَضَنْتُها فتقدَّم مراس إلى يقين وصاح:

-ظننتُكَ لَن تعود.. لقد كانت نبرمان تبكي بسبب أختِك؛ لقد تعلَّقنَ بِبَعضِهِنّ كثيرًا.

الكثير من الدموع، الحزن.. والسعادة؛ حين نُصادِفُ أَشخَاصًا طَيِّبينَ في حَياتِنا، فإنَّهم يُعَوِّضوننا عن كُلِّ مَن فَقَدْناهُم؛ يَطمِسونَ جِراحَنا، وَيَمْنَحُونَنَا أجزَاءً منهم تجبر كسورَنا، وَربما يُغَيِّرونَ نَظرتَنَا للحَياةِ دونَ أن يُدْرِكوا.. ويجعلوننا ندرك كلما تقطّعت بنا السبل أنّ بعضَ الأزماتِ رَحمَات

علَينا أن نكون أقوياءَ أحيانًا.. لِلحَدِّ الذي نَتَمَاسَكُ فيه لآخرِ رَمَق؛ لكنّنا قد نَنْهَار حين تَفيضُ كُؤُوسُنا، حين تلفَحُنا السّعادة الشديدة؛ أو الحزن الشديد، واختلاطُ المَشاعِرِ الذي داخِلَنا يجب أن ندرك تماما متى نتصرف؛ وكيف نتصرف، وأن نمتلك الحكمة، بَينَ الألمِ والأمَل تَرتِيبُ حروفٍ بَسيط.. قد يَصنَع فَارِقًا عَظِيمًا!

١٥ يونيو ٢٠٢٠

تمت..